رواية

حين توقدت الرأفة

عباس مدحت البياتي

عباس مدحت البياتي

رواية

حين توقدت الرأفة

إهداء

أهدي روايتي لبطلي الرواية، ولمن ضاقت بهم السبل ومروا بتجويف ظرف عقر ظنهم، ولكل إنسان يبحث عن خارطة طريق ترشده لبر الأمان، ولمن لم تسعفه فرص الحياة في إيجاد حل لمعضلاته وأزماته، ولمنْ لم تآزره ظنونه وحظوظه فوجد نفسه في عجز تام أمام تحديات الزمن.....

إلى كل هؤلاء والقراء الأعزاء، أود أن أقول:...

للعُقد حل في السر الخفي الذي يكمن في طاقة خفية تكمن في داخل الذات تسير الأنسان لبر الأمان.

عباس مدحت البياتي

ولدت فكرة الرواية عن قصة حقيقية وقعت خلال الحرب العراقية الإيرانية، استعرت ذات الأسماء وطورت الفكرة ثم بنيت عليها فكرة الرواية.

الفصل الأول

1- أبو نجاح

مع طلوع الفجر، مع لحظة ولوج النور في خصر الأفق، مع نث تباشير الغبش في عين الظلمة لقشع ضباب العتمة عن جسد اليوم. خرج أبو نجاح من بيته مرهقا يجر أذيال العناء لمطعمه المتواضع في شارع الكفاح،.. سار بخطواتٍ مثقلةٍ، كأنها تحمل إرث التعب الذي راكمته الأيام، متبعا شارة الرزق كدليل لمطاوعة منغصات الغد.

لا تزال النجوم تشهق في مواضعها، تبرق بنورها في جوف السماء الصافية، محتفظةً بتلألؤها، تقاوم زحف هباء الفجر، بائنةً في مواقعها كأصداف البحر المتناثرة في درب التبانة، قناديل ليلٍ وشلت طاقتها.

كان يمشي ببطء، تتهادى خطواته نحو شارع الكفاح، تتقاذفه نسائم تشرين الباردة، تلفح وجهه المرهق، كأنها تواسيه بصمتٍ شفيف. صحته المتدنية، فقره الذي نخر جسده، وإهماله الذي أثقل روحه، كلها كانت تتجسد في تلك الخطوات المتثاقلة، كأنها تحكي قصة رجلٍ لم يخذله الزمن فحسب، بل تركه يواجه مصيره وحيدًا، بلا سندٍ سوى الأمل الذي لا يزال يتشبث به رغم كل شيء.

مع الساعات الفجر المبكرة، مع تدنى درجات الحرارة لأوطأ مستوياتها، رجفة طارئة استباحت أوصاله، كنَّبأل شوك خرقت جلده المنكمش، لسعته. سترته الرمادية البالية وبنطلونه الواسع لا يسعفانه في مقاومة حدة برد الصبح القارص.

وهو ماض في طريقه أزكمت خياشيمه النسائم الباردة، أشعرته بالقشعريرة، كش جلده، أهتز كتفه، جعلته يُسرع بخطاه نحو مطعمه قدر الإمكان، هجس بذاته بحاجة إلى أن

يـركن جسده فـي ركـن دافـئ يحتمـي بـه. رافقـت خطواتـه الوئيـدة حالـة قلـق بسـبب صـحته المتردية، هجـس بحاجتـه لمـؤازرة قـواه على تخطى عجزه الذي بدأ يتفاقم عسره في الآونة الأخيرة...

كـان قـد الـتمس هشاشـة صـحته فيمـا سـبق، لكـن عسـر الحـال حـال دون مراجعـة المشـفى، لقـد حـس بالفـارق الواضـح عمـا كـان عليـه قبـل شـهر وشـهرين، بـل قبـل أسـبوعين مـن الآن، وكـأنَّ الصـحة مالـت بـه ميـل السـقوط الحـاد المفـاجئ نحـو الهاويـة. تراجعـت صـحته كثيـرا عمـا كانـت عليـه، أضـحى يتبختـر فـي مشـيه كقشـة تهفـوا بهـا الـريح، كغريـق يتأمـل أن ينجـي نفسـه بعـارض جـانبي، يسـعف ذاتـه كـي يتجـاوز أزمتـه، غيـر قـادر علـى مجـاراة العلـة المرتكـزة فـي صـدره، غيـر قـادرٍ علـى تخطـي حاجز ذلك اليوم العنيد دون مشقة...

هجـس بجهـده قـد بلـغ الـذروة فـي مقاومـة الـزمن، نبـع ذلـك الشـعور المتـردي مـن حاجتـه النفسـية للفـظ سـعلة محبوسـة فـي صـدره كتمـت علـى أنفاسـه. ود بهـا طـرد سـخام دخـان السـجائر ووغـف تلـك العلـة العالقـة علـى جـدران الـرئتين.. صـار يسـعل بقوة دون أن تعينه قدرته على نزعها.

كه – كه....

حشـرجة ألمـت بـه، زادت مـن وتيرهـا، كأنـه أصـيب بعقـدة السـعال الـديكي، اختنقـت المسـامات وجهـه بالـدم، أحمـرت وأصـفرت مـع حشـرجة شـدت عليـه الخنـاق. راغـت وعثـاء السـعلة فـي فمـه طـويلا، دون أن يـتمكن مـن لفظهـا، عـانى طـويلا بعـد أن انبجسـت فـي بلعومـه كعقـدة هوائيـة، ربمـا التحسـس المفـرط جعلـت مـن حساسـية المـرض تلتصـق بسـقف فمـه، شـيء مـن ذلـك القبيل علق بحنجرته مع خروجه من البيت.

وهـو مـاض فـي طريقـه؛ هجـس باللوعـة تلتـف علـى عنقـه كحبـل المشـنقة، الـتمس شـناعتها وهـو فـي أسـوء حـالات صـحته. الـتمس قسـوة الظـرف وثقـل الـزمن، كأنهمـا أخلتـا العهـد معـه، تجاوزتـا

حاجز الرأفة على كبح جبروته، واكبتا انكسار ظل العمر، وافقتا تفاقم الفاقة المزرية المتنملة في حياته كمياه متسربة لقاعدة جدارٍ آيل للسقوط.... هكذا تكبل بالعجز، بددت أحلامه ورغباته التي ود بها انتشال أولاده القصر من الفاقة تفلت من قبضة يده، تنحدر مع انحدار صحته.

تلك الغصة التي صيرتها الأيام؛ أصبحت رفيقة دربه، لا تفارقه منذ فترة ليست بالقصيرة، لكنها في الآونة الأخيرة لزبت به، أربتت ظله، أضحى لا يمكنه تجاوز خطرها، لا يمكنه إصلاح شأنه، فوكل ذاته لمشيئة الله.

كان أبنه نجاح البالغ من العمر ستة عشرة سنة قد سبقه إلى مخبز الصمون ليقتني منه حاجة المطعم اليومية، وليهيئ المطعم ويعد المتطلبات الضرورية للمباشرة بالعمل.

أما هو فأنَّ صحته المتدهورة كشفت له حجم التحديات المقبلة، بعد أن صارت تخفق في جرييها، تزيد من نغصها، غدت الحالة ثقيلة، مزعجة له، مرعبة، ترغمه على تحمل أعباء مشاقها دون أن يجد حلا لمأزقها وعنفوانها..

ها هو يلتمس دكنة يومه المعتادة، تلك التي تتحول مع السعلة المراقة في صدره لمعضلة تعيق عزمه، لعقدة عقيمة، لدمغة عبور يصارع بها واقع صحته. هجس ذاته قد تخلت عن تلك الحياة الوردية التي صاحبته ايام شبابه، تلك التي أرهقته بالظن والبائس والتأمل الطويل، هجس بذاته يعجز عن تكملة مشوار يومه الحالي، صار يتحسس بقرب أجله، يتحسس جَلَده ومصيره المحتوم كتحسسه أجواء الطقس من حوله.

وهو ماض في طريقه بخطواته الوئيدة؛ داهمته السعلة للمرة الثانية والثالثة والرابعة قبل أن يدرك حدود الشارع العام، التصق البلغم في سقف الحنجرة، أجبره على الوقوف والنكوص في معالجة أمره، أضحى يجلس جلسة القرفصاء لردع غياث السعلة دون جدوى.

تلك السعلاة أضحت رفيقة دربه، تيقن من أن وغف السل يرغ برئتيه، أيقن بأنه مصاب بالتدرن، عدم التزامه بإرشادات الطبيب الذي حذره مرارا وتكرارا من التدخين وآثاره، أوصله إلى ما هو عليه، لمْ يأخذ إرشاداته على محمل الجد، أو أنه لم يتمكن من الالتزام بها لضعف عزمه، لهوانه أمام نكهة السجائر التي كبلته بالفاقة والعلل. كان ذلك بعد أن وجد جسده يتهتك من الداخل، تحول لمنخلٍ مشبع بسخام الدخان والنيكوتين، كان ذلك بعد أن تجاوز خط التحذير بزمن، فلا جدوى من الالتزام بالإرشادات متأخرا.

هكذا صارت السعلة تهاجمه دون رادع، بات يعرفها جيدا قبل أن تغازله، صارت رفيقة دربه، تعود عليها، كأنه تعود على سخطها وعنادها وقسوتها، أضحت مؤنسته الوحيدة التي تذكره بقدره القادم، أضحت الصَّدِئ الذي يؤرقه والقابع خلف جدار شفيف من الصحة. أحيانا ينفه عن ذاته حين يتذكر ماضيه التليد، فينحدر لذاكرة الطفولة، فيذرف دموع الحسرة على ما ضاع منه من زمن دون أن يعين نفسه على تحدي صعابها.

تلك الذكريات الحلوة المرة تعبث بسكونه وصبره، تجهد فكره وقلبه، لشدة وقعها وتأثيرها عليه إلى جانب فقع السعلة، حيث العيون محمرة، منتفخة، تكاد أن تُلفظ من محاجرها حين تشتد عليه السعلة.

ما أن تزاوره؛ حتى يَقَنَتْ اللون في وجهه لانسداد مجرى التنفس، فتمتلئ محاجر عينيه بسيل من الدم والدمع، حينها يهجس بالكون يضيق به ذرعا، يتحسس قرب مصيره، يعرف بأن أبواب النجاة أصبحت مؤصدة أمامه تحت أية نتيجة، بات يدرك وقع موجات العصف المكررة دون هوادة.

ها هو وحيدا يجر أذياله، متبعا طرق متعرجة، العدو يتربص به في زواياها هنا وهناك.. فيما سبق كان لا يبالي بانكسار عصا الصحة، أما الآن فهو بأمس الحاجة لتلك العصا

ليتكئ عليها، لتراعي حالته في مشاويره، لتعضده في هوانه حتى يكبروا اولاده. أدرك بأنه ليس لديه القدرة على مقاومة الزمن والقدر المواربِ يخاتله بين الحين والحين، أضحى يستعين بنسمات الفجر أملا من أن ترفع من طاقته في إسعاف رئتيه المرهقة بالأوكسجين، أملا أن تعيد إليها آليتها لتكملة مشواره.

صار يستنشق تلك النسمات المحملة بعطر الرياحين والورود العبقة وخضرة الحدائق المحيطة به، هجس فيها رحمة تعينه على جلده، ود أن يكتنز شيئا من بهجة الصبح المنشية بتلك الرواق، أن يتكئ عليها ليتخطى هوانه، باغيا أن يصل مطعمه الكائن في حي الميدان في وسط بغداد..

حاول أعانة ذاته بما يستطيع من خبرة الحياة، دون أن تلين له الحالة مع تفاقم مرضه. الأمنيات لا تجاري الواقع مطلقا، كأنَّ الصعقة التي أصابت جسده كشطت الهواء من حوله، أينت رغبته بالحياة في داخل نفسه، أستشعر بصرامة الاختناق التي أوثقت قدراته بالعناء ودون معين. أضطر إلى التوقف مرات ومرات في وسط مشواره، بات يجلس هنيهة على دكة حجرية تتوسط الطريق، أو يستند على شجرة أو جدار ليأخذ قسطا من الراحة قبل أن يدرك الشارع العام، هكذا دواليك. عاد يمشي أدراجه بخطوات وئيدة وهو يجر جسدا أجدبا لباب رزقه إكراما لإرضاء فلذات كبده.

أدرك بأنه ما عادت قواه تسعفه على تحمل مشقة العمل، صار يتوقف هنيهة هنا وهنيهة هناك بين اللحظات المارقة، بات المشوار يأخذ منه وقتا أطول من اللازم حتى يدرك مطعمه، فيما سبق كان المشوار لا يتجاوز عشرة دقائق أو ربع ساعة من باب البيت للمطعم، أما الآن فأن النصف ساعة لا توصله لمطعمه، بل صار وصوله يتجاوز ساعة زمن. لذا بات يخرج مبكرا من البيت على الأقل بنصف ساعة، ليستطيع أن

يصل بالوقت المناسب لتلبية رغبات زبائنه من العمال الذين تعودوا على الإفطار في مطعمه.
خلال الطريق كان يستند على كل عارض يقابله، لذا أنشأ صداقة مع تلك العوارض، تعود الوقوف تحت شجرة الكاليتوس ليستند عليها بعض الدقائق، إضافة للدكة الحجرية الموجود في منعطف الطريق، أو يستند على جدار الطوب القديم في وسط مشواره ليعيد لذاته توازنها، من ثم يعود يتدحرج لمطعمه كالسلحفاة.
المواقف التي بات يتوقف بها في الطريق أضحت محطات تعدين تعيد له نشاطه وشريط ذاكرته، بنى معها صداقة، فما هي سوى محطات صبر وتفكير وتأني وتواطئ تلهم ذاكرته بأحداث تركت فيها ذكريات لا تنسى تتلقفه من بين أيادي مرضه وهوانه، لترمي به في جوف الحدث بشيء من الحزن والحسرة. من خلالها يحاول أن يرمم نسيج شباك فكره وصحته بشيء من العناد. محطات متفرقة تعيد جزلت أفكاره بسلسة من المشتتة، منحته عزم جديد يجدد به قدراته وقدره.
تلك المحطات أضحت رفيقة دربه، ترفأ بحاله، تحتمل وطئه، ترفق بسعيه. صار يستغل عطفها، يستعين بها لاستعادة نشاطه الزهري وتعديل عتلة صحته، على الرغم من أنها هَنَاتٌ مبعثرة من شدق زمن أغتم لا تفي بالغرض، إلا أنها تريح قدميه التي ما عادت تحتمل جسده الاجدب، تعينه على تجاوز المرحلة ليدرك جلد واقعه..
في استراحته يتذكر أيامه الخوالي حين كان يافعا قويا، حين كان يطوي الفلاة تحت قدميه. أياما مضت لحتفها، ما عادت تكرر ذاتها، كان قد عبث بها كثيرا دون أن يقدر فتنتها، دون أن يراعي صحته بها، لم يحسب حساب يومه الآتي بعد أن تخور في شطط دروب المنكرات والموبقات، بذا جار على نفسه بتسكعه خلف تلك الملذات الآنية، حياة كبلته باعتلالات

الصحة وتخبطات أيام الشباب؛ حتى نشفت صحته ويبس عوده.

لم تعد تلك الأيام سوى ذكريات صخب لونت سفر قدره، مرارتها قد علست حلاوتها، فباتت تذكره بنهاية مبكرة، تذكره بالغد القادم ونهاية المشوار والمصير المشؤوم...

أنه الروتين المعتاد الذين يسري على كل البشر، غدا ستدوي الصاخة في ميدانه، سيدون أسمه في قائمة الراحلين. ما عاد يمسك من قوائم الدنيا بشيء، سوى أن يودع تلك الذكريات التي آوت عمره المنصرم دون أن ترأف بحاله، جازته بصرامتها، دونتْ نشاطه بما يستحق من تبجيل وتنكيل، حتما سيكون بذاته ذكرى مؤلمة لغيره عن قريب، هذا هو حال البشر، فالدائرة تدور ولا تنتظر أحد.

تواتر الوعكات وتكرار المنغصات ووخيزات القلب أثابت مخاوفه، أثرت عليه بشكل مباشر وبالذات على جهده وطاقته. رافقت تلك الآفة المتربصة به رَعَشات آلية جزلت قدرته على المقاومة والتصنع، التصقت بكفيه وقدميه، غيرت من نظرته وتفاؤله بالحياة.

حالة غير طبيعية، غير مراءة جردته من واقعه، جعلته يهيم بذاته خلف مصيره المجهول. لا يَسْتَجْرئ تجاوز فكرة الوداع، أنها ليست في أوانها، جعلته يستشعر بأن عجلة الزمن تآكلت أطرها بسرعة، أوشكت على النزف والتوقف..

هاجس داخلي يخبره بأن نهايته قد قربت، باتت تنثر غبرة الشؤم على ثنايا الجسد، غدت مسألة الوداع محسومة في حساباته، أنها مسألة وقت لا أكثر.

تلك المشاعر باتت تقلقه، ترعبه، تركنه إلى وهدت الصمت، تهز كيانه، تتعقب ظنه، أدرك بأنه أقترب كثيرا من خط الحاجز الأخير.. لقد دخل في زمن الأشواط الإضافية، أضحت الحياة تتسرب من بين أنامله كتسرب المياه من

الثقوب، لن يستطيع السيطرة عليها.

إذا لابد من وقفة مع الذات قبل أن تحل الواقعة!! قبل أن يودع الوجود وتنتهي قصته؛ لقد عَلِمَ وأحَسَ بأن الحياة التي عبث بها فيما سبق باتت تعبث به، تنزف، جاء دورها لتستنزف طاقته، تعرج به، صار لها وقع ثقيل عما كانت عليه قبل أشهر، أرهقت قواه، شلت ثناياه... أضحت تنبأه بضرورة أن يسلم الجمل بما حمل لأبنه نجاح.

أدرك تماما بأن التباطؤ في ترنيمات القلب غدت حالة شاذة، أوشكت بطارية نشاطه على نفاد طاقتها، مما صارت تؤثر كثيرا على سعيه وحركته، ضيقت أنفاسه، شلت صبره، أضحى كعجلة الشحن مثقل بالهموم.

ها هي الحقيقة تتدحرج أمام قدميه، يصغي لصوت قطرانها وهي تطرق صفحات ذهنه بوجل، ها هي تدرس بقايا عمره بعجلاتها، تنحدر به سريعا نحو هوة الوداع. صوت جلل يصيخ أذنيه، كجلجلة الرعد المنبئ بالإعصار. ها قد صُفد جبينه بقطران العرق، شحب لونه، هجس بساعة الفراق قد أذنت موعدها..

لم يعد يحتمل تكرار تلك النوبات المنذرة له منذ زمن، كأنها باتت تنذره للمرة الأخيرة، لتقول له:--- كفاك جهدا وعملا ومكابرة، عليك أن تسلم إدارة المطعم لولدك نجاح وأن تعد ذاتك للرحيل----

بعد جهد جهيد وزمن مضاعف وصل مطعمه مجهدا، متعبا، متنهدا، منحن الراس، محمر الوجنتين والعينين، يكاد الدم ينبلج من مسامات وجهه.

جلس على كرسيه المعتاد وهو يشهق من الكدر، يتأمل صبحه الثقيل في واقع مطعمه البأس بشيء من الصمت، شعر بأن تلك الكراسي ما عادت تبهجه، ولا ذلك الأمل الغافي في طيات الغد يسعده. هذه هي الحقيقية المرة التي باتت تخطر

ذهنه بمرارتها، أضحى في عالمه الواسع وحيدا كشجرة صفصاف متيبسة، مدركا نوايا الصمت الدائرة من حوله وفي أجواء فكره، وذلك السكون المخيف المحيط به والمراق في ظنه وهو يجذبه لمتاهات الغياهب المخيفة، كأنه ينبئه بقرب العاصفة بعد أن طالت فترة السكون..

وجل ما أعترى فكره، أعتلى أفق ظنه كمنسوب فيض لن يقف عند حد، اقترب من حدود مملكته دون أن يلغي الظرف الموارب، رعب لابد في داخله يهدد قلاعه، أضحى يشم عبق زفرات الموت وهو جالس على كرسيه.

نوايا غافية تتأبط السكون، وأخرى قابعة على حدود الظن متيقظة، مستشيطه، صارت تقاوم إصراره وعناده وجلده، صارت تذكره بنهاية المطاف، توضِح له معالم العمر، تُقشِعْ الضباب عن الفكر.. أضحى يدرك دكنة الغسق في نهاية رحلته الطويلة، صار يَعُدُ أنفاسه الباقية، يعِدُ ذاته للمغادرة قبل أنْ تَنغمس الروح بعتمة المساء وتدوي القارعة في حوض العائلة.

قد تدوي المفاجأة به قبل أن تستكين عاصفة اليوم، قبل أن تنهي النجوم سهدتها على ضفاف عمره، أنها لحظات ترقب وتأني تائهة في مجالات الفكر والظن، غائرة في جوف الزمن، تبحث عن مستقر لها خارج بقعة السراب الماثلة أمام عينيه.

نعم ...لقد تآكلت عجلة الحياة نتيجة الجهد المناط لها، لم تعد تحتمل الشدة المفرطة التي تعود عليها، تلك التي آلت إلى وهدة الشك بتقييم قدراته، أضحت لا تقاوم جلد الزمن، قرضتها خشونة الظرف والفاقة، أنهكتها تخبطات القدر. كانت قد قُيدت بالمشقة كحمار تكبل بأسفاره. تجاوز بها فلاة الصبر والفاقة بشيء من النكد، حتى جنحت به إلى وهدتها الأخيرة.

بعد العناء والشقاء تبدى غشاء الصبر، تآكلت سِرَفْه، هكذا ولدت في ذهنه نغمة الوداع بقناعة، استسلم لواقعِه المرير،

الحالة جعلته يرتدي سرابيل الحكمةٍ، لتعينه على إقرار قراره.

وهو جالس على كرسيه المعتاد يقتنص حركة الزبائن الداخلين والخارجين من مطعمه. واضعا على طاولته دفترا صغيرا ومقلمة تحتوي على قلمين باللون الأحمر والأزرق - إضافة لعلبة مناديل ورقية وأستكان شاي وآلة حسّابة لحساب الدخل، ونفاضة لجمع رماد سجائره.

كان يرتدي سترة رمادية قديمة وبنطلون أسود وحذاء جلد كان قد صبر عليه طويلا؛ حتى تآكل كعبه ورهق عروه، كأنه تعود على صداقته فلم يرغب بالتخلي عن خدماته الطويلة، الجليلة، فأضحى شيء من التاريخ والروتين الذي يركبه. تُوشِحْ وجهه لحية خفيفة خشنة بيضاء اللون تواكب لون قميص فضي وشعر راسه أشيب كث، مُشّظ بخيوط سوداء كأرض متجلدة، وجهه معفر بخطوط تحكي قصة شقاء السنين.

بين الفينة والأخرى يرتشف رشفة من الشاي مع كل مجة دخان يزفرها من فمه، تلك السيجارة التي تعود على لفائفها منذ صغره والتي تسعف رئتيه العاجزة بسموم النيكوتين القاتلة..

تلك الصورة أصبحت جزء من ديكور المطعم العام لا يمكنه التخلي عنها، عادة أدمن عليها منذ صباه، أضحت الصلة بينه وبين السيجارة وثيقة، على الرغم من أنها شلت قدراته وامتصت طاقته؛ إلا أنه أبى التخلي عن صحبتها للألفة التي جمعته بها.

أدرك بأن نهايته باتت وشيكة، لقد قطع مجمل المسافة التي ابتدأ بها من لحظة وعيه، أضحى على مشارف خط النهاية، ربما أدرك النهاية في قرارة نفسه وسره، حيث في حساباته الخاصة يستشعر بذلك، فلم يبقى من المشوار الطويل سوى التتويج الأخير.

الآلام المتناوبة والمتذبذبة تحت قفص الصدر تغيظه، فيما

سبق كان قد أهمل سرها ووجودها، لانشغاله بتدبير أمر الرزق، بات ذلك الأمر متشعبا، يزداد وتيره، يهدد كيانه..

خلال مراحل حياته، كثيرا ما كان يفاضل بين المادة والصحة، لارتفاع تكلفة العلاج الباهظة، تلك التي لا يحتمل ثقلها في ظل فاقة عامة تكبل بها المجتمع منذ زمن دون اهتمام الحكومات المتعاقبة برقي الشعب.. لقد مرت الحقب ثقيلة عليه، لم يرى فيها عاطفة أو حالة ترفأ به إلا وتحت قدميه تتقد نار تؤرقه.

شكلت تلك الآلام والنوبات صداقة دائمة مع عمره، جعلت تلك الوخيزات التي يستشعر بها تنازعه على سفرة المصير، لا تكف عن مداعبته ومغازلته من حين لحين، حيث بين الفينة والفينة تشرع بطرق بابه لتذكره بالخلل الدامغ، تئم زيارته المكلفة عليه، تنبأه بشر يتربص به يختبئ في جوفه، شر قادم لا يمنع ظهوره سوى هاجس تعلق بالروح وبرمق الحياة.

عادة تعود على إطلالتها، لكنه أصبح في وضع لا يمكنه أن يغفل آثارها، حيث ما أن تنبأه الوخيزات بالخطر؛ حتى تختفي في دوامة القلق فترة ما، قبل أن تعاود إطلالتها مرة أخرى بشؤم أكثر حدة وضراوة. لم يواجه تهديدا جديا، حتى صارت تكرر ذاتها، كأنها مكبولة بمداعبته، تذكره، تحذره من البعبع المجهول القابع خلف جدران الزمن. كأنه بنذيرها علم وتيقن من أنه مغلوب على أمره لا محال، أنه يدرك بأنه يصارع الحياة في مرحلة الجولة الأخيرة، لا تسعفه طاقته من أن يقتص منها، أو يوقف عناد هجماتها.

في آخر محاولة له لتقصي خبر عنادها، حذره الطبيب من خطورة التدخين ودسامة الأكل، ما عادت شرايينه تحتمل ترسبات الكولسترول المرتفعة بالدم.. إلا أنه لم يبالي بتحذيرات الطبيب بعد أن أضحى قيمة العلاج لا يتفق مع مشقة الطريق. لم يأخذ بنصحه كونه تعلق بفكرة العمر محدد والأجل

مكتوب لا يزيد ولا ينقص.
دائما ما يوعز العمر إلى تقدير الخالق جلَّ جلاله حيث يقول:...

- الأعمار بيد الله، أن دخنت وأن لم أدخن! فأن العمر محدد ومكتوب في لوح محفوظ، فالتدخين ما هو سوى عملية تسلية لا اكثر ولا أقل.

هذا هو ديدنه في الحياة.. لقد أهمل تحذير الطبيب حين قال له:..

- نعم.. العمر واحد ومحدد ومكتوب مثلما نأمن به، ولكن مفهومك لعملية تحديده غير صحيحة، لم تستوعب عمق كلام الله ﷻ، فهو ممكن أن يزيد أو ينقص بالترويض.. الله عزّ وجل وضع كل العناصر في بوتقة واحدة ثم جعل لها مقاييس ثابتة، ثم وضع الخيار بين يديك لتختار نصيبك من تلك العناصر، حيث قال: لا ترموا أنفسكم إلى التهلكة، فلو كان العمر محدد ومكتوب ما قال ذلك.. كل جزء من أجزاء الكون له تأثير إيجابي وسلبي على صحة الإنسان، وهذا التأثير يحدد العمر، مثل إطار العجلة إذا ما استخدمت في الطرق الخشنة سيختلف عمرها عن تلك التي تستخدم في الطرق الملساء الناعمة. كما للظرف والطقس والحزن والفرح والغنى والفقر تأثير على قدراتنا وتحملنا. فتأثير العسل على الجسد يختلف عن تأثير الدخان عليه، وتأثير السكر يختلف عن تأثير الملح، كذلك تأثير الفرحة والضحكة والحركة تختلف عن تأثير الحزن والبكاء والقنوط.. هذه هي المقاييس الحقيقية التي تحدد زمن العمر، وهذه هي المسالك الحقيقية للصحة ولديمومتها، ففي راحة البال وحسن العلاقات وهدوء النفس وتجنب العصبية والمعاصي

ونبذ الموبقات يطول العمر.

أكيد للسيجارة تأثير على تصلب الشرايين، فما من شك بذلك، كثيرا ما ترجاه أبنه نجاح الالتزام بإرشادات الطبيب، حذره من تماديه في إهمال صحته.. دائما ما كان يذكره فيقول له:...

- يا أبتي أعتني بصحتك أترك السجائر، أستعن بالله ولا ترمي نفسك إلى التهلكة، فالتدخين تهلكة، ونحن بحاجة لوجودك بيننا، لا زلنا صغارا، لا نفقه أمور الدنيا ومشاكلها.

لكنه بعد أن تجاوز حاجز العمر أضحى أكثر عنادا وصلابة، لا ينصاع لنصح قط، لتصدع أركان صحته. فيما أضحت تراكيب مخه أشبه بألواح قديمة متآكلة، بالية، لا ينفع الكتابة عليها، ولا يمكن تغييرها قط. لقد أوعز تمسكه بالتدخين إلى أن الذي فات من العمر قد فات، لا يمكن استرجاعه وتعويضه، وما تبقى منه لا يعد سوى رشفة أخيرة مما تبقى من كأس الحياة.

لم يبالي بصحته سابقا، أترى تنفعه المبالاة بالرشفة الأخيرة؟؟؟..

أنها النهاية، لقد دق ناقوس الخطر، لا يمكن لبشر أن يتنحى عن خط قدره إطلاقا. لقد ذهب الزبد وما تبقى لا يعد سوى وغف حزن ومرارة سنين مترسبة في كأس العمر.

الجسد أجدب مثقل بالهموم لا ترغه حركة، أشبه بسلحفاة جاثمة في مكانها، يتلفت برأسه يمينا وشمالا، يبحث عن معضلة ما يسلي نفسه بها.. لذا شغل نفسه بتسليك طلبات الزبائن من خلال التوجيه والإرشاد والإشارة، ليسهل توصيل طلبات الزبائن بيسر لطاولاتهم المتخومة بالزبائن، تلكم التي لم تعد تسع زبائنه في أوقات الذروة، خاصة في فترة الفطور الصباحية، لقرب المطعم من بسطة العمال في شارع الكفاح

والميدان..
في النهاية استدعى نجاح لجانبه ليرشده ويقوي عزمه ويشرح له ما عليه فعله وكيفية إدارة المطعم من بعده، وأوصاه بالاعتماد على بعض أصدقائه المقربين إلى أن يتمكن من الاعتماد على نفسه وتسليك أمره وأمر المطعم.

2- 1979

الحقيقة عمل المطعم عمل شاق، يحتاج لخفة وسرعة وبداهة وفطنة، إلى إذكاء ولباقة في التعامل مع الزبائن، وأحيانا إلى جلد وصبر في تحمل شعوذة بعض المارقين عليه؛ إضافة لاستقبال وتوديع الزبائن بحدود اللياقة واللباقة والمصلحة التي يجب أن تكون على درجة عالية من التقدير المستمر...
كان أبو نجاح يعي جيدا بأن الكلمة الطيبة صدقة، والابتسامة صدقة، فعلى صاحب العمل أن يغرف من هذه الصدقات المجانية التي أنعم بها الله على خلقه، ليوزعها على زبائنه برواء، كي يعلوا كعبه ويزيد رزقه. التعامل بالحسنى، ترقي به لمكانة أفضل في عيون زبائنه، يعود عليه بالمنفعة، فيزيد عدد الزبائن، فيتمسكوا بمراودة مطعمه.

لذا كان عليه أن يكسب زبائنه بالحسنى، فعملية كسب الزبائن يعتبر فن وإتقان لإدارة العمل، فن راق بمعنى الكلمة، وعلامة من علامات النجاح لكل من يود العمل بجدية وإخلاص وتفان.. هناك عوامل لتحقيق ذلك؛ حسن المعاملة وجودة البضاعة والاعلانات المروجة، هما من يفلجان الطرق أمام الرزق.

منذ أن شعر بضعف جسده وهوانه المتزايد، وانتهاك المرض لجدار الصحة، قرر أن يعتمد على أبنه نجاح في إدارة مطعمه على الرغم من صغر سنه، لذلك عزم على تهيئته بعمر مبكر.

الزمن كبله بالشقاء، بالتعب، أحنى الظهر، غدت تعابير الوجه تحكي قصص شقاء السنين العجاف التي ألمت به، والتي أقعدته في ركن من أركان الصدع دون إرادة. إلا أنه كابر كثيرا أمام عجزه، قاوم هذا الشقاء بشيء من المبالغة، تمكن من أن يصمد ويتخطى خطوط العجز والكسل بالعناد؛ حتى كبر أبنه امام عينيه، حتى صار جدارا يستند عليه في إدارة مطعمه..

هكذا تمكن من أن ينجز بعض قواعد الحياة الميسرة، لتستمر الحياة والحالة وفق أهوائه وتوقع ظنه.

كان يراقب أبنه من خلال جلوسه في ركن المطعم خلف طاولة الحسابة (الكاشير)، بحيث من خلال جلسته يستطيع أن يسيطر على مساحة المطعم الداخلية والخارجية بيسر، يستطيع أن يشرف على مجموعة الكراسي الموزعة داخل وخارج المطعم، تلك الطاولات البيضاء الدائرية من البلاستك المحاطة بثلاثة أو أربعة كراسي. حيث بعض الزبائن تستهويهم جلسة العراء في الهواء الطلق، خاصة في أوقات المساء، ليشعروا بحالة الانتشاء بنسائم دجلة خلال صيف بغداد المحرقة، أو التلذذ بشمس صباح الشتاء الدافئة.

نادى على أبنه ليجلس جانبه....

- أبني نجاح ....
- نعم يا بابا...
- تعال أجلس بجانبي.
- حاضر يا بابا ...ما بك؟ هل من شيء؟

أزاح نفسه جانبا ليجلس في مكانه ثم أشار له لينتبه

- أجلس في مكاني على كرسيي وأنظر جيدا حولك، أودك أن تطلع على وضع المطعم من هذا الكرسي، لاحظ عندما تجلس في هذا المكان، أقصد في مكاني؛ تستطع أن تسيطر على أرجاء المطعم الداخلية والخارجية منه.. يمكنك أن تدير شؤون المطعم من مكانك هذا بيسر، دون جهد وعناء، تستطيع أن تسجل طلبات الزبائن الخارجية والداخلية عندك! عليك أن تتعود الجلوس في مكاني هذا، لتكون في موقعك قائدا ناجحا، يحترمك العمال والزبائن.... كن هادئا، مرنا، لا تشغل نفسك بمخاصمات أو مشاجرات مع هذا أو ذاك، وخاصة مع الجيران والتي لا تجلب لك سوى وجع الرأس. كن طيبا، مرنا، خدوما، بسيطا، متسامحا، ستجد العون من الجميع حين تحتاج إليهم...ناصحا أبنه، قائلا له:...

يا بني: الرزق يعتمد على المعاملة الحسنة، والذي لا يحمل نقودا في جيبه سامحه، أجعل ما يأكله صدقة، الصدقة لا تضيع، ستكون في ميزان حسناتك، سيعوضك الله في الرزق والصحة والعقل. الصَدقة تبعد عنك وساوس الشيطان، تديم لك النعم، الله أوصانا بالصدقة، تصدق على الفقراء والمساكين بما تقدر. قال الله في كتابه الكريم (لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّـهَ بِهِ عَلِيمٌ)..

- ولا يهمك يا أبي: أبنك رجل!
- أنا أعلم ذلك... لذلك يا بني أود أن أفتح معك موضوع خاص..
- خيرك يا أبي.
- أبني أنا مريض، صحتي معتلة، متدهورة، ربما هي في مراحلها الأخيرة، لقد وصلت في عدوها خط النهاية، هي الآن تترنح في آخر مشوارها الذي تكلل بالكثير،

وهذه هي سنة الحياة ...لا تبتأس مما أقول؛ فاني أود الاعتماد عليك فيما بعد.....
لن أستطيع أن أقاوم طويلا جهد البدن، أودك أن تحرص على أمك وأخوتك، أحرص على رزقنا، لا تبذر خيره أبدا.. أودك أن تتعلم فن الإدارة وأسرار المهنة قبل أن أرحل.... هذا المطعم مصدر بقائكم ورجاء مستقبلكم، أنه خير جار، عليك أن تهتم به.. أن اهتممت به سيهتم بك، سيزيدك ورعا وقدرا. وأن أهملته سيهملك، سينتقص من شأنك.

كان في نصحه وإرشاده كلقمان الحكيم وهو يعض ابنه.

- أين تذهب يا أبي؟ لا تيأس، دع إيمانك بالله قويا.
- والنعم بالله، يا بني... صحتي أرهقتني، والأعمار بيد الله، وكل أنسان لا يأخذ أكثر من نصيبه في الحياة.
- الله يطول بعمرك يا أبتي، لا تقلقني.

(لازال نجاح طفلا مراهقا أبن السادسة عشرة سنة).

- الله يذكر في كتابه "كل نفس ذائقة الموت" فلا مناص من ذلك، لذا أود أن أوصيك بنفسك وأخوتك، أوصيك خيرا بزبائنك، أحرص على سمعة المحل، لا تغش في صناعة الكبة، لا تتعسف، تجاوز عن أخطاء الآخرين، تجاوز عن محنة الفقير، كن حريصا على أمك وأخوتك، كن كريما في تعاملك مع الآخرين.
- يا أبي أقلقتني كثيرا.. دعني أخذك للطبيب.
- يا بني هذا الجسد مثل وعاء الماء، أذا ما بات يتسرب منه الماء لا يصلحه سباك أو نجار. فالبدن لم يعد بمقدوره احتمال ضغط الحياة، هكذا هو جسدي، لقد تهرأ من الداخل قبل أن يتهرآ من الخارج، فلا أظن بقيَّ نفعٌ فيه... صدقني يا بني لا يمكن أن يعيده طبيب لسابق عهده، أنه أشبه بثوب تهتك بسبب كثرة غسله ونشره

أمام الشمس، كلما شدّتَّ عليه تهتك وتمزق جزء منه.

- دعنا نذهب للطبيب واستعن بالله.
- الأنسان ادرى بحاله، قلت لك أني ماض... كل أنسان يعرف نفسه وقدراته، عليك أن تتمسك بما قلته لك وتميز بإدارة المطعم، فأنت الكبير من بعدي، أعتمد عليك في أدارة مصالح أخوتك، فأني لن أستطع أن أطلب ذلك من أخوتك الأصغر منك سنا فهم لازالوا براعم عودهم أخضر طري، لن يحتملوا الجلد، لا يقوون على الصمود أمام العواصف المقبلة.

بعد أسبوع من تلك الواقعة كان قد تلقفه الأجل ليذهب لدار حقه بعد معاناة من المرض، أنها النهاية الطبيعية لكل البشر، أضحى نجاح المدير الفعلي للمطعم وكان قد ماز في إدارته. كانت تلك الكلمات هيَّ أخر كلمات والده التي سمعها منه قبل ان يتلقفه الأجل، ارشاداته أضحت منهجا له، صار يتذكرها باستمرار، كانت لها وقعا إيجابيا عليه، شدت من أزره، قوت عزيمته على مواصلة المشوار بحنكة وصبر، ازداد حرصا وهدوءً وثباتا في عمله.

أخيرا رحل أبوه بعمر الواحد والخمسين عاما، كان ذلك في أواخر عام 1979. أرهقه الزمن فلم يعد يحتمل وقع المشقة والتعب، تكبل بمرض عضال جرده من بريق حياته، جرده من متعة الحياة التي طالما كان يبحث عنها بين زحمة تطلعاته الخفية، دون أن تكشف له عن بريق وجهها الناصع. طالما تأمل تلك السعادة المرجوة بين طواف فكره الواهف، إلا أنه لم يغرف منها سوى نزر يسير من لآلئ الصَدَفْ، كانت قد طفحت في حياته كطفرات الحظ، بعد مشاوير العسر التي لازمت قدره.

على مضي سنتين من الصبر بعد رحيل أبوه المفاجئ، تمكن نجاح من إدارة المطعم على أحسن ما يرام، أكتسب

زبائن جدد، وخبرة متأصلة، حقق من خلالها نجاحات باهرة قوت عضده وعظمه، ثبتت خطاه في مجال العمل والتألق، أضحت لسمعته رنة في إذهان الملأ، غدت المصلحة تتسع أفاقها، صار له منبر يُنظر له بعين العجب، أرفق عمله بآفاق ترحاب عم وجوه الزبائن.

باتت بالونات سمعته تعلو أجواء الجدل، زادت الطلبيات على الكبة، تضاعف الزبائن، زاد الدخل، تضاعفت الأرباح، بل أنه أصبح لديه عاملان وثلاثة يسندانه، يساعدانه في توصيل طلبيات زبائنه لبيوتاتهم والمحلات القريبة.

تمكن خلال فترة وجيزة من أن يجمع مبلغا لابأس به من المال، أعانه على طلي جدران المحل من الداخل والخارج بلون تبني جذاب، كما بدل طقم الكراسي البلاستيكية بأخرى خشبية أكثر جودة وصلابة، غير من شكل الديكور المزين به المطعم، جدد قطعة المطعم الخارجية المعلقة بأسمه، علق صورا تاريخية تمثل الحضارة السومرية والبابلية على جدران المطعم الداخلي مع صورة كبيرة لوالده، مع باقات ورود بلاستيكية ثبتها في زوايا المطعم، كانت للمساته رونق بهيج، صار المطعم أكثر إشراقا وجاذبية ونظافة، مما أعانه على جذب زبائن جدد، بتشجيع ذاتي وخارجي من لدن محبيه وأصحاب والده.

أستمر على ديدنه في تطوير مجال عمله وتوسيع بسطة فكره، بحيث أصبح أكثر شهرة من ذي قبل، أكثر توسعا، أكثر عطاء. حتى صار لأسمه لمعة في أذهان الزبائن؛ لجودة منتوجه وحسن سلوكه ورخص مطعمه.

3- الحرب العراقية الإيرانية 1980\09\22

عبثا حاول نجاح أن يتدارك منغصات عجلة الحرب التي اندلعت بين الجارتين العراق وإيران في 1980\09\22، تلك التي جَمدتْ الحياة في كل مجالاتها، قصمت ظهر الشعبين بالمنغصات والفاقة والتناقضات، زحفت قدما نحو أوساط المساكين، عبثت بالسكينة والمروءة، جزلت الأحلام والأمنيات...

عبثا حاول أن يُعيد لذاته قيافتها، أن يبجل سعيه بالسرور، أن يزين مستقبله بقناديل أحلامه الفتية، أن يعتني بما تحت يديه من أمل ونار الحرب تتوسع خارج حدود تفكيره، تبث الفوضى في محاور فكره وبالذات في دائرته الخاصة والتزاماته العائلية، في ظل ظرف قتيم أعمى أغشى دروب وصله.

تلك الحرب مع مرور الزمن تحولت للعبة وتسلية بين أيادي الدول العظمى تبعا لمصالحها، الذين تمكنوا من قلب موازين الحياة في البلدين، شطبت قائمة السلام، كورت الاقدار ليعم الغيض سقف الشعبين، ليزيدوا حنق أحدهما على الآخر. غدا الظرف قانتٍ مجحفٍ، سواء كان ذلك في داخل الوطن أم خارجه، بحيث تمكنت الحرب من إحالة يسر الفرد لعسر، وتفاؤله لنكد ويأس مقيت يشكم احواله. نغصت أحلام الأبرياء

والمساكين، بل أنها حولت حياتهم لجفاء وهباء تتلاعب بها ريح الحرب وأقدارها.

كانت الحرب قد التصق وجومها بأذهان الاطفال، جرحت كبرياء الشبيبة والفتيات، عقصت أفراحهم بالنكد، بل علق أثرها بأنفاس الأبرياء كلسعة البرد، أوشت شهيق وزفير المسن والصغير بالآه والألم.

تلك الحرب بزغت نتيجة دوافع خفية، جاءت برغبة استعباد شعب بفرض الذات بالقوة. حيث فكرة الطمع والتوسع الكامنة في أذهان الفرس قديما، جعلت العُقد تولد من لا شيء، بدت الحالة تأخذ شكل الفقاعة المليئة بالحقد لتنفجر تباعا. هم من رسموا واقع المنطقة، هم من جيشوا الخميني بفكرة الحرب وآزروه بالمعدات لمعادات العراق.. فلم تكن الحرب سوى واقع فعل نفذت مآرب الحقد الدفين لدول الغرب، لتلوك سماء الوطن بسواد الرماد، في معمعة بغض وطمع وفساد عم المجتمع.

كان نجاح قد حاول جاهدا بأن يفل من عنق الزجاجة قبل أن يحكم عليه بسيفون الشقاء، تلك التي وضع بها دون جريرة ودون رضا، لم يستطع أن يتجاوز حدود المقت المشظاة في رؤى عينيه قدر أنملة، ولا أن يخالف الوعد والقرار والشك المراء في صمته وحيرته ابدا...

ببدء الحرب كان قد خبا بريق حلمه من لوح أحلامه، شوهت صور المودة مع جلجلت طبول الحرب في وسائل الاعلام والمشاع لونها في الأزقة والشوارع. الفوضى عمت الارجاء القطر، استباحت النفوس، جزلت كل شيء جميل من أفق الحياة.

كان قد عانى المجتمع كثيرا من تراكمات عقد الساسة وتخبطات القادة على مضي ربع قرن من الزمن، منذ أن سقط عرش الملك عام 1958 لم يستقر وضع العراق، أضحت

الهـزات متعاقبـة تضـرب أسسـه بـين الفينـة والفينـة، باتـت تلـك الحكومـات تسـير مـع دوامـة الفوضـى والتقلبـات المتلاحقـة، ممـا زادت مـن معانـاة النـاس عمـا كانـت عليـه مـن ضـعف وتنكيـل، كمـا زادت المعانـاة اضـعاف المـرات عمـا كانـت عليـه قبـل الحـرب. تلـك العقـد امتـدت أثارهـا وآثامهـا للنفـوس، لتنسـف أحـلام الشـباب وتأملاتهم الفتية الناهدة وهي في مهدها.

كانـت الحـرب قـد سـلتت رغبـات نجـاح مـن جعبـه قبـل أن يتخطـى واقعـه المهـزوز، قبـل أن يعـن ذاتـه بثقـة الـنفس، قبـل أن يتمعن وضعه ويستقرأ مصيره القادم.

مـع مـرور الأيـام بانـت آثـام الحـرب وجريـرة وقعهـا تمـس فكـره، تشـحط أحلامـه، القـت بظلالهـا علـى وجـوه المسـاكين والبسـطاء مـن أبنـاء الشـعبين. مـع اسـتمرار طبـول الحـرب توالـت العقـد، طفـح الكيـل، راغـت صـفرة الشـقاء والعنـاء فـي الوجـوه، زجلـتْ الأحـزان وجزلـتْ البهجـة والسـرور، تغلغـل الخـوف فـي نفـوس الشـباب، الـوجس جـرى كالـدم فـي العـروق، زج الأمـراض فـي الأبـدان، فبـان أثـر الحـرب كطفـح جلـدي فـي الوجـوه، غـدت الحياة رتيبة، مرة، توزع قيحها على كل أطياف الشعب.

أضـحت الرهبـة كواقـع حـال مرتبطـة بسلسـلة عمليـات الغـدر والتطـورات الحاصـلة علـى جبهـات القتـال، أضـحت الحالـة قدريـة الكـل يقـرأ توقعاتهـا ونتائجهـا، نتيجـة توقـع الأسـوأ باسـتمرار مـع تـداخل الحسـابات والنتـائج الوخمـة فـي بعضـها، بتنـا نَحِـن لصـفاء الماضي وشبقه.

مـع مـرور الايـام توسـعت الحـرب، تحولـت مـن رشـقات مدفعيـة علـى حـدود البلـدين لتتجـاوزه الصـواريخ والطـائرات والـدبابات وزحـف المُشـاة، تلـك الوقـائع امتـدت شـرورها علـى جسـد الـوطن، تحولـت الفاقـة بـين النـاس لآفـة تلقـم البسـطاء والمسـاكين، زادت حجـم الخسـائر فـي العـدة والعـدد، توسـعت العقد وزاد المدد، شُفتْ البَركَة من الوسط، بحيث تحولت الغلة

بين البلدين من بُركة صغيرة لمستنقع آسن، مرغت أقدام الجميع في قروؤها..

عبثا حاول نجاح أن ينجد ذاته، أن يتطلع خلف سعيه، كان لازال حدثا، فتيا، لم يتمم فترة نضوجه وبلوغه، لم يبلغ فكره وقلبه وبدنه أفق حلمه، لازالت أجنحته قصيرة لا تسمح له بالتحليق بطيران حر، لازالت لا تحتمل ثقل تطلعاته المستقبلية..

الحرب خلخلت أسس البيت والمجتمع في حوض البلدين على حين غفلة، شرشرت هباب المشاكل القديمة والمختلفة والأمراض النفسية، لتنتشر وتأخذ صداها بين صفوف الشعبين على نطاق واسع. حلت كطامة كبرى على عاتق الفقراء والمساكين من أبناء الشعبين، أولدت كوارث جمة طالت اسس اقتصاد البلدين، دعست على البراءة والطفولة والأحلام بسرفها الماجنة، أرعبت النساء والشيوخ والفتيان، أحجمت الأفراح والمسرات، جثت كالجمرة في محاجر أعين الجميع.

تلك الحرب نقلت جذامها وآثامها إلى أفراد المجتمع قاطبة، فرشت ظلالها فوق رؤوس الجميع، جراء انعكاس الصور المأساوية في مرآة الحياة، خاصة بين الطبقات المسحوقة والضعيفة من أبناء الشعب، أضحى الفرد يدور في واقع صخبها كالناعور، يدور في دوامة العذاب خلف لقمة الخبز والامان، بحثا عن كوة خلاص تنجيه من دوامة الفقر والعقد الدائرة حوله دون جدوى.

أضحى مصير الشباب محتوم، مقيد في السجل العام بين الموت والعوق والأسر، بين التشرد والضياع. كانت قد أخرست الأفواه، تبخرت الأفكار، تلاشت التطلعات، أضحى الفرد يبحث في داخل نفسه عن طنفسة أمان تنجيه من حشرجة الفوضى الزاحفة إليه، تجنبه إرهاصات العذاب والإخفاقات المحتملة، جراء تفشي الامراض النفسية في الوسط العام مع

عزف تام عن طرق باب الأمنيات والتأملات لدى الفرد.
عبثا حاول أن يمضي عكس التيار الجارف الذي أكتسح صفوف الشباب بطوفانه الأشر، المدعم بقوة من قبل قوى خارجية كانت قد تلاعبت بمصير البلدين ومقدرات القرار بزخ اسلحتها للطرفين، تلكم التي صبت جام غلها وغضبها وسمومها في قدور الشعبين من أجل الارتقاء بمصالحها مع عناد القيادة الايرانية.

حين ابتدأت الحرب كان نجاح لازال فتيا يافعا أبن السابعة عشرة سنة، نشطا، ملهما، حالما في طموحات أفكاره المستقبلية، حاله حال أي شاب في مقتبل العمر يتطلع إلى تكوين ذاته وتلقف أحلامه، تأمل الزواج وبناء أسرة، تطلع إلى امتلاك عجلة تعينه في مشاوير حياته، رنا إلى سعادة تزين عالمه بمصابيح مبهجة، ود تعمير رفوف ذاكرته وأقداره بألوان قزحية تبهج نفسه.
تلك الأمنيات البسيطة كانت قد تعلقت في ذهنه كتعلق الغبرة بنوافذ مطعمه، كلكع الطبخ المغشية بها ثياب عماله.. أنه في طبعه عصامي، لا يكل ولا يتكاسل من العمل قط، لكنه صار يواجه ظرفا مواربا سليطا أقوى منه، يردع عزمه، يكف سعيه، لا يستطيع تجاوز حدوده دون معجزة إلهية، حاله حال أقرانه من الشباب. ذلك الظرف المقيت كان قد أحال عزمه لهباب تحت مطرقة الحرب العبثية، سرعان ما تراخت إرادته في ظل جنوحها وسخطها.
هكذا دواليك انقشعت أمنياته وهو ينظر لها بعين الحسرة والشفقة، مما دفعته الحالة إلى أن يشرع إلى تأجيل مشاريع أحلامه لآجل قادم، أملا بأن تنتهي الحرب قريبا، أملا أن تزاح الغمة عن الشعب وعسى أن تأتي الأيام بخير تعيد له تأملاته.
هكذا تدحرجت الأيام بعجلاتها لتسحق أحلامه الفتية وتدفنها

في وهدة اليأس الغائرة في جوف المعركة، دون أن يقوى على أسناد ذاته بما يجول في خاطره من أمل. باءت محاولات سعيه خلف النجاة تُحَفُ بخطى الفشل، تحولت لهباء في مهب الريح، لا تقاوم زحف العقد المثيرة لماكنة الحرب.

على تلك الوتيرة استمرت الحياة في دحرجة أمانيه دون أن يقوى على الامساك بكفاف اهدافه، صارت المسألة تحتاج لوقفة وتفكير، لأناة وصبر يداري به تطلعاته المستقبلية، كثرت المطبات وزادت وعورة مع تداخلات الظرف المجحف، تلونت الأحداث بخلاف واقعها، عمت التوترات في ميزان الحياة، أشتد رفيف عينيه؛ جزعت نفسه هوام الشك، أستسلم لحالة القنوط واليأس وهو يصغي للأخبار المأساوية المشاعة والموزعة على الصحف والمرئيات مع صور المعارك البشعة في جبهات القتال وقوافل الشهداء التي غزت المدن.

بعد أن أجهزت عجلة الحرب على ظنه وأفكاره وتطلعاته؛ تقيدت أموره، تكبلت خواطره وأحلامه الجميلة بقيد المستحيل، أضحت الحياة في قوائم التفسير باهتة، مبهمة، بلا معنى، مركونة على لوح الذاكرة دون أن تعينه في تلبية رغباته.

هكذا تقيدت افكاره، اضطربت نفسه، بحيث أثر ذلك الاضطراب على مشواره العملي، خاصة أنه لازال في سن المراهقة دون معين، تنقصه التجارب والحنكة والتدابير والاحتكاك بالعالم الخارجي.

ذاك ما جعل فكره يترنح بين المطرقة والسندان، أضحى معلقا كفكرة بين همسة أمس البريئة وضجيج الغد المبهم. التقلبات الخارجية أرهقته، أحالت مستقبله لصيغة مشلولة بعيدة المنال، صعب عليه التماس دفئها، بحيث كل شيء صار عنده يقاس بقدر وبحسب أهميته ضمن قاموس العلاقات.

في واقعه العام باتت الأشياء تعرف بدقة المعاني، بمدى العلاقة النافرة بين الشك واليقين، بهاجس البعد والقرب عن

نبض القلب، بالوضوح المتقن في عدسة العين... الحب، السعادة، المرح، الزوجة، العمل، الاستقرار، مصطلحات تزاحمت في ذهنه، قابلتها أخرى من فرقعات الحرب، من قتل وجور وعوق وتشرد وأسر ومفقود، وأخرى بطنت خواطره من تيه وضياع وهجر وتذمر وتوتر وعزوبية...الخ، كلها صُبتْ في خانة العناء، جزلت أحلامه وهي لاتزال في مهدها.

هذه المطبات والمنغصات والتداخلات سلسلت شريط عمره، حولت أحلامه لجداريات بألوان باهتة، تركها على رفوف الزمن، عسى أن تعود لها لوانها ورونقها يوم ما. فهو لم ييأس قط من استعادة رونق احلامه، أنما تكبل مسعاه بالبؤس طالما عجلة الحرب لا تتوقف عند حد معين. لازال يشم عبق رغباته؛ على الرغم من أنها محاصرة أمام عينيه وقابعة في سجن ذاته.. لازال يتبع عربة الأمل خلف سعة أفق ظنه. لكنها الحرب وما أدراك ما الحرب؟ جعلت بينه وبين الاحلام احتدام، جدارٍ عصيٍ، اضحت الاوضاع في تكورها جمرة ملتهبة تلسع ظنه.

استحالة صفراء منعته من تخطي عجزه، قبعت بمحراب فكره، منعته من المجازفة والمخاطرة خلف أحلامه. كان قد تمسك بوصايا والده، تلك الحالة رسمت له القدر كخطٍّ أحمر رفيع يفصل بين سعييه وأزماته، لن يقوى على الهرب دون أن توافقه أهوائه وأحلامه، في الوقت الذي به أسدلت الحرب الستار أمام طموحاته الفتية، كبلته بواقع اهله ومصيره.

التزاماته الأخلاقية أتجاه أهلة صارت حواجز منيعة يصعب تجاوزها، مع تراجع عام في مستويات المعيشة. لذا تحولت تلك الأمنيات البنفسجية القابعة في ذهنه لخيال أثيلي، ميتافيزيقي، يزيد من رهق القلب وكدر الحياة والحيرة.

كان فيما مضى؛ بمثابة الساعد الأيمن لوالده المريض، على مضي سنوات عمره الأخيرة، لذا كان لا يشعر بالمسؤولية

العامة، لصغر سنه، كان ولازال مراهقا، طائشا، عوده أخضر، لم يرتقي سن البلوغ....

كبر وكبرت طموحاته مع استلامه مسؤولية العائلة بعد وفاة أبوه، كونه الأكبر بين الابناء، وكون تلك التطلعات نبتت لها سيقان وأوراق في عيون الوالدة وأخوته، لأنها تأملات طبيعية جارى بها الحياة. طموحات ترتبت في ذهنه كترا كم أعواد أعشاش الطيور، حتى غدت لتلك الأمنيات معالم أنيقة في الأفق أغشت فكره، اعتلت رغبات المرحلة الأنية.

مع توسع تطلعاته، بات يستلهم فكره من مصابيح احلامه المعلقة على أعمدة الرغبة، خاصة أنها ولدت في ظل ظرف منعش اقتصاديا قبل أن تبدأ الحرب. ما أدت إلى شحن تلك الرغبات والتطلعات ببريق الأمل، حتى رسمت له سراط حياة بألوان قزحية....

بقي يجاري تلك التطلعات حتى جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، حين عصفت رياح الحرب بأشرعة رغباته، حين تناثرت أحلامه كشظايا في الطرقْ.

بعد وفاة والده حطت مطية الزمن حملها على أكتافه، بات يعمل ويكد في سبيل رفع قدره وقدر العائلة من النصيب والراحة والتعفف، وهو الذي لا يكل ولا يمل من العمل. كان دؤوبا، شغوفا نشيطا في العمل، متفانيا، لذا أخذ العمل جُل أوقاته، حيث وجد نفسه المعيل الأوحد للعائلة، أضحى يشعر بمسؤولية جسيمة وهو ينظر إلى أخوته الصغار بعين العطف والرأفة، مثلما هم ينظرون له بعين التقدير والشفقة.

تلك المشاعر المتبادلة دفعته بأن يخترق ميدان العمل بامتنان، رفله عزم شديد على تجاوز أزمته، منحه ثقة عالية بالنفس.

تلك المسلمات التي أبتدأ بها والسمات التي تحلا بها؛ أزالت معوقات السن عن مسلك دروبه، فجمع ما جمع من أرباح

خلال الفترة التي سبقت نشوب الحرب وقبل أن يحتك بها وتخدش جلده لـ يُساق لأداء خدمة العلم، وذلك بعد أن تكبل بالخدمة الإلزامية مع بلوغ رشده، بعد أن تخلى عن مواصلة دراسته مبكرا لمساعدة والده بالعمل...

كان قد ضمن إدارة المطعم وتحسن مجال رزقه، لكنه لم يضمن سلامة غده الآتي. كان لابد من أن يدرك شاطئ الحرب بأقدامه عاجلا أم آجلا، وأن كان قد أدركها بأحاسيسه ومشاعره منذ أن ابتدأت شرارتها...

ها قد أنف الزمن المر، ارتدى بدلته العسكرية، أضحى في تماس مع شرارة القدر، التمس سقم الحرب وآثارها مع لحظة ارتداء بدلته التي كشت جلده حين أعطته صفة رجل مقاتل. تلك الحرب التي لسعت أحلامه بنيرانها مع ابتداء شرارتها قبل عام من بلوغه سن الرشد، كانت قد نزعت عنه عناده وجزعه وتأملاته، صار جزءا من واقعها.

خلال فترة استلامه المسؤولية بعد وفاة والده وقبيل أن يساق للخدمة الإلزامية التي لابد منها، والتي مدتها سنة ونصف حسب القانون المعمول به، تمكن من تهيئة أخوه الأصغر نعيم برفقة والدته وأخته نوال لإدارة المطعم من بعده، مع استمرارية التزامه في تعليمه المدرسي. تمكن من اطلاعهم على أمور المطعم الصغيرة والكبيرة، ليتمكنوا من إدارته في حالة غيابه، فهو مصدر رزق العائلة الوحيد، وهو أرث الوالد العزيز. ذلك الإرث الصامد رغم قساوة الظرف، هو المغزى الحقيقي في وجدانهم، ساعون إلى الحفاظ عليه وتطويره، أنه مصدر الحفاظ على كرامتهم أمام الظروف المتقلبة، أحياء المطعم يعني أحياء ذكر والدهم في عيون الناس والضمير، لذا الاعتناء به وتطويره أضحى من مهامهم جميعا.

لقد حض أخوته نعيم ونواف على مواصلة الدراسة ليتجنبا السوق إلى الخدمة العسكرية التي باتت ثقيلة عليه، ليعد لهم

مستقبل باهر وعلى رواق.

خلال فترة تسيده وإناطته مسؤولية العائلة، تمكن من جمع مبلغ لابأس به كان كافيا لترميم المطعم وحفظ ما تبقى منه في خزينة البنك المركزي، ليكن معينا حقيقيا له بعد أن ينهي خدمته الإلزامية وتنتهي الحرب الملعونة.

أخبر والدته عن قيمة المبلغ المودع في البنك، عرفها على رقم الحساب، كما سلمها هوية البنك قبل أن يلتحق بالخدمة العسكرية التي لا أحد يضمن سلامته منها.. لذا استعان بالأم، فهي الأم، يعني البحر الواسع، يعني القلب الوارف بالحنان والعاطفة، الرؤوفة، الشغوفة، الشفوقة، الأبية. يعني الطفولة، الربيع، الحمية، يعني الماء والكلأ الذي لا يتغير لونه مهما تكالبت عليها الظروف، يعني الأمان والشمس والقمر التي لا تغيب. يعني الحياة برمتها.

4- مساءات الحرب

كانت قد ابتدأت شرارة الحرب قبل أن يرتدي نجاح لباس الخدمة الإلزامية بعام، أي أنه أضحى على اطلاع كامل على مأساة الحرب ونتائجها التي لاحت في الأفق، تلك التي لامست جِلود أبناء الوطن.

تلك الحرب أولدت حاجزا منيعا بين أحلام الفرد والواقع الذي يعيشه، كوت طموحاته، لامست هواجس الشباب بالذات، تغلغلت في شؤون حيواتهم، كتمت على انفاسهم، نتيجة قوافل الشهداء التي باتت تزف للمدن بشكل دوري ومخيف، ذلك بعد كل معركة تُسف على جبهات القتال.. إضافة لزخم الصواريخ الباليستية التي صارت تزاور المدن، دون هوادة، وتلك القاذفات النفاثة التي تنثر قنابلها بغل على الأحياء والمصانع والشوارع بشكل مستمر، لتدمر كل شيء جميل في ذاكرة المواطن، تهدد الحياة والأمل بشكل عام. أضحى الفرد لا يأتمن على حاله وهو نائم في فراشه.

كانت شرارة الحرب قد ابتدأت ردا على القصف الهمجي لمدافع إيران على المدن العراقية الحدودية كمدينة خانقين ومندلي وزرباطية والشلامجه ووو... الخ، وذلك بعد أن تكررت حالات القصف بشيء من الاستفزاز والتعالي والتغاضي عن حقوق الجيرة من جهة، ودعما وتحريضا

للأحزاب المناوئة للدولة في تظاهرات معادية للسلطة داخل العراق من جهة أخرى.. تلك الشعرة التي قصمت ظهر البعير، حيث كانت الأحزاب تتحرك داخل العراق وفقا لتعاليم تصلها عبر إذاعة طهران، كانت قد نظمت تظاهرات واسعة ومعادية للسلطة في كربلاء والنجف والشعلة والكاظمية وفي مدينة الخالص في ديالى، رافعين صور الأمام الخميني وممزقين صور الرئيس البكر والرئيس صدام. تلك التظاهرات سعت إلى اسقاط نظام حكم البعث في العراق على غرار اسقاط نظام الشاه في إيران، مما جعل السلطة في العراق تشن هجمة شرسة على تلك الأحزاب وبالذات على حزب الدعوة، لتزج بعناصره في غياهب السجون، كانت الأحداث قد تسارعت وتيرها بجنون، فحاولت السلطة في العراق تخطي النية المبيتَ لها واستعادة كرامتها وكرامة الوطن فشنت هجوما واسعا ضد إيران. تلك الأحداث هي ملخص قصة الحرب التي اشتعلت بين البلدين.

ذلك ما دعا الحكومة العراقية أن ترد على تحرشات إيران بقوة، بعد أن تغلغلت قواتها في الأراضي الإيرانية بعمق 100- 200 كم على طول جبهات القتال التي تقارب 700 كلم، لتزج ذاتها في معمعة حرب ضروس استمرت لثمان سنوات عجاف دون توقف، أسكتت بها أفواه المدافع وشعارات الأحزاب المناوئة في ردة فعل شرسة، أعادت بها الهيبة لذاتها ولمكانتها.

فكرة التدخل في الشؤن الداخلية وتصدير الثورة والتوسع على حساب الجيرة، ذلك النهج الذي جاء به الخميني بعد استلامه سدة الحكم في 1979 أوقعت إيران في مشاكل وعقد مع الجيرة وبالذات مع العراق وعرب الخليج، كأنما كانت إيران تنفذ مخططٍ أمريكيا صهيونيا لزعزعت استقرار المنطقة خدمة لصالح الغرب في إدامة وإدارة مصالحها على حساب

شعوب المنطقة ولأضعاف الدور الاسلامي العام فيها. بذلك جُرتْ المنطقة لكوارث حقيقية بحق الشعبين الإيراني والعراقي والمنطقة بأسرها على حد سواء، تركت آثارٍ جسيمة على كاهل الجانبين من الناحية الاقتصادية والبشرية.

هذه الحرب والتي في واقعها كانت مأساة كبيرة عدت لأضعاف البلدين، تركت سخطا جسيما جثم على قلوب وفكر عامة الناس، حيث البؤس مرغ وجوههم وأغضض نفوسهم، لبشاعة صور القتل والتدمير في جبهات القتال، وخاصة ما لحق بالأطفال من مصير أثيم بعد أن تقطعت بهم السبل من تشرد وتيتم وإهمال، بعد أن دكت الواقعة قلاعهم وحرمت الكثير منهم من عاطفة الأبوة ومن مواصلة سعيهم في مدارسهم وتطلعاتهم المستقبلية، لاشتداد الفاقة وظلف العيش.

ما أصاب الشعبين من تنكيل فاق كل التوقعات، ومع ذلك استمرت الحرب كل تلك المدة استجابة لعناد قادة البلدين بعد أن تغلغلت الآثام في النفوس تمسكوا بها أملا في ظفر نصر يغسل وجوههم من الآثام أمام شعوبهم.

لم يبالوا بثقل الهم الذي قصم ظهر اقتصاد البلدين، بحيث من يوم الذي نشبت به الحرب لم يعد الدينار دينارا ولا التومان تومانا في ساحات البورصة الدولية. ناهيك عن الخلل والتخلف الذي أصاب أجيالا في جميع مجالات الحياة الفكرية والعلمية والنفسية والأخلاقية والصحية، والأسرية والصناعية والثقافية...الخ.

فمن الناحية البشرية قضت الحرب على معظم شباب البلدين المحصورة أعمارهم بين (18 – 40) سنة، لقد انقرضوا بين موت وعوق وأسر ومرض نفسي وهوس وجنون وتشرد وهجر ومفقود... فمن الناحية النفسية أصبحت الحياة صرة مخرومة خاوية من الرغبات والأحلام، حيث تبخرت فرص العمل، تطايرت فرص السعادة كقصاصات

ورق في مهب الريح، تخشبت سيقان الفرح، أضحى الحزن سمة بارزة تعلو الوجوه قاطبة.

بسبب الوضع الاقتصادي المزري؛ زادت حالات الطلاق إلى جانب تضاعف أعداد الأرامل، ما أدى إلى فتور عام في صيغ الحياة وخلل في إدارة المجتمعات. نتيجة الفاقة انتشر الفساد بين صفوف المساكين والفقرة في ظل تزايد أعداد اليتامى والمشردين..

تلك العقد والمشكلات طفحت في ساحة الوطن كطفح الحصْبة بالجلد، فيما سجلت معدلات السرقة والاغتصاب والأجرام تزايدا ملحوظا عن الفترة التي سبقت الحرب.

ذاك ما دعا معظم الشباب والشابات إلى العزوف عن متابعة أحلامهم والتأني برغبات الزواج ومشاريع العمل، خوفا من لفائف خيوط الحرب أن تلتف على أعناقهم، أن تكبلهم بمأساة حياة مستديمة.

غدت الحسابات تجلد الذات، تشتت الذهن، تزيد الرهبة في مجال التوقع، مما أدى إلى أنتشار حالة الفساد لقمع جماح النفس، فالجنسي الذي أخذ يتفشى بشكل مخيف بين الأوساط الشبابية لعزوفهم عن الزواج، أولد عقدة لدى المجتمع. حيرة مرة جردتهم من التأمل والاقدام والمجازفة، تبخرت رغبات الزواج لدى الفتيان والفتيات وتلاشت الأحلام.. حالة الجمود شملت الكل لمجهولية المصير، الفتيات صفنَّ في طابور الانتظار مع الفتيان على رصيف التأمل، ترقبن توقف عجلة الحرب واستقرار الاسعار، أضحى الوضع العام مغموس بالعقد ولا يطاق.

كانت آلت الحرب قد ابتلعت اقتصاد البلدين، ذبحت الأسعار من الوريد إلى الوريد، أهلكت عملة البلدين، وبالتالي أهلكت المستهلك الفقير، جعلته يركض خلف ذاته لإنقاذ ما تبقى من وضعه المأساوي، أضحى لا يحتمل حالة الجمود الخانقة.

الغالبية العظمى ليست لها عمق مادي تستند عليه لتتخطى الاقدار المفاجئة وحالات التجني، حيث سرف الآلة دعست على قيمة العملة في جبهات القتال وشفت جيب المواطن الضعيف.

تضاعفت الأسعار عما كانت عليه بشكل رهيب أدى إلى إسفاف الوضع العام بعد أن أثقل الهم كاهل الشعب، أفرد حجم العناء في التعامل النفسي والفكري والاقتصادي أمام ثبات نسبة المرتبات التي بقيت محافظة على مستوياتها السابقة قبل نشوب الحرب دون تغيير، ناهيك عن الانحدار الانسيابي الذي شمل معظم حالات المجتمع نحو الأسوأ كالتفكك الاسري وضعف التعليم والتمسك بالمصلحة الخاصة وقلة فرص العمل بعد أن خلعت الرحمة ثوب العفة وتفشى الغلاء وزادت الأمية في صفوف المجتمع. حيث دائما ما تكون العلاقة عكسية بين التعلم والفقر، أي كلما زاد التعليم في صفوف المجتمع قل الفقر والعكس صحيح.

عدم الاستقرار مع طول الفترة الزمنية للحرب جعلت الأمور تصعب على الفرد في تدبير لقمة المعيشة، لذا بات الفرد يبحث عن الذات بين جحور الفاقة على حساب التعليم، صار الوضع مأساويا مع مرور الأيام والسنين، جعلت الالتزام بالتعليم حالة عبثية أمام تفاقم الفاقة وضعف قيمة العملة.

كانت الحرب قد أجبرت الدولة إلى إعطاء الأولوية لوزارة الدفاع لإدامة متطلبات الحرب على حساب الوزارات والقطاعات الأخرى، مما أدى إلى إهمال الجانب الفكري والانساني الذي غذى بدوره حالة التذمر والجمود في مرافق الحياة الأخرى قاطبة.

ذلك القرار أولد انعكاسات سلبية في جميع مجالات الحياة، فمن الناحية الصحية؛ كثرت الأمراض النفسية بالمجتمع، إضافة للصور البشعة المأساوية لمناظر المعاقين التي سادت

في المجتمع وما ترتب عليها من أهوال نفسية واقتصادية، وذلك لقله مستلزمات الحياة وشحة الأدوية وغلائها. ذات الحال ينطبق على فرص التجارة والصناعة والتعليم والثقافة...الخ، حيث شلت التجارة مثلما توقفت المصانع عن التصنيع لانشغالها بالجانب العسكري بالإضافة لشحة المواد الأولية والأيدي العاملة وتضاعف الأسعار. كل تلك المراكز تحولت لمراكز تموين لآلة الحرب.

أهمل التعليم وتوقفت طباعة الكتب بعد أن فرضت الدولة حالة التقشف في جميع مجالات الحياة مع انشغال الناس بأخبار الحرب التي سيطرت على واقع الحياة. عُقد أولدت عُقد، كلها صبت في بوتقة المجتمع وفي حضن الفرد المسكين.

استمرار الحرب جر المأساة وافشى الظلالة في صفوف الشعبين. عدم قبول فرضية الجيرة ولد اعتلالات شتى، نزعت الثقة بين أفراد المجتمعين، على الرغم من أنه لا رابح في الحرب إطلاقا.

إذا مع عزوف شمس الأمان، توقفت أوداج الحياة، بحيث باتت تعرج الحياة بساق واحدة في مساراتها خلف أمل ضامر في جوف المستحيل، في ظل مساء أعتم النفوس وأفرغ الجيوب معا. صارت الحالة تحكي قصص هجينة لا يمكن تصديقها وتوقعها، تحمل في طياتها من الشك والريبة والرتابة ما يندى لها الجبين، خلخلت قواسم الحظ، دعست على حلم البسطاء والمساكين، أضحى القرار نائم في فكر أناس أضلوا طريقهم بعد أن أُطرِقت الرؤوس بالحسابات والعقد.

5- ظرف نجاح

قبل أن تبدأ الحرب كان نجاح مشغولا بشبابه وفتنته وأخلامه، خاصة بعد أن تقلد مسؤولية أفراد عائلته بعد والده كونه الاكبر سنا. شابا يافعا، شغوفا، شغولا محبا للحياة، ابتدأ من حيث أنتهى أبوه الذي قضى أجله قبل سنتين من بلوغه. لمْ يكن قد أكمل المرحلة التأسيسية (مرحلة التاسع) من دراسته، لذا شمل ضمن المساقين للخدمة الالزامية والتي مدتها سنة ونصف. نتيجة عسر ظرف والده واعتلال صحته، نحى ذاته عن الدراسة ليرافقه في العمل تبعا لكسب الرزق، بذا أنشغل جاهدا في تدبير أمر المعيشة مع الوالد بسن مبكر.

خلال تسنمه أمور العمل؛ حرص على أن يمنح أخوته فرصة التعليم بعد أن كان قد أفتقد بنفسه تلك الفرصة، حيث شعر فيما بعد بخطأ تركه مقعد الدراسة. كان قد جرد من كثير من المزايا الشخصية بعد تركه الدراسة، وأحدى تلك المزايا التي أفتقدها والتي بموجبها تم تسويقه لجبهات القتال، كونه غير مرتبط بالتعليم، تلك البطاقة التي اعتبرها ضرورة تقيم الفرد وترقيته مع مرور الزمن. ووفقا لجدلية التخاطب والتعامل مع الآخرين، فهي شهادة اعتماد وتقويم الفرد في كافة مجالات الحياة وبالذات في مجال العمل، بها يتحلى الفرد بالمعرفة التي تجنبه معضلات الحياة، بها يفتح آفاقا مستقبلية واسعة تجنبه عقد الحياة كالفاقة، بها يتحكم بقدراته وإمكاناته

وتوجهاته.

بتخليه عن كرسي الدراسة شعر بأنه قد أُطفأ شمعة نوره، زلت ثقته بنفسه، أضحى مهزوزا في قرار نفسه، كغصن ذاو لن يستطيع أن ينهض. لذا نصح أخوته بأن يبقوا متمسكين بكرسي الدراسة، وخاصة بعد أن وجد حياته أصبحت مهلهلة بعد أن طرقت فوضى الحرب بابه.

دائما ما كان يشعر بخلل ما يلف ذهنه، يهجس بضعف حيال ذاته، خاصة حين يود إقحامها بجدل ما، فهو قليل خبرة ودراية في شؤون الحياة، لازال صبيا لم يصلب عوده. يستشعر بأن هناك شيء ما يتخبط في عالمه، لا يستطع تجاوز ذلك الخلل أو تعويضه، شيء هلامي لا يتمكن الإمساك به، يدور في خفاء النفس، يترصد أحلامه، يتحدى أفكاره، يشعر به كبقعة داكنة في مرآة شخصيته لا يمكن تجاوزها. شيءٌ ما خارج حدود السيطرة والإرادة، لا يتراءى له بالعين المجردة، خارج حدود التحسس والادراك، أشبه بضباب يغشي ظله، يرغ بأنفاسه، يقحم أنفه بوحل الهوان. ربما فقدانه دور والده، ربما استشعاره بالضياع بعد تركه المدرسة، ربما تسويقه للعسكرية أضاع حلمه.

هذا الشعور وخز فكره، ذكره بمصيره القادم وبقدره المجهول، لا يمكنه تجريد الذات عن تحديد مصيره المشؤوم القابع في مرآة ظنه وهو يرى قوافل الشهداء تعبر من جانبه عبر سنة من الحرب قبل أن يسوق لها.

لذا ود أن يعضد أخوته ليكونوا عونا له ولأنفسهم ووالدتهم في المستقبل، ود أن تقوى عضلاتهم لمحاربة الفاقة بعد أن ضُمرت عضلاته وحدد مصيره. ليكونوا سندا له ليعوضوا نقصانه بما يستوجب، وعسى أن يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم في محيطهم وفي مجال عملهم.

الوردة التي لا تنث عطرا لا تجذب العشاق، المعرفة هي

عَبَق المرء الذي يشمه الآخرون، وهي عصب حكمته وتحكمه بقدراته وقراراته.. فمنذ تركه الدراسة تقلصت أمامه تلك الفرص، بات يتلصص على ما تفرزه الصدف أمام سعيه، لتؤازره في مجالاتها الضيقة.... وبذا حاول نجاح ترميم شخصيته بالكماليات، فكر بشراء سيارة ودعم كيانه بالزواج لتثبيت أسسه ....الخ من تلك الأمور التي ترفع من معنوياته وتزيد من ثقته بنفسه. ليثبت لذاته أنه ذا فعل وذا شأن وإرادة، أشياء تعوضه عن مقاعد الدراسة ولو بالشيء اليسير، يتفاخر بها أمام أقرانه ومعارفه ومن هم أكبر منه شأنا.

عمل جاهدا في اسعاد أخوته على تجاوز مرحلة المحاولة والتمسك باليقين الذي يفتح لهم أبواب السماء، حاول بكل قدراته إرشادهم للطريق السوي، دون أن يفسح لهم المجال في تتبع أثره. عرفهم بخطئه، شرح لهم إسهابه في التفكير الممل، جراء قرف الظرف الذي أجبره على تنحيه عن كرسي الدراسة.

كثيرا ما كان يشغل نفسه بأحلام العودة لكرسي الدراسة بعد توقف الحرب، إلا أن تلك الحرب تمادت في غيها، قطعت عليه السبل، قتلت رغباته وشهواته في المهد، مثلما قتلت رغبة أمثاله بالاستمرار والديمومة والمماطلة والعند القابع على جبهات القتال.

الزمن لم يسمح له أن يتخلف عن كرنفال القتال الجائر على جبهات القتال، حيث العزف المتواصل ودندنة المأساة المسموعة بقيت تطرق طبلات أذنيه....

لو تمكن من تجريد ذاته من قيد الحرب، لتجرد معظم الشباب بشكل من الأشكال، الكل يدرك بأن الحرب ليست سوى جعجعة قادة البلدين الذين نفذوا مخططات تجول في ذهن الصهاينة والمستعمرين دون يكلفوا بها ودون أن يدركوا، كراهية هذا لذاك أوقدت شرارة النار ليتورط بها الشعبين دون

طائل.
الكثير من الشباب تعلقوا بسقف الدراسة هربا من شباك الحرب، البعض أستخدمها كلعبة تمويه وتخفي، منهم أبناء الوزراء والمدراء والكثير من أبناء العامة لارتباطهم بأعمال خاصة تحسن من سقف المعيشة، إضافة إلى كل من له رغبة وعزيمة في بناء ذاته وتطوير قدراته..
الدراسة أجلت مصير البعض إلى ما بعد التخرج، بالذات طلبة البعثات الخارجية الذين تمكنوا من تجاوز العقدة لعدد من السنين، كانت كفيلة بأن يبني الفرد هيكل ذاته ومستقبله بها، والذكي منهم من أبتدع مسارات جديدة لحياته بعد التخرج، كما هو الحال مع أخوه نعيم، الذي أنجد نفسه من المحرقة المتقدة أوارها، بعد أن أكمل دراسته في كندا وبقي بها بعد التخرج...
تلك الفرص لم تكن متاحة للجميع، حيث تكسرت ونثرت كالجذاذ تحت أقدام البعض، فيما صعب على آخرين مجاراة الظرف والزمن لكثير من الاسباب متعلقة بهم، فضاعوا سريعا بين مسلك المادة وضعف الحالة الاقتصادية التي كانوا يمرون بها..
فأصحاب المهن الحرة سعوا خلف المادة على حساب المقاعد الدراسية، هؤلاء صعب عليهم التملص من الخدمة الالزامية، لذا لم تعد أمامهم فسحة استرداد أنفاسهم. كانت الفرص قد تبخرت مع دخول الحرب فسحة العُقد والثأر، فاستسلموا لعجلة الحرب.
كما لا يمكن العودة بعجلة الزمن إلى الوراء لإعادة ترميم الأحوال، كل شيء مضى بسكون تام نحو المجهول، تشعب الخوف بمختلف مفهومياته بين صفوف الناس، صار يسري مع الدم والرغبة والحلم. لذا تزعزعت النفوس وكثرت العِلات وتفاقمت المأساة.
لم تعد تروقه زهرة الخزامي الفتية، المغروسة في أصيص

أحلامه، تلك التي تأملها مليا حتى ذبلت أمام عينيه وتناثرت اوراقها مع الريح، قبل أن تذبل كحقيقة في قوائم فكره وعالمه الجديد، وذلك بعد أن تناسى صور أحلامه البهيجة، لم يعد يشم عبير نفحة تذكره بها، لم يجد لها في مصحة النفس ركن يجيرها، أو ينتشلها من مصطلح انزلاقه المنحدر نحو وهدة اليأس.

كانت الحرب قد شلت قدراته على التصرف في كل ما خص حياته من أمور خاصة كانت أو عامة، تخلى عن كل شاردة وواردة شدت أنتباهه. هذه الاهتزازات نكتت عثاكيل أحلامه، جلدته، أضحى لعبة بيد القدر، لعبة تسلى به الزمن بين حكم الظن والقرار. التريث والانعزال والقنوط صارت حواجز تربت واقعه، أضحت صورهِ الشاخصة ميتة دون روح، لا تجدد ذاتها في مرآة الحظ.

كان العمل قد عوده أن يجلس باكرا بحدود الخامسة صباحا من كل يوم، وربما قبل ذلك بساعة أو أكثر؛ يعد خلالها متطلبات الزبائن، ثم يتعنى للفرن القريب من مطعمهم لجلب الصمون الحار من مخبز أبو طيبة، وهكذا دوليك تعود على روتين العمل منذ صغره...

تلك الصمونة ذات الشكل المعيني، المتبرجة بالحمرة، والمشبعة بالنكهة واللذة، والمنعمة بالزيت، تفرض شهيتها على الأشداق، خاصة إذا ما قدمت مع الكبة للزبون. تلك التي تشرع بشد عضلات المعدة بمجرد أن تهمس للبصر بسحر إطلالتها، للونها الشفقي المستنبط من شهاب اللهب وسخام الدخان ولسعة النار. تلك الصمونة وهي تأزز بحرارتها، تتحسس سعرة اللذة المخزونة فيها، بذا تشد النفس لها.

آه ما ألذها حين تحشى بشطيرة من القيمر البلدي (قشطة الجاموس)، وحين تُشَوّحْ بملعقة من العسل الذهبي ذات النكهة

الزهرية، لترتقي لذتها حدود الألق بالنفس وسعة الذوق واللذة، لترتقي بالنفس إلى فطور صباحي قيم. لذة لا توصف، تغور بثنايا الرغبة، تلتمس أعماق الشهوة بإسهاب سلس، لن يصل بها متناولها حدود الإشباع إطلاقا ولو امتلأت المعدة بزبدها... أنها أكلة الملوك، ولكن في العراق هي في متناول الجميع. هذا ما يقدمه مطعمه للزبائن صباحا.

لم يتذمر نجاح من عمله، كان شغوفا معينا لأبيه ولأهله، كريما، دمث الخلق، تمكن بسلوكه من أن يجتذب قلوب زبائنه ويحسن التعامل معهم، ليكون في موقع احترام وتقدير دائم. ينظرون إليه باهتمام، لسرعة بديهيته ولباقته وطيب لسانه الذي يشهق بالعسل. كما كان متزنا بعمله، لا يكل ولا يمل منه، ناهيك عن المعمل البسيط الذي تعمل به أمه وأخته وأخوه في غرفة من غرف البيت المخصصة لتجهيز متطلبات المطعم، حيث كل يوم؛ تدخل الفرقة في إنذار (ج) (إنذار التأهب العسكري)، من المساء وحتى لساعات متأخرة من الليل، يقومون خلالها تجهيز أقراص الكبة، المعدة للقلي وأخرى معدة للسلق ووضعها في براد خاص لليوم التالي.

هذا هو ديدنهم لديمومة رزقهم، فلن يتوان أحدا منهم أمام باب الرزق المفتوح، والذي منه تطل راحة البال والسعادة والشغف بالحياة.

في داخل معملهم الصغير يتم ثرم اللحم بمكينة حديثة، فيما تضاف إليه خلطة من التوابل والبهارات الهندية (الفلفل الأحمر الحار والكمون والكركم) إضافة للبصل والبقدونس والكشمش (الزبيب) مع اللحم الجيد لتكون حشوة دسمة للكبة تُستطعم من قبل العين قبل الفم.

ذلك الرزق الذي به تطمأن النفوس وبه تضحك الوجوه، به أيضا يتعلق دلو الرحمة، حيث يتصدقون منه على المحتاجين، أنه المنهل الذي أكرمهم به الله، فلا بد من صيانته بالعمل

والـدعاء. وأهـم طـرق الصـيانة حسـن التعامـل مـع النـاس، والنظافـة، وإتقـان العمـل، لتكـون الكبـة الجـاهزة قـادرة علـى تليـين أذواق الزبـائن، لـتملأ شـغاف الـنفس المفجوعـة، الجائعـة، تلـك هي توصيات المرحوم والده.

عُـرِفَ نجـاح وعُـرِفَ المطعـم باسـمه الـذي بـات يقـدم أطيـب أنـواع الكبـة علـى أوسـع نطـاق، لـذا تجـد زبائنـه يهرعـون اليـه مـن كـل حـدب وصـوب، خاصـة طبقـة العمـال الـذين تعـودوا علـى زيـارة مطعمـه، لرخصـه وطيـب أكلـه، فالكبـة بطاقتهـا تحصـن جهـدهم، تسـند قـوتهم علـى تحمـل أعبـاء العمـل، تعينـهم علـى الأعياء وتقلبات الطقس.

غالبيـة زبائنـه هـم مـن العمـال وعـابري السـبيل وأصـحاب المحـلات والبيوتـات القريبـة مـن المنطقـة. لـذا فالعمـل فـي المطعـم يتطلـب جهـدا وأيـاد أخـرى تسـانده، لـذا كانـت أختـه وأخـوه يعينـوه فـي الطـبخ، إضـافة لعـاملين آخـرين يلبيـان متطلبـات الزبـائن الخارجية والداخلية.

المطعـم يخـتص فـي فتـرة الفطـور الصـباحي بتحضـير شـوربة العـدس والكبـة المسـلوقة والقيمـر البلـدي، إضـافة للشـاي وشـاي الليمـون. فيمـا يخـتص فـي فتـرة الظهيـرة والمسـائية علـى تجهيـز الكبة المقلية والمسلوقة فقط.

كـان أبـوه قـد علـق لوحـة كبيـرة فـي واجهـة المطعـم باسـم: كبـة أبـو نجـاح. فأشـتهر فـي الوسـط بهـذا الاسـم. لـذا حـين تـوفى أبـوه لـم يتغيـر أسـم الشـهرة. فعـرف نجـاح بـ نجـاح أبـو الكبـة، أي صـاحب محل الكبة.

6- ناديا

مع استمراره بالعمل أستشعرَ بالاكتفاء الذاتي، كان لا ينقصه من الدنيا سوى الألفة مع شريكة العمر، على الرغم من أنه لازال في أول مشوار حياته، إلا أن انخراطه بالعمل منذ صغر سنه ساعده على توسيع مداركه ومطالبه وطموحاته، شعر بأنه قد أكتمل نضوجه، شعر بأن حياته لن تكن لها معنى دون حبيبة، لن تكون ذا قيمة دون ألفة حقيقية يستشعر بها وتستشعر بوجوده في حياتها..

كان قد استشعر برجولته الكاملة، ولابد من أن يتمم المعنى لتزهو صورته بمخيلته وفي عيون الغير، هجس رجولته تزاحم أفكاره وتطلعاته، تزيد من وسامته، حيث يسف وجهه شارب خفيف ولحية ناعمة تزغب اسيل الخد بسواد الشعر، فيظهر وجهه الناصع كشعلة من الجاذبية والألق.

شعوره بالمسؤولية أضفى عليه هدوء ورزانة، جعله محورا في إدارة مطعمه، كريما، غيورا، عزيز نفس، لا ينجرف خلف هوس الغريزة والإثارة والسكر واتباع الموبقات والملذات وبنات الهوى كما يفعل أقرانه، تلك الصفات عمدت شخصيته بالاحترام والتقدير، رتبت كماليات شأنه وسلوكه وخاصة حين كان تحت ظل أبيه.

كان لبيب اللسان، رؤوف الطبع، كريم الخصال، علمته الدنيا الفاقة والجلد والأناة والتسامح والعطف على الآخرين،

فأضحى مكتنزا بالتجارب بعد أن أخذ على عاتقه زمام أمور البيت والعمل.

خلال عمله شاء الظرف بأن يتعرف على سيدة جميلة، كانت دائما ما تبتاع الكبة من مطعمه لقرب المطعم عن دارها. تلاقت النظرات على خط الود والأعجاب، أعجبت به مثلما أعجب بها، ما أن فلت الشوق من صرة القلب، حتى سرى أثره في العروق والجِلد والنظر، طفح كحيرة صماء تغشي العين والوجن، وشحت الروح برهف الحلم والغزل، شرع الذهن ينفلت من قيافة شخصه لوهدة الجنون والهوى.

تلك الحيرة لامست فؤاده، دغدغت مشاعره، ركب مطية الرغبة لتطوف بالمشاعر الجياشة بين جوانح القلب، شغلت قدحية العين بلون الشغف واللهفة، أرتقى الود سلم الوجد، استسلم تماما لتلك الرغبة التي ماجت بالروح لتتجاوز به محطات السكون والصبر، شرع بتقبل الحقيقة برحابة صدر.

ناديا؛ هي أرملة فقدت زوجها قبل عام نتيجة قصف صاروخي عشوائي تعرضت له بغداد في أول ايام الحرب، أرغمها الظرف على تحمل وزر تربية طفلها الوحيد الذي ولد بعد فقدان والده.

لسحرها وخفة دمها واستكانتها؛ استطاعت أن تفتن قلبه بسحر ملامحها، ذات فتنة، نَاعِمَةَ البَدَنِ، رَطْبَةً، غَضَّةً، بَضَّةً، رزينة، طيبة، مراءة بحسن أخلاقها وطراوة لسانها، تلك الصفاة جعلته يغوص في مستنقع هواها وهو صاغرٍ، مكتوٍ بلظى فتنتها وسحر جمالها وغرة شبابها.

كانت فيما سبق شغوفة بزوجها، سعيدة بزواجها، إلا أن تلك السعادة لم تدم طويلا، تكركبت أمورها مع شروع الحرب، لم تكن قد هيأت نفسها لمواجهة الأقدار الفاجعة، المباغتة، التي اكتسحت قلعتها وواقعها على حين غفلة. كانت ولم تزل

صغيرة السن، أبنة الثمانية عشرة سنة، لدنة، غضة، لم تتعود على الاتكال على نفسها في مواجهة قسوة الظروف. لم تتعود على طُرق الفاقة والوحشة والذل، لتجتاز غابة الوحوش المحيطة بها، معتمدة على ذاتها وضعفها. لم تطلع على ما خبَّء لها الزمن من أقدار وأهوال كدرت صفوها، ليست لها تجارب في معالجة صعاب الأمور التي واجهتها، ليس لها قدرة على تحمل عجرفة الزمن البغيض وعسره.

كانت فيما سبق مرآةٍ حب ناصعة، صرة صبر في مؤازرة زوجها، قبس شوق دائم حين التلاق وجمرة صبر لحظة الفراق. كانت أشبه بزهرة الياسمين الغضة في عيون الناس، يُضاع عطرها مع طفح الابتسام على ثغرها، مع انتشاء بهاء لونها في الخواطر.

لصفاتها المنمقة رقت لها الأفئدة، أُخطِرتْ بها، شُغِفَتْ بترانيمها، غازلتها كغزل الصبح لضوء الشمس، أزرها زوجها، أحبها، أغرم بها، هام بها، بادلها المحبة والعاطفة. كان لها بمثابة صرة أمان وحنان، لم يتوانى عن طلباتها ونداءات هواجسها.

بذات الوقت بادلته المشاعر، تعلقت به تعلق الطفل بأمه، التصقت به التصاق الفسيلة بالجذر، باتت رفيقة حياته كظله في السر والعلن..

لكن .... آه من لكن...

وخلف لكن تختفي ألف علامة استفهام؟

لقد وضعتها الأقدار بين الفرضة والشعيرة، جعلتها هدفا للعقد والمصائب، رسمت لها المصير على عجل من أمرها، ذلك القدر الذي حل بها كالطامة الكبرى؛ بقي شاخصا أمامها دون تفسير، عاق سير حياتها، جردها من السبل والتأمل والأحلام.. أنه الكابوس الذي كبس على كل تطلعاتها على حين غفلة، طفق في طريقها كلغم أدغم، تفجر في وسط أحلامها

وهواجسها بشكل مفاجئ، أغشاها في صحوها ومنامها، هكذا تعقب حظها وهو لازال فتيًا...
هاجس الخوف من الغد نبع من جوف المفاجئة، من حقل الرعب التي وضعت فيه، من عبث مجهول تحكم بمصيرها.
أضحى لسلطان القدر حُكمٌ عليها، صاغ سوار الظلم لمعصمها، وذلك بعد أن جردها من تلك السعادة المؤقتة التي تنعمت بها تحت ظل زوجها، ثم قيدها بزمن أجوف.
ذلك القدر الاليم بواقعه كان خارج حساباتها وحسابات الزمن، بعيد كل البعد عن الفكر والذاكرة، لقد حل بإنْدِلاَس اللغز في جوف العتمة، جاء تحت عباءة الصمت، أوقب حظها الخطل بالقضاء والقدر... لم تعِد له العدة، حلت المفاجأة على حين غفلة من أمرها، دوت القارعة بصحنها دون أن تتهيأ، فرقعت هواجسها، ما أن أدركت ذاتها؛ حتى سلب منها زوجها.. ما أن انتبهت لجلجلته المقيتة؛ حتى أدركت هول المصيبة تحط على رأسها، تقوض صبرها، ترهق بدنها، نزفت حزنا واغتناما بفقدانها حبيبها....
ذلك القدر جردها ثقتها بنفسها، زعزع برجها، دمر أحلامها وطموحاتها، صبغ ثوبها بلون العتمة، أرهقها في محنتها، غدت بذاتها ككومة حطب في كوة الزمن تتقد من الداخل بالخوف والشك، متخبطة في مصيرها، مرتعبة من زحمة الأفكار والوساوس المعشوقة بذهنها، مرتابة من فجع الصمت الدائر في أعماقها تجاه المستقبل المجهول.
كانت قد تراخت كليا أمام سيل تلك النكبة وهي تقتحم كيانها بالعقد والبلاء والويل، واجهت سيف الزمن بالانكسار الذي أرهق بدنها وشل تفكيرها، أنزوت خلف ديجور العتمة، مستسلمة لسلطانه كليا بعد أن جردها القدر من متعة الحياة.
بعد مضي عام من فقدانها حبيبها وجدت ذاتها في كوة الشقاء، لا تستطيع أن تقف على ساقيها في ظل وحدة شكمتها

وطفل صغيرا ارهقها نفسيا وماديا، ها هي الوحدة تحاصرها بجيش التوحد والافكار اللعينة. الفاقة نخرت أعصابها، عرتها من كل ما تملك، أجبرتها على كسر مرآة الصمت بوجه الآخرين لترفق ذاتها ووليدها بعارض ما يسندها ويساعدها على تحمل أعباء الزمن، يقومها ويعينها على الوجل.

كان قد ساقها القدر إلى وهدة نجاح، فرحتْ بالتعرف عليه في تلك الصدفة، حينها وجدت فيه قارب نجاة ينقذها من مستنقع الحزن والكآبة والفقر، ركبت قاربه دون أن تتحسس موج الحيرة. سلمت دفة أمرها له، متأملة أن ينتشلها من واقع حيرتها.....

منذ يوم الفراق وجمت ملامح وجهها بطابع البؤس، تعلق الحزن بلون شفتيها ونظرة عينيها، بشهيقها وزفيرها، هجست بأيامها تمضي كقربة مثقوبة خالية من المباهج.

لم تبتسم برغبة قط حتى وجدت في مداعبة نجاح لها عودة للحياة، كأنه بعصاه حرك مياهها الراكدة، هجست به صرة الحلم الذي تأملته بلين الحيوات الباقية، شعرت بخفقان يغص قلبها. روح جديدة هامست صمتها، بفيض وده كان قد أغشى وجنتيها بملأة الخجل، تخضبت بلون الدم والحياء، بانت بقوامها وردة تغتسل بندى صبح جديد بحضرته..

ما أن لمست اهتمام نجاح بها؛ تعلقت به، مالت لملاطفته العابرة بتأملات مستاءة، مريضة، غير متأكدة من حقيقتها، لذا شهقت شهقة المذبوح، داعبت حلم العودة للحياة بشيء من الرجاء والتمني، دارت نحوه كفراشة متشبثة بالحياة، شعرت بدفئه، ابتسمت له حين تبسم لها، هجست بعودة الحياة تدب في ثنايا جسدها بعد أن تناستها.

لم تكن قد وعت على فداحة الصدمة؛ إلا بعد أن انقشعت الغشاوة عن أحداقها، إلا بعد أن أغشيت مآقيها بالدموع، وذلك

حين بانت قتامة الصور والمأساة الوحدة محيط بها واضحة على شبكة العين. الحمل الذي تركه زوجها على عاتقها كان حملا ثقيلا، أثقل كاهلها بتلك الأمانة التي عَلقت برقبتها كذكرى عطرة من صلب أنفاسه، ذلك الطفل البريء الذي يجب أن يعيش حياة سلسة كريمة لا تشوبها شائبة.

وحين بزغ قمر نجاح يتلألأ في سماء حزنها، تشبثت به! هجست به المنقذ المرسل من قبل الباري ليجلي الظلمة من آفاقها، ليسوي أمرها وينتشلها من زنقة وحدتها، ليذلل الصعاب تحت قدميها.

فرصة لم تكن تفكر بها قط، وجدتها كصرة تحت قدمها، فانتبهت على مكنونها، أصابتها حيرة عصماء، وجدت نفسها في مخمصة لا تعرف من أين تبدأ الخطوة بعد أن زحلقت قدمها في وحله، حينها سقط سرها في صحنه فأثار جلجلة خفيفة كان قد سمعها قبل أن تسقط بكيانها في بؤرة الصمت والتمعن، حينها أخذ بيدها لناصية فؤاده، أوصلها لبر الأمان، همس في إذنها همسة المستغيث وادا رضاها...

- أنت يا جميلة!.... هل لك من خدمة أسديها لك؟

شعرت به حل كظل يمنع عنها شواظ نار الشمس، ابتسمت له دون إرادتها، مضت ابتسامتها كسهم نافذ أنطلق من قوس شدقيها لتصيب به حشا فؤاده. تكحلت عين نجاح بظلال رغبتها، أهتزَّ في وقعه لاهتزازها، رق لرقتها، أعاد لها سهمها بابتسامة وبنظرة أعجاب من روحه العطشة، عبث في سراب أجوائها، ألهب زغب مشاعرها، حرك ثنايا الحشا برقته وعذوبته.. أجابته برقة ملؤها عذوبة.

- شكرا لك .. أرجو أن لا تُأخرني، لي طفل رضيع ينتظرني، لن يصبر عند جدته.

- وأين أبوه؟

كأنه جدد مأساتها في سؤاله، عبست بوجهه، خرت دمعة

على ناصع الخد.. بان الشجن يترقرق في أعماق الذات.. ثم قالت له...

- فداك... قضيَّ بصاروخ قبل سنة من الآن، مع بداية الحرب، ذهب وتركني أصارع المحن.

جهز لها طلبيتها، دون أن يأخذ قيمة الطلبية منها، قائلا لها برقة وعطف منقطع النظير..

- لأجل دموعك الغالية تعالي كل يوم وخذي حاجتك دون مقابل، اعتبريه صدقة مني، أدعِي لأبي بالرحمة والمغفرة، وفي المرة القادمة أرجوا أن تُأتي بطفلك معك، أني أود رؤيته... بالمناسبة ما أسمه؟

- عامر.

- حياك يا أم عامر، اعتبري المطعم مطعمك.

أخذت طلبيتها مبتسمة، مضت في طريقها تعد الخطى وتتأمل خيط النور ينتشي في باحة ظلمتها بعد أن أخترق بعطفه شباك فكرها، بعد أن قطع خيوط صمتها وعنادها، صارت تكلم نفسها وهي معجبة به وغير مصدقة لما آلت إليها الصدفة، أنه جواد كريم، حنون، وفوق كل ذلك وسيم الملامح.. صارت تدعو له بالخير والرزق..

يا رب يسر له أمره، أعنه على عمله وفقه في حياته ومسعاه، يا رب لا تخيب ظنه، لا تجعل العوائق تجثم في طريقه، صنه وأرحم والديه.

كأنها دعت الله بأن يوفق بينها وبينه.

صارت تعاود كرتها للمطعم بين فترات متباعدة استحياءً وخجلا، فلم يجبرها إلى طرق بابه سوى الحاجة والشوق المعنى لإشباع رغباتها العاطفية..

لم تنسى سهام نظرات عينيه القاتلة، ولا لذة كُبَتِهِ الفاخرة، انحنت للقدر مثلما أنحنى أمامها، مثلما تضور شوقا لعذوبتها...

مع تواتر الأيام تعلق بها تعلق الواثق بخطوته، تعلق الورقة

بغصنها، لا يفصله عنها سوى الموت أو مانع ظرفي.
كانت بملامحها الجميلة قد دغدغت مشاعره، استوت في أعماق فكره كصورة شوق، كحالة إيجابية تكمل شخصيته، لذا شرع إلى ترميم ذاته بالود والتلاقي، بعد أن أنعكس شعاع نورها على مرآة قلبه، حينها هجس بالنور يتلألأ في وجهه.
ترنح لجاذبيتها، مثلما ترنحت لعصفه ووسامته وطيبته وصدقه ورجولته، أنشّدَّ لها، أنشّدَّت إليه، أنشده بحسنها، انشدهت بعطفه وخلقه، نهران تلاقيا في مجرٍ مشتركٍ واحد.

كانت ناديا قد ذوى عودها، بعد أن آل البيت للسقوط، لم تكن مستعدة نفسيا ولا فكريا لتلقى خبر وفاة زوجها الذي أحال سعدتها لمأساة دائمة، كان قد سقط سقف البيت حين أنتقى الموت زوجها من بين جميع خياراتها، جعلها تتخبط في خطوات الظن، تبحث عن ثقب في جوف الزمن لتنفذ منه، لتنجد وليدها من العسر الذي أصابها ومن الغد المجهول الذي يتعقبها.
لكنها كانت مؤمنة بالقدر والذي قادها لتكون صرة أمل في طريق نجاح.
كانت عائلة أبو نجاح تتصف بميزة الأسماء، حيث جميع أسمائهم تبدأ بحرف النون، هكذا سمى اولاده على نمط أسمه ناظم.. فلنجاح أخ يصغره بسنتين أسمه نعيم، وأخت تصغر نعيم أسمها نوال، وأخ ثالث يصغر نوال أسمه نواف، وحين التقى بناديا، كان لا يعرف أسمها في بادئ الأمر، وحين عرف أسمها تعلق بها أكثر، ليجمع بظنه سلسلة العِقدْ الذي تأمله، وقد ظن بذلك خيرا ساقه الله لوهدته، كان قد قدر ذلك بحسن الفأل.
الوضع الجديد لم ينسيها زوجها قط، لكن معوقات الحيات أصبحت جدران عالية صعب اجتيازها، فلن تجد منفذا تطل من خلاله نحو يباب الغد المجهول دون معونة خارجية. تفاقم

الصعوبات مع توالي الأيام جعلها تدرك الخطورة القادمة، بدأت تكبر وتتسع معوقات الحياة مع استمرار الحرب، جعلتها تتقوقع في مسالك الطرق ومنافذها كالعُقد، جعلتها تنحني وتتشبث بأي وامق يغدق عليها عطفه، يعينها على سقف الحياة، يجير صغيرها من المأزق والتهلكة، تلك الذكرى الوحيدة الباقية من ممتلكات حبيبها، السلوة الوحيدة التي تركها لها قبل أن يرحل مودعا.

مع مرور الأيام أضحى الغلاء يتفشى في الأسواق، مع استمرار الحرب حُشَّ صفوف المجتمع في زاوية ضيقة، أضحى تأثيره يشيح في الوسط، جال كبكتيريا ضارة في صلب اقتصاد البلد، نقل أمراض العصر الفكرية والنفسية والاقتصادية للضعفاء من الناس.. لذا وجدت ذاتها مكسورة الجناح، وحيدة تجوب الميدان، لن يستطيع والدها العجوز من أن يسعفها.

تعلقت الفاقة في تلابيبها، خدشت جلدها، أحست بفعل الاختناق، كان وليدها قد أثقل كاهلها بتربيته والذي باتت متطلباته تزداد يوم بعد يوم مع نموه.

هكذا دواليك ساقها الظرف لقدرها الجديد، مصاعب جمة، كبلتها، هبطت عليها كنيازك غل، لم تقوى على تحملها ومجاراتها، جعلتها تبحث في وجوه الناس عن منفذ تنفذ منه، عن شريك يعينها، يرفع عنها وزرها. فهي لازلت في مقتبل العمر لم يشف حليب وجهها، لازال الزبد يرق في شفتيها، يعكس بَهَائِهَا ونضارة وجهها، لازال جسمها غض أملد يمتلك مرونة تجذب الأنظار.. تهجس بها كحسان ملكات الجمال وهي تحف الخطوة، كل شيء فيها لطيف وجميل ومبهر.. ما أصابها من نكسة هي من طبيعة الحياة، هذه سنة الحياة، لا بد من أن تستمر الحياة دون كلفة وتعقيد..

ها هو اليوم يمضي بنا وهو يحتمل النور والظلام، هكذا خلق

الله الطبيعة، الأنسان جزء من هذه الطبيعة، لمَ لا تعود ذاتها على ظرفها لتكون طباعها بمثابة طباع الطبيعة، لتتقبل حالة النور وحالة الظلام. فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، صدق الله العظيم...

لا يستطيع الأنسان أن يتجرد من قدره حتى يدركه، وها هو نجاح تراه ذاك البصيص الباهت في السدم كنجمة توحي لها بالأمل.

لن تنفع تعويذة البؤساء مع التستر تحت ظل الحزن المطبق، حيث كان القدر قد دَوَنَ نصيبها من الحياة بقلم الجرافيك الأسود، لم تسمع نداء استغاثتها تلك الأشجار الصماء، ولم تنتشلها الريح العاتية من مأزقها، ولا ينقلها الرجاء لأحضان الحبيب مرة أخرى... ما فاتَ قد فاتْ، وما هو آتٍ آتْ لا يمكن تجاهله، أنها حكمة الرب في تلك المعاناة. كسرت جرتها، بدد ماؤها، البذرة التي نبتت في سرها حتما ستكبر وتتورد، ولابد من مراعات نبتتها، لذا يجب عليها أن تمضي في طرقها نحو ذلك الأمل وأن كان بعيد المنال.

الموت حق، والحياة حق، وبين الحق والحق فجوة عميقة يجب تخطيها، يجب أن تنتمي لقوس الطبيعة، يجب أن تتسلق جدران الحياة رغم الصعاب والأشواك القابعة في الدروب، لتنعم بفرصة كريمة تغدق عليها الخير...

يجب أن لا تستسلم للهم والكدر، يجب أن لا تكون كحجر صوان لا يتزحزح عن مكانه. تلك الفجوة السحيقة لا تكشها ريح، أنما تستطيع اجتيازها بسلطان الفكر والصبر.

إذا لابد من أن تركن ذكرى زوجها على الرفوف، كي تتمكن من أن تفتح أبواب المستقبل ومنافذ الحياة أمام فلذة كبدها الوحيد، ذلك الطفل البريء الذي لا يملك من الحلم درجة.

استمر نجاح بمجاراة محبته الصادقة طوال مدة ستة أشهر،

دون أن ينحرف قيد أنملة، ذلك ما طمأنها وثبت خطاها، كان ذلك قبل أن يلتحق بالخدمة العسكرية الإلزامية بأشهر... أملها خيرا، وعدها بالزواج بمجرد أن تُزاح الغمة عن هذه البلد، بمجرد أن يتحرر من قيد العسكرية، كي لا يترك حِمْلا جديدا على عاتقها.

تلك الأماني باتت تختفي تحت عباءة الخوف واستمرار الحرب، بحيث أبى أن يكمل سعيه دون أن يحظى بحرية الفكر والعمل.

مثلما أصابها من هوى العشق والغرام، أصيب بذات الداء، حتى أضحى أسير هواها، أضحى كالبصير الذي لا يبصر من الدنيا سوى نور وجه ناديا. تعلق بها تعلق قيس بليلى العامرية، صار يسهر على أغاني أم كلثوم وعبدالحليم حافظ المليئة بالشجن والهيام.

على الرغم من أوار الوغى مشتعلة على الحدود في أوج صخبها، والأناشيد في الإذاعات تدب الحماس في النفوس وهي في قمة القها، كان للقلب عزف آخر يخترق صفوف الصمت، كان يترنم على أنغام الشوق والغرام، فالقلب يعشق كل جميل، وأجمل ما في الكون هي حبيبته ناديا.. ذلك ما روض نجاح فكره عليه، جعله ينسى هموم الدنيا التي باتت تصب جام غضبها في دروب سعيه، صار يتقبل تحدي الظرف، وعسى أن تنتهي الحرب قريبا قبل أن يساق لخدمة العلم المحددة بسنة وستة أشهر، متأملا ارتباطه بناديا بانتهاء الحرب.

الفترة الإلزامية للجندي المكلف لا تتجاوز السنة والنصف حسب العرف المعمول به في زمن الاستقرار والسلام، أما في حالة الحرب فلا أحد يعرف المدى الزمني الذي يتمطى به القانون مع واقع اشتداد الظرف. لذا الكل تأمل أن تنتهي مسببات تلك الحرب القذرة عاجلا أم آجلا، وخاصة بعد أن

بـدأت تتحـرك الوسـاطات العديـدة علـى خـط الجـدل وتـدخل فـي واقـع العمـل. بـدت تخطـو برفـق نحـو السـلام تمضـي بمسـرب اللـين وتحـدي الصـعاب، أضـحى هنـاك فـي الأفـق أمـل يـومض، لقد تأمل نجاح وكلا الشعبين توقف الحرب.

كانـت قـد ابتـدأت الوسـاطات مـع شـعور المحبـين مـن الـدول بالعبـث الـدائر وهـول المصـيبة التـي اصـابت كاهـل الشـعبين والمنطقـة بأسـرها، وأول تلـك الوسـاطات الرسـمية كانـت قـد ابتـدأ بهـا رئـيس منظمـة الـدول الإسـلامية السـيد أحمـد سـيكتوري، رئيس جمهورية غينيا. ثم تلتها وساطات أخرى .....

7

كانت قد ابتدأت الحرب قبل سنة ولابد لها من نهاية، وعساها تكون وشيكة... وتلك هي أمنية نجاح ونادية وكل شباب العراقيين والإيرانيين.

ولكن ....متى سيأتي ذلك اليوم لتهدأ النفوس؟....

ذلك هو السؤال المحير الذي بقي يدور في أذهان الناس، وفي فكر كل فرد من أفراد المجتمع. يا ترى؛ متى سيحل السلام؟..

الكل تأمل ساعة البشرى، تأمل أن تحل المشاكل والعقد بين البلدين على سواعد المساعي الحميدة، بعد تمادي طرفي النزاع بالمغالاة في العند والتمسك بطرف حبل الكرامة على حساب الخسائر الفادحة المادية والبشرية الحاصلة بين الطرفين.

كانت قد صفت قافلة المساعي الحميدة في طابور طويل، كل يود بلوغ سعيه بأعلى مراتب التقدير والتبجيل في عيون الشعبين، تلك المساعي باتت تدور رحاها بين قطبي النزاع بغداد وطهران، قسم منهم أبتدأ مساعيه فعلا، وآخرون ينتظرون إشارة البدء لخوض التجربة بوقف نزيف الدم. الكل تأمل الوصول لصيغة أقناع ترضي الطرفين، لتصل تلك الحرب الشعواء لنهاية حتمية يراجع فيها المتخاصمون أخطائهم تحت بند الهدنة والسلام...

إذ لابد من حل وشيك يقنع الطرفين، هكذا تعلقت الآمال بأجنحة الطيران المكوكية الدائرة بين طهران وبغداد. الناس تتأمل أن تنضج الفكرة في عذق النية، فيما تكمن العقدة في فكر قادة البلدين الذين صاروا يطحنون كل فكرة جديدة قبل أن تولد بمبدأ العند وبالذات من طرف حكومة إيران التي تنظر للعراق أقل من مستواها قدرة وقيمة، فيجهضون المبادرة تلو الأخرى، كل يبحث عن نصر يبجل مكانته في عيون شعبه.

سارت الأمور بين الطرفين بعكس نسق المساعي الحميدة، بعكس نزق الغليان والقلق الطافح بين هواجس الناس، تلك المتأملة حلا وشيكا يشرع في الأفق.

بقي نجاح ينصت لثرثرة الناس ويتبع الأخبار عبر الإذاعات والشبكات المرئية أملا بالرجوع لحبيبته وأمه، الحياة جعلته يتمسك بشغفها بعد أن وجد في ناديا ملجأ لمشاعره وأفكاره، لن يتجرأ أن يتخلى عنها، أصبحت جوهرة ثمينة من أشيائه الغالية، بل أصبحت أثمن كل أشيائه، باتت تشكل له صور أحلامه وأجزاء قدره..

هكذا ربط مصيره بمصيرها بعد أن شغلت فكره، بات لا يستطيع العيش دون أن تملأ مساحة ظنه الفارغة بوجودها وذكراها، دون أن يشد نبض قلبه بنبض فؤادها، دون أن يلتمس سر لغزها في فكره.

التحمت الوشائج بين الطرفين كقطبين متجاذبين في وسط مرن، اجتمعا على الكلمة والمصير المشترك بفضل التفاهم والحاجة والجاذبية الدائرة بين الطرفين. أضحت آصرة المحبة تزداد قوة ومتانة يوما بعد يوم، تشد بعضهما البعض.

لِمَ لا؛ وهي التي تبدو في ريعان شبابها كزهرة الأوركيدا، مزهوة بين الورود بسحر الجاذبية والفتن، بهيجة، عبقة، متأنقة، تتألق في الرقعة التي تحل بها. تهجس بها ترفل كفراشة فرحة بعالم الحرية والقرار، حيث بطولها الممشوق

وبرهافة جسدها وحسنها الملائكي الأخاذ تبدو كقنديل تزاحم دجى الليل. تلك الآية التي يتهافت على حفظها الشبان، الكل يتوقها، أضحت كطبق العسل تستقطب الحشرات.

حين تطل على المطعم؛ تميل ميل الشمس بدفئها وسطوعها، بحيث يستشعر بها كل من يصادفها، ينتبه على فتنتها. تطرق ذهن كل شاب بمقتبل العمر، تصيغ الكلمات المبعثرة أبيات شعر وغزل على الالسن العشاق في حضرة فتنتها.

هكذا تولع بها نجاح وغيره من الشباب، هكذا ربتت على مشاعره بسوط فتنتها، فجرته لوهدة سكون النفس والاهتمام بها وبشؤونها.

حين يلتقيها يهجس بها تفرش طريقه بنور الحسن، تحمل عنه هموم الغد، تحثه على الصبر والتفاؤل والتمعن، تآزر أحلامه، ذلك ما جعله يتحسس الخوف من الغد، يشعر بالقلق من أن يفتقد تلك الشعلة إذا ما استمرت جدلية الحرب فترة طويلة، ذاك ما أشعره بالحزن. في غيابه قد تجد من ينافسه على الظفر بقلبها بسبب ظرفها المعقد... هكذا أوجد لذاته خصم افتراضي ينافسه على حبيبته، خصم يسرق أحلامه بعد أن وجد الكل يسعى لرضاها وتفانيها متبعا فتنتها.

من لحظتها مال إليها ميل رجل مُخَلِصْ، أمين، أشعرها بوجوده في حياتها، ود أن يقتنص الفرصة قبل أن يلتف عليه حبل العقد، ود أن يصونها من عبث الدبابير الدائرة ولسعاتها. كان قد ألتمس طبعها الحاد في تعاملها مع الغرباء وهي توخز العيون المتلصصة بفتنتها، تشل ظنونهم بالخيبة، لا تحتمل جلد المزاج ولا جدل الين، لا تقبل المساومة على الشرف والدين، لن تُفرِط بقطرة الحياء والشرف وأن كانت أسيرة من المساكين المحتاجين، ذاك السلوك زادها فتنة وتألقا وحسنا في عين نجاح، المهم أنها ليست من بنات الهوى، تود الستر وتربية وليدها....

كانت عصامية، لا تسمح بأن تمسد ثناياها ريح عابثة، أو سكرة غابرة، حتى لو كان ذلك من باب الشفقة والمزح. متزنة، خالية من الشوائب كقطران الرشح، كزلال الودق، ناصعة البياض كوفر الثلج، نقية كالزئبق، حاضرة برهافة كوهج النور، لا يغريها لعب ولا طيش، قسى عليها الظرف، فتعلمت منه كيف تحصن الذات من الشرر.

القدر الذي رمى بها في ظلمة الدجى، هو ذاته صار لها شمعة ينير دروبها. لم تعد تركن فكرها على قارعة الطرق، أصبح لها متكئ من الفكر والصبر بعد أن تعرفت على نجاح، أضحى لها صرح من الود ودار ومسكن في القلب تأوي إليه.

كان نجاح قد داهمها بسهم الطيبة فأصاب ضعفها، وجدت في عينيه سحرٍ غريبٍ لم تتعود على لمعته، سحر من هوس الشوق مغروس في شخصيته لا يشعر به إلا الطير المهاجر حين يجد ظلا تحت أوراق الشجر يحميه من لفح الشمس.

كان قد أجلى عنها شقاء المسافات والتعب والإرهاق، بعد أن لمست صدقه في سر صمته، حينها انتشلته من واقع حيرته مثلما أنتشلها من وهدة الهم والعناء... هكذا وافق شن طبقه.

وجدت فيه صرة نجاة وبراءة، عروة أمل تشكلُ به ذاتها، جدار صبر تستند عليه، بوجوده كانت قد اختصرت المسافة بين العين والنظرة، بين الفكر والفكرة، أزالت حواجز الريبة بتوفير متطلبات أبنها الوحيد. كما اختصرت مشقة مراعاة أبوها العجوز وتسليك عجلة الغد.. كل تلك العقد تمكنت من جزلها وحلها بتعرفها على نجاح، لذا أخلصت له بعمق وتفاني، كما أخلص لها بضميره وقلبه وذهنه وهواجسه.

لا ضير من انتظاره فترة التحاقه بالخدمة العسكرية الإلزامية، مدة محدودة لا تتجاوز السنتين بأقصى مداها، فهي تعد قصيرة أمام سفر العمر، لازالت في مقتبل العمر، الحياة

أصبحت عملية مقايضة.. سنتان من العمر المهدور مقابل سعادة دائمة.. أنه الفوز الأكيد، والأيام لا تقاس بمقياس الهدر والضياع أنما بالإعْداد والتهيئة للغد وتجاوز خطوط الهم، فالجزاء يأتي على قدر العمل المجاز.

لقد تحملنا الكثير في كنف آبائنا، في سبيل اليوم الذي به نجزل معاناتنا ونتجاوز عقدنا. انتظرنا طويلا ولم يزل ذلك اليوم غائرا في جوف زمن بعيدا عنا، دون أن يطل بشمسه علينا، دائما ما نجد مطبات في الطريق وعسر في ولادته. ثم أن الذي يحل في الواقع هو قدر مكتوب، لابد من تحمل منغصاته وتجاوز مطباته والتفكير بمدلولاته وبيوم الغد البهيج. فترة قصيرة، تكاد لا تعد سوى نزوة غزل وشوق عذري التصق بها، كانت قد ختمت على عواطفها بالشمع الأحمر بعد موت زوجها، ولكن الزمن جدد حيويتها، تكفل بتدبر الأمور، فبقدر حاجة بعضهما للبعض اختلطت الوشائج، زاد التلاحم والالتحام بينهما، أملا في تسلق قمة الغد بيسر، فترة وجيزة تكاد لا تتعدى غمضة العين بحساب الزمن المهدور من العمر، به تسوى الأمور كما تتأمل.

إذا لابد من تحمل مدة الفراق حتى تبرد جمرة الحرب، حتى تلين شوكة الظرف، مثلما سيحتمل نجاح أوزار الفراق وشقاء العسكرية على مضض. هكذا ستحتمل تلك فترة الوجيزة من الفراق وهي تتأمل إشراقة الشمس على كامل حقلها الذابل، حتى تشرع قناديل الحلم في إنارة طرقها، بعدها ستركن كسفينة أحلام في ميناء سعادة وسكينة تجبل خاطرها..

حتما ستتغير الظروف في الأيام المقبلة....

{ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس } (آل عمران : 140) .صدق الله العظيم....

فبعد كل عسر لابد من يسر، لابد من فرج، وعسى أن لا تطول مدة الفراق. هذا الكون دائب في حركة مستمرة، هكذا

خلقنا الله لنتحول من حالة لحالة، لا يوجد شيء ثبات في قاموس الكون، الثبات يعني الموت! والموت يعني توقف عجلة الزمن، وذاك خارج قوانين الكون.

إذا عاجلا أم آجلا ستقف الحرب، ستنبلج الأنوار ويعود كل شيء لوضعه المعتاد يخضع لنظام الطبيعة، الحيوات بطبعها تبحث عن الهدوء، لاتقف على حجر كما هي فصول السنة، اكيد ستنجلي الغمة، سيحل الهدوء بعد أن تهدأ العاصفة، ستستقر قافلة الشوق لتعين ذاتها وأبنها بكنف نجاح برغد دائم.

أخذت تقنع نفسها وتعد الأمور بتلك البساطة، لا مجال من أن ترفد ذاتها بهموم إضافية، فهي ليست منزهة، حالها لا يختلف عن أحوال الكثيرات في البلد من اللاتي ترملن، مسألة الفقر والغنى والحظ هيَّ قسمة مقسومة بيد الخالق، فالخالق دائما ما يحث المخلوق على السعي،" **وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ" صدق الله العظيم**.

لقد تركت قدرها بيد الله فهو المعين الأوحد ولا معين بعده، ثم بدأت تتأمل الغد المبهم بشيء من التفاؤل، يخال لها شكله الباسم كتلك الصورة التي أحبتها وهي تلميذة في الصف الأول الابتدائي حين رسمت وجه الشمس وهي تضحك بهيئة وجه طفلة تغازل ورود الحدائق.

أحيانا كانت تشعر بتلك الصورة كأنها تقمصت ذاتها ولبست قناع وجهها، هي فعلا ترى ذاتها بذات الوجه الجميل مبتسمة كالشمس..

أحبت وجهه فتعلق الحلم في مخيلتها، رسم لها هالات سعد، وعسى أن يكون ذاك اليوم قريب من واحة ألتأمل، "تفاءلوا بالخير تجدوه"، طالما تردد هذه المقولة، أيمانها بالله يدفعها لذلك، تشعر بالخضرة تملأ بساتين فكرها ومستقبلها، بذكرها الله تضفي لمعة سعادة على ثغرها، فهي تستلهم صبرها من إيمانها بقدر الله، لذلك عولت ناديا أحلامها على عشق نجاح

لهـا، عسـى أن يعـود إليهـا كـالطير المهـاجر ليـزيح عـن فؤادهـا متاعب الحياة.

بـدأت تحـوك بسـاط الحلـم بمغـزل الصـمت، تتأمـل أن تتـورد أغصـان شـجرتها قريبـا، أنهـا قريبـة جـدا مـن أن تمسـك بكفـاف الحلـم، هنـاك أمـل يلـوح فـي الأفـق يراودهـا كطيـف يخـامر هواجسها يؤملها بالصبر، يمسد نضارة وجهها بندى الفرح.

لـم يكـن نجـاح أفضـل حـالا منهـا، أنـه يعـيش حالـة قلقـه وقلقهـا معـا، هوسـه وهوسـها معـا، يختـزل ذلـك بـين قعقعـة السـلاح وشـتات الفكـر والخـوف المـاجن مـن المصـير الغـامض المتـربص بـه. أحيانـا تؤصـد الأبـواب بوجهـه، فيفكـر بـالهرب مـن الخدمـة العسكرية ومـن غـل الحـرب الضـروس، لقـد مـلَّ الانتظـار السـقيم والحالة الثابتة التي لا تغير من منهج الحياة..

ولكن... إلى إين يهرب؟

إلى أين؟

الحيـرة تلـوك فكـره، تجـزل سـعيه. كـل الأبـواب مؤصـدة، وفـي كـلا الحـالتين سـيكون بعيـد جـدا عـن وصـل حبيبتـه، وأقـرب المجـالات إلـى وصـلها؛ هـو أن يـزج ذاتـه فـي بوتقـة الحـرب حتـى تنتهـي مـدة خدمتـه الإلزاميـة أو تقـف الحـرب، أن يبقـى صـامتا تحـت رحمـة القـدر، ليغتـرف مـن جـوف الـزمن سـعادة تجمعـه مـع حبيبته.

الهـرب مـن المواجهـة يعنـي المـوت بطريقـة مـا، يعنـي أنـه سـيبني حـواجزا منيعـة بينـه وبـين حبيبتـه تمنعـه مـن أن يلتقيهـا، يعنـي سـيبقى عمـره البـاقي ملاحـق ومطـارد مـن قبـل رجـالات الشـرطة والأمن....

آه مـا أصـعب التنـاقض؟ لكـي يعـيش كمـا يجـب، لكـي يفـوز بحبيبتـه؛ عليـه أن يطـرق أبـواب المـوت!!! أنهـا قمـة التنـاقض والتعارض بحياته.

مـا أجمـل العشـب المـزروع فـي حديقـة سـاحة الأمـة وسـط

بغداد، تلك البقعة التي كثيرا ما يئمها العشاق. حين أراقبهم أشعر برائحة الزهور والوانها تغشي الأنفس، ألتمس حرية الفرد المقدسة، أستمع لنبضات الأفئدة وهي تفتن ببعضها..
أنها لحظات تأمل بين مروج الورود وشبق النظرات، لحظات صمت تتقد بين العيون، تحمل من السكينة ما تجعل راية العشق ترفرف بهجة وسرورا على نواصي القلوب المرهفة.
كم اشتقت لتلك الزهرة الحمراء المندسة بين زهور الأقحوان الصفراء المنتشرة وسط خضرة بديعة تغطي مساحة النظر، أشعر بوحدتها، كأنما أضناها الزمن بالوحدة كما أضناني.
آه يا جُلنار... أه يا دنيا الأمل.. آه يا ناديا كم أنت قريبة مني رغم المسافات...
كأنك تلك الوردة التي تشتعل رقة وبهاء بين رفيقاتها..
ما أجمل الطبيعة وهي تلقننا دروسا في فن الحياة، كلما أتمعن في تفاصيلها، كلما يغوص الفكر في تفسير الذوائب المحيطة بها، أنغمس بشكل أعم وأعمق في مضمون الفكرة. ها هي الوحدة رغم قساوتها، إلا أنها بذكرك تبدو لطيفة، فلا حاجز بيننا سوى ظرف من مكونات الطبيعة يمحص العقل.

ونتيجة لمرارة الصبر المطبق على فاهها والمظلل لجفونها، غفت الحسناء على وسادة التأمل لبرهة، تخيلت خلالها لحظة اللقاء، شعرت بالخجل من زوجها المتوفى، لكن ما ذنبها، فهي لم تتركه؛ أنما هو الذي ركب قطار القدر ومضى لحتفه، تركها وحيدة تصارع أمواج الحياة.
اعتذرت منه في أعماق نفسها آلاف المرات..
قالت له:...
... سامحني يا زوجي العزيز...
لقد انتظرتك، وافيتك، بقيت على العهد طويلا، فلم تعد من سفرك ولن تعود.. تركتني ولم تفكر بوليدك الذي لازال لا

يعرف أسمه، لم تنفع تعويذات الأنس والجن التي حفظتها على تفعيل حضورك، لم أستطع فك اللغز من يوم أن غادرت وتركتني وحيدة في هذا الصمت المدوش، الدائر من حولي، الطارق لرأسي، والغافي في مخيلتي..

لقد تركتني جسدا بعد أن سلخت الروح منه، تركتني خيش ذكريات بلا أحلام، بلا أمل، اتقلب فوق بسط الذكريات التي جمعتنا؛ حتى نشف الدم في العروق. فصلت عني كياني، جعلتني أعيش بكيان امرأتين متناقضتين في جسد واحد، أحداها ميتة دون روح والأخرى تعيش على وهم من أجل ذكراك فقط..

خلخلتَ ظني وجزلت حلمي، أحرقتَ فتائل صبري، كنت كلغز محير في طريقي لا يفك طلسمه سواك، سواك أنت الغائب عن الوجود والحاضر في الذاكرة والقلب..

ها أنت الآن تراني عبر الحواجز، لكني عاجزة أن أراك!! لقد أصبحت مثلك أتذوق طعم الفراق المر رغما عني، أو بالأحرى صار العذاب والعقاب جزء شاخص بقدري، الكآبة والحزن والهوان والالم صفات لا تنفك عني.

بالله كيف تدخل عالمي كشهاب ثم تنزوي في سدم الذاكرة؟ كيف بعد أن تأملتك قدرا تختفي في ديجور العتمة بلحظة غفلة؟...

لا تعاتبني على تصرفاتي، فلم أتخلى عنك بإرادتي، قدمت لك أجمل هداياي، قدمت لك فلذة كبدي، كأنك لم تتقبل الهدية مني، تماديت في غيك وعنادك، لقد تمسكت بالقدر وتخليت عني..

ما أن هربت من عالمي حتى تغير لون وجهي ونبض قلبي، ما عاد يبتهج كما كان بذاك اللون الوردي المعتاد، أرتدى سواد الهم والعناء، قتم لوني وذوى بدني بتجهم الظرف.

سامحني، أنا لم أخنك، وأنت لم تترك لي فرصة مرافقتك، لم تترك لي صحن رزق أعتاد عليه، حتى انك لم تخبرني حين

غـادرت. مثلمـا تفاجـأت بقـدومك تفاجـأت برحيلـك، حاولـت أن أعتمـد علـى ذاتـي كثيـرا دون جـدوى، لـم يجيرنـي الظـرف ولـم تواكـب طـاقتي الايـام، الظـرف تغيـر ولـم تعـد لـي طاقـة تسـتوعب مـا جـرى ومـا يجـري فـي محيطـي وفـي حيـاتي، صـارت الأمـور تتعقد كحزمة أشواك لا أستطيع التقرب منها.
لـم اسـتطع أن أسـتوعب الحـدث كـي أسـتعن بالشـيطان علـى كـف جمـاح الفقـر والامـلاق المتشـبث بـي. أو أجعـل مـن جـدائل الأيـام المراقـة بـاكورة صـبر أتكـأ عليهـا فـي مشـاويري الشـائكة.
أوصـدتْ الأبـواب بـوجهي منـذ أن انـدلعت الحـرب، أشـتد الوبـال علينـا، كسـدت الأحـوال، تغيـرت النفـوس، مـا عـاد السـوق سـوقا ولا الجيـب عـامرا، ولا القلـوب قلوبـا تنـبض بالرأفـة. مـا عـادت الخضـرة سـائدة فـي الحقـول ولا الأهـواء تبتسـم فـي العيـون، كـل شيء ذبل وأصفر لونه وتغير طعمه.
القلـوب شـابت، الـرؤوس ابيضـت مـن الهـم والكـدر، كـل شـيء أضـحى فـي خريـف أيامـه، تغيـرت الطبـاع اللينـة بالحـدة المشـاعة، تـأثرت بالشـح والجشـع والطمـع. أضـحت المواسـم تختلـف عـن سابقاتها، صارت الرغبات مخيفة لا تحتملها النفوس.
نزلـت دمعـة دافئـة علـى حـافر الخـد المُجلـد بـالحزن والكمـد، مزجـت الآه بشـفير الألـم، غمـرت ثغرهـا مـرارة صـبر، ماجـت الحسرة في تنهدات صدرها كأمواج ثائرة..
هكـذا مضـت أيامهـا عسـيرة، حتـى أدركـت شـمس نجـاح تشـرق علـى صـبحها، حينهـا غمـر وجههـا بابتسـامة دافئـة، جعلهـا تبتسـم ابتسـامة طفلـة الشـمس التـي تعلقـت بـذاكرتها، ومـع ذلـك بقـي يتعقبهـا ذلـك الخـوف النـابع مـن المجهـول، أغشـاها بالصـمت والحزن والحياء والخجل....
أضحت محتارة في سرها، مرتبكة...مهزوزة كالشفق.
عالقـة بـين هبـاء النـور وغبـرة الغسـق، بـين أن تغـرق بظلمـة جديـدة أو ترفـل بصـبح جديـد يُنبثـق.. زمـن تائـه، الحيـرة صـماء،

الأمل باهت، أنها المجاز والعقد والمعاناة، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن العتيدة، الأمور رهينة بيد القدر، موعودة بأمل متلون، بسحب وعناوين وجنون، تأملت القمر يضيء عتمة ليلها ليزيح عنها الوجل. هرعت، ركبت قطار السفر، أضمحل وجه الامل بين المدن الغامضة.

كان نجاح قد سيق للعسكرية، رافق مجرى القدر بعد أن جاءت الوقائع عكس ما خطط لها، عندها دلقته موجة الحرب لمجريات العقد. أضحى يشهق بصوت مبحوح لا يرتقي درجة السمع، همسات وافتراضات لا تنفك عن باله شرشرت أفكاره وظنه.. كان مجبرا على مجاراة الظرف، لأن الأمور مسوقة، لا تقبل التجزئة، كما أنها ليست مدبرة، أي أن الخطط مقرونة بالأحداث ومدى تأثير ظرف الجبهة على الواقع، تلك التي يصعب التكهن بها وتخمين نتائجها ونتاجاتها مسبقا.

مخططاته وافتراضاته بلغت عالمه، عناوين مبهمة، لا يستطيع فك شفراتها، وسعت المسافة بينه وبين الأنا القابعة في جوفه، أضحت الحالة كلغة البرمجة، كلغة البيسك والفورتران، تحتاج لشفرات خاصة لتفسير عقدها. لم يكن قد هيئ نفسه لحل ألغازها، أو بالأحرى كان قد دخل في نفق مظلم لا يبصر ما يدور حوله. صار يستقبل النتائج دون أن يكون مؤثر فيها.

لذا كثرت السيناريوهات في ذهنه، شاكت واشتبكت صور الأحداث في عينه، ما عادت تلك الأحلام التي تأملها تتدلى لسكونه، أضحت كعناقيد الكروم معلقة في خيوط الذاكرة بعيدة المنال، ومع ذلك تمكنت من العبث في فكره، ارفقت روحه بنشوة صبر لا طائل لدفقها إلا لمن تجرع مرارة الصبر.

لذلك أستقر في موضعه كطود يصارع الريح السَّهْكَةُ العابثة بالأقدار كيفما تشاء. أضحى لطنين الصمت دوشة في طبلة أذنيه، وجد ذاته مشغولا دون هوادة، هجس بحاله كفراشة

تبحث عن مأوى، ما أن تقترب من وهج النور؛ حتى تحترق أم الجناحات .

ذلك التغير ما كان يخطر على باله ولا على بال ناديا الطموحة، أضحت طموحاته تأملات مشرورة على غارب الزمن، تتلاعب بها ريح عاتية لا تهدأ وتيرها. جعير السرف وهدير المدافع وقعقعة السلاح كشت السكون عن الاذهان، أخذ صداها يتضاعف في ساحة الوغى، تخرش ذاكرة الفرد، تجزل النوايا البريئة، حيث دائما ما تكون للمصاعب مخالب شرسة، حادة، تخدش وجه الصبر وتعبث بالمصير.

تكبل بالقيود التي كبلت المجتمع بأسره، لن يستطيع أعادة عجلة الزمن لسابق عهدها، لعهد التخطيط والتأمل، بات مصيره رهن قدره، دون أن تكون له القدرة على تغيير مساره، هكذا أستمرت عجلة الحرب تذر العقد في الطريق، تشك ايامه بـ سم الجنون.

كان نجاح قد سيق إلى وحدة تدريب الدروع في الناصرية، حيث أتم فيها ثلاثة أشهر من الأعداد والتهيئة، ومزاولة أنماط التدريب المكثف.. تدرب على أسلوب الكر والفر، وطرق الهجوم المباغت، تعلم رسم صور للمعارك في مخيلته، فهم الإنذار والمناورة، تعلم الاختفاء والمراوغة والمداهمة، تعلم استخدام البندقية وفن رمي قنابل الرمان والقتال بالسلاح الأبيض، إضافة لتكتيك المعارك في عمليات الهجوم والانسحاب على محاور جبهات افتراضية هُيأة لهم مسبقا، تعلم طرق حفر الملاجئ والخنادق الآمنة، وعملية التيقن بالغش والاختفاء والتنصت على هواجس العدو عن قرب والتستر بالطبيعة.

تعلم الطاعة والاحترام وتحمل الجلد والقسوة والصبر وتنفيذ الأوامر الصارمة والانصياع لأوامر الرتب الأقدم منه.. تعلم أساسيات تهذيب شخصية المقاتل، تلك الأمور تُعين الفكر

على اتخاذ القرار الصحيح في أوقات الضيق والشدة..
كل تلك الأمور جعلت منه رجلا قويا يعتمد عليه.

يقال: بأن الشخص الذي لم يرتدي بدلة العسكرية تنقصه الرجولة.. لأن العسكرية تزرع في شخصية الفرد كل مقومات الرجولة التي يحتاجها خلال حياته من سمات وثقة بالنفس، تبرز وتلمع رجولته، تعلمه الشجاعة والقوة والأناة والطيبة والرأفة والصبر والحلم، واتخاذ القرار، كما تعلمه الرحمة والرأفة والتعاون وتحمل الشدائد، والاعتداد بالنفس، وأهم من كل ذلك الاعتزاز بالوطن.

عندما تكون تلك الصفات مغروزة في شخص، فلن تهزه الريح أبدا، سيكون ذات إرادة قوية وذا عقل سليم. صفات الرجولة تمنح الشخص سلامة في سوح الوغى. نعم الثقافة هي ضرورية ومحور أساسي للفرد في كل المجالات، ولكن لن تكون ذا فائدة دون أن يكون الفرد محصن ذاته بتلك الصفات الآنفة، ما كان ينقص نجاح هي الثقافة الأكاديمية وليس ثقافة الاختلاط والمعاملة.

بعد ثلاثة أشهر من التدريب القاسي تخرج بشهادة تفوق في مجال صنفه فأضيفت له ترقية خيط عن زملائه، اصبح برتبة جندي أول، مسؤول عن حضيرة (الحضيرة تساوي عشرة جنود فما دون).

خلال هذه الفترة تمكن من أن يلتقي بحبيبته ناديا عدة مرات في فترة إجازاته الدورية، والتي هي من استحقاقاته الطبيعية بعد مرور 21 يوم من تواجده في المعسكر، وعلى مضي ثلاثة أشهر متتالية تمكن خلالها من بناء جسور الثقة وزرع آمال عريضة بينه وبين حبيبته ناديا. شحن فكره وفكرها بأحلام كان يلتمسها في مخيلته، قربته منها وقربها منه.. تلك اللآلئ المتلألئة في سماء عشقه النرجسي التي كان يهجس بها كنجوم

يتحسس وجودها، بات يراها بقلبه وفكره وعواطفه قريبة المنال، لا تفصله عنها سوى حاجز الخدمة الإلزامية، وعسى أن تنتهي الحرب وتعود المياه لمجاريها..

كانت قد أذهلته تلك الملكة، سرقت عواطفه، جعلته يترنح أمام قدميها ككسير بعواطفه، غارقا في هواها. كانت تقابله بنفس الأبجدية والروحية من تبادل المحبة. لقد كشت الدبابير والعناكب والحشرات الطائرة والزاحفة والوحوش السائبة من عالمها ومملكتها أمام سعيه لدخول قفصها، جهزت ذاتها لتنعم برفقة هادئة وبال راكد وثقة واكدة.. مثلما أخلص لها أخلصت له، حتى ربطت مصيرها به.

في كل إجازة كان يتأمل أن تنتهي الحرب، وهي تتأمل فرجا في الأفق، طائران يبحثان عن عش يأويهما. كل يجهد من جهته في تليين الصعاب لصاحبه، يبحث عن وصفة علاج لمعضلة الفراق وعقد الزمن القادم، عن صيغة توافق شفافة تخرجهما من المأزق المحيط بهما لواقع مرن، لين، يحتضنهما.

كان في آخر لقاء وقبل أن يلتحق بالجبهة قد أدرك صيغة تقنعه وتقنعها واقعيا، أخذها لزيارة الشيخ عبدالقادر لمدينة الكاظمية لزيارة الإمام موسى الكاظم عليهما السلام ليشهدا على ثبات حبه لها، كان قد أشترى لها محبس وحلقة خطوبة، جهزها ببعض الملابس لها ولأبنها، اختارت الملابس بخلطة رضا جمعت فيها ذوقيهما.. حيث تُعرف مدينة الكاظمية كسوق تجاري من أشهر أسواق بغداد المزدحمة والمليئة بالمنتجات المنوعة، تحتوي على سوق واسع للذهب. كانت الزيارة لها مغزى في نفسه، ليطمئن قلبها بصدق مشاعره وصدق نواياه ونواياها.

خطوبة غير رسمية؛ عقدت اتفاقا بين الأثنين، أنها مجرد

تثبيت ركن اليقين، أما الإرهاصات الروحية فالزمن كفيلا بها. لا مانع من ارتباطهما عقائديا، أنها عقدة الوفاء، فالعلاقة حقيقية هيَّ أساس في بناء الأسرة.

زرع الثقة في حقل المرأة يعني لها الكثير؛ يعني تحييدها عن مسلك الانزلاق والانجراف خلف أبواق الظن، خاصة أنها لا تحتاج موافقة ولي أمرها، كونها ثيبا.

النبي أبراهيم عليه أفضل الصلاة والسلام سأل ربه:....

...: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الموتى، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن، قَالَ بلى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي. صدق الله العظيم.

إذا كانت الخطوبة هي لطمأنت قلوب الطرفين، على الرغم من صدق نواياهما، ولإزالة شعرة إبليس من جسد المحبة، كان لا بد من جدولة الخطوبة بخطوة تبعث الثقة في النفوس، وأن كانت خطوبة غير رسمية بسبب تعسر الظرف، فأنها خطوة جديرة بزرع اليقين في قلبها.

كان اللقاء فيه من الصراحة ما يثلج القلب، ختم على ارتباطهما بالشمع الأحمر، ارتباطٌ رسميٌ غير معلن.. تم تعليق ذلك الاتفاق على شماعة الزمن، متأملين توقف قطار الحرب في محطته الأخيرة، ليتمما جوانب ما أتفق عليه بشكل علني.

حينها غازلها وهو يشتري لها رغباته...

- أحبك يا ناديا !....

- وأنا أموت فيك ..

- أنا لا أعرف كيف أعبر لك عن محبتي، أنت لم تدعي لي فسحة أن أراوغ بمشاعري، أنت امتلكت يقيني تماما من أول لقاء عرفتك به.

- أنت أيضا جعلتني أفتقد ارتباطاتي بالعالم الخارجي، منذ تلك اللحظة التي ألتقت عيناي بعينيك، جزلت بيني وبينك المسافات، حينها جردتني من كل قواي، منذ تلك اللحظة تأملتك وعلقت أحلامي وتأملاتي على عاتقك، أنت أملي

الوحيد ومركبي الذي أتأمله أن ينقلني للشاطئ الآخر، أن ينتشلني من وحدتي وينقذني من أمواج الظروف العاتية.

- لا تقلقي فقط أدعي ربك أن ينقذني من فك آفة الحرب ويعيدني إليك سالما.

رفعت يديها نحو السماء، في الوقت الذي نزلت به دمعة دافئة من محجريها على ناصع الخد قائلة:...

- يا رب أرفق بي وبأبني، جردتني من زوجي وتلك هي حكمتك، فأحفظ لي نجاح وأعده سالما أكراما لأبني ولي بجاه رسولك المصطفى.

كانت ناديا مكتنزة، رشيقة، خفيفة ظل، لا تكبر نجاح سوى بسنة واحدة، جميلة الملامح بيضاء البشرة، لبقة، طيبة الخاطر، وجدت فيه سعادتها؛ بعد أن ركنها القدر على رفوف الحزن. فهيَّ تسكن مع والدها العجوز في سكن مشترك من غرفتين، كان نجاح يتردد عليها باستمرار خلال مرحلة التعارف، يتبادل معها المشاعر الجياشة خلسة، وخاصة في أوقات الليل المتأخرة يسرقها من أبنها تحت خيمة الود والغرام والشبق.

لم يبخل عليها في مصاريفها، بل أنه أشركها كطرف أساسي في مطعمه بصورة غير مباشرة، وذلك عندما طلب منها تجهيز المطعم بأقراص الكبة في بيتها لتكون رافدا جديدا للمطعم، إضافة للمردود المادي الذي سوف تجنيه جراء عملها من عرق جبينها دون أن يشعرها بفضله.

تلك العملية قربت أواصر العلاقة بينهما من جهة وبينها وبين عائلته من جهة أخرى، فتغير الوضع من علاقة سرية، لعلاقة علنية تحت أنظار العائلتين.

بهذه المبادرة اللطيفة من قبل نجاح تكون ناديا قد تجاوزت أزمة الفاقة التي كانت تلاحقها في داخل نفسها، تعدت حاجز الخوف من الغد الأدهم. أمنها بالمواد اللازمة، وأقتنى لها آلة

ثـرم وخلـط، وبـين لهـا السـر فـي خلطـة المـواد، وبـذلك أصـبحت صـناعتها دقيقـة. اسـتطاعت أن ترفـد المطعـم بكميـة لا بـأس بهـا بعد أن توسع في عمله وزادت طلبياته...

مـن خلالـه تعرفـت علـى أهلـه وأصـبحت الزيـارات بينهمـا روتينيـة. وكـان قـد أخبـر أمـه وأخوتـه برغبتـه الـزواج منهـا وبخطوبتـه لهـا، وعلـيهم أن يهتمـوا بهـا ويراعوهـا بغيابـه ويحسنوا معاملتها. هكذا تم الجمع على النية والقدر.

الفصل الثاني

1- التحاق نجاح بجبهة الحرب

في عام 1975 كانت الحكومة العراقية قد اتفقت مع شاه إيران مجبرة على التهدئة بين الطرفين وتسوية الحدود والتنازل عن جزء من شط العرب(وهذا ليس من حقها التصرف بحدود الوطن) وتحييد نشاط المعارض الخميني للشاه داخل العراق في مقابل توقف إيران عن دعم حركة الأكراد في شمال العراق التي كانت تكلف الحكومة العراقية مقدار مليون دينار يوميا.

حصل ذلك الاتفاق قبل أن يستلم الخميني الحكم في إيران بفترة اربعة سنوات تقريبا، ما دعاه يغادر العراق ويتجه لفرنسا، لينقل جهوده ضد الشاه من هناك.

تلك الحالة أوَلَدَتْ ضغينة ضد السلطة العراقية من قبل الخميني. لذا حين أستلم السلطة في طهران رد على تهنئته الحكومة العراقية له برسالة مغرضة ختمها بعبارة (السلام على من اتبع الهدى).. تلك الرسالة كانت قد أغاضت الحكومة العراقية والتي فسرت مضمونها بإضماره نية السوء ضد العراق.

أي أما الخضوع لنهجه أو انتظار المصير المشئوم كمصير الشاه الذي فر هاربا من إيران. وكانت بعض الاحزاب الشيعية قد خرجت بتظاهرات في عدد من المدن العراقية رفعت بها صور الخميني ومزقت صور الرئيس صدام والرئيس احمد حسن البكر.

أنا هنا أنقل المشهد الذي حصل بواقعه داخل العراق ومن وجهة نظر عراقية.... تلك الرسالة كانت قد فسرت كإشارة تهديد صريحة وعلنية، تبعها قصف المدن الحدودية العراقية مثل زرباطية ومندلي وخانقين في محافظات ديالى وواسط وقرى في البصرة والعمارة، كما أخترق سلاح الجو الايراني الاجواء العراقية (249) مرة، وكانت مقاتلات العراق قد تمكنت من أسقاط أحداها على الحدود قبل بدأ الحرب فعليا..

كل هذه الاحداث كانت قد وقعت قبل فترة نشوب الحرب بفترة؛ حتى قصف المدن الحدودية في 4\9 \1980 وحتى نشوب الحرب بشكل فعلي في 22\9\1980... بَلغت عدد حوادث أطلاق النار على المخافر الحدودية العراقية والقصف المدفعي الذي طال المدن الحدودية وعرقلة الملاحة في شط العرب وقصف الاهداف المدنية (244) حادثاً، أما عدد مذكرات الاحتجاج الرسمية التي قدمتها الحكومة العراقية للأمم المتحدة قد بلغت (147) مذكره ناهيك عن التجاوزات من قبل الاعلام الايراني بغرض أثارت الفتنة والفوضى داخل العراق.. تلك وقائع نفذتها القوات المسلحة الإيرانية براً وجواً وبحراً حسب ادعاءات الجانب العراقي..

تلك الاحداث كانت سريعة، إذا هناك أحداث جعلت الاستقرار يهتز، سقطت خلالها وجوه قبل أن تسقط القذائف داخل المدن العراقية، كل ذلك حصل خلال فترة 18 شهراً من تاريخ استلام الخميني للحكم؛ حتى زمن قيام الحرب..

على ضوء تلك المعطيات تصرفت الحكومة العراقية وفق ما يتطلب الأمر منها بعد أن تبين لها الشك من اليقين في زعزعة استقرار العراق واسقاط نظام الحكم، على أنَّ رسالة التهديد المبطنة كانت بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير والتي تزامنت مع تظاهرات الاحزاب الشيعية(الدعوة) الموالية لإيران ضد الحكومة العراقية وتغيير الحكم على

غرار ثورة الخميني التي حدثت في إيران. وكانت قد تعرضت فعلا لنائب رئيس الوزراء حينذاك السيد طارق عزيز بمحاولة اغتيال فاشلة خلال زيارته الجامعة المستنصرية. وتلك هي كانت الشرارة التي تنبهت لها قيادة الحكم في العراق قبل بدء الحرب....

كأنه بعد اعتلاءه سدة الحكم في إيران أمسك الخميني بطبشور وصار يشطب دولا من خارطة المنطقة لا تروق له وحسب مزاجه، وأول تلك الدول التي شطبها هو العراق، وأظن أنه تصرف وفق مخطط أُعدَّ له مسبقا من قبل أسياده الذين أوصلوه لسدة الحكم بطائرة خاصة من باريس..

ربما تأمل أن تسقط الحكومة العراقية بنفس الصورة التي سقط بها شاه إيران، وخاصة بعد أن خرجت تظاهرات مؤيدة له ومعادية للسلطة في بعض مدن العراق. حينها أتهمتْ الحكومة حزب الدعوة والمنظمات الشيعية الأخرى السرية المدعمة من قبل ولاية الفقيه في قم وطهران.

وقد لعبت المعارضة على الوتر الطائفي بعد أن مارست الدولة ضغطا ضد الطائفة الشيعية بخصوص تحييد الشعائر الحسينية في أيام عاشورا، بعد أن جعلتها تختصر داخل مساجد الحسينيات. فوجدت تلك الأحزاب فرصتها في تحريك المد الطائفي لإنجاح الثورة..... ذلك ما دعا العراق أن يباغت إيران بقصف مطاراتها وإزاحة قواتها البرية عن خط التماس على جميع محاور الجبهة الممتدة على مسافة 700 كم تقريبا، لتكن حجة دامغة للدولة على حصد الرؤوس المعارضة للدولة قبل أن تستفحل ويقوى عودها- كان ذلك قبل وقوع الحرب بشهرين تقريبا.

هذا ما حصل بشكل مختصر من خلال ملاحظة المشهد العراقي لآلية بدأ الحرب...

بعد انتهاء فترة الأعداد في وحدة التدريب بالناصرية؛ كان نجاح قد سوق إلى قاطع الجبهة الجنوبية وبالذات إلى الفرقة المدرعة الثالثة المتجحفلة مع فرقة المشاة 11، ضمن قاطع الفيلق الثلث في قاطع المحمرة، والتي تُعد آنذاك قاطعا آمنا قياسا للقواطع الأخرى لكون القوات العراقية متوغلة بعمق اكثر من 100 كم في عرض القاطع..

كانت القوات الإيرانية تحاول جاهدة زحزحة القوات العراقية من ذلك القاطع لحيويته كون الاقتصاد الإيراني يعبر من هناك لدول العالم، لاحتوائه على عصب اقتصاد إيران من منابع النفط، فباتت تركز هجماتها على قاطع المحمرة لتجبر القوات العراقية على الانسحاب من القاطع..

كانت القوات العراقية قد توغلت بعمق 100 كم في الأراضي الإيرانية في الجبهات الوسطى والجنوبية، فيما بقيت مرابطة على الحدود في قاطع الجبهة الشمالية، لوعورة التضاريس الجبلية، حيث كانت طبيعة الأرض تتحكم في مستوى التغلغل بالعمق، بذلك أصبحت مدن المحمرة وعبادان وكرمنشاه وأم قصر وقصبات الأحواز وديزفول وقرى أخرى بيد القوات العراقية أو تحت مديات مطرقة مدافعها.

في تلك الفترة سيدت القوات العراقية جبهات القتال، فلا توجد قوة تتمكن من زحزحتها لشدة احتكامها وتحكمها بقواطع الجبهات بشكل عام، ولا يوجد في أذهان الجميع احتمالية شك بسيط بأن هناك غيوم سوداء قادمة في الأفق، رغم العند السائد والتهديدات المستمرة بالفعل والتصاريح من قبل الحكومة الإيرانية. ففي الحقيقة مع كل يوم جديد يمر على زمن الحرب كانت تنبت شعرة جديدة من الحقد والضغينة في وجه وفكر قادة البلدين، كل يوم تنبت ندبة بغض في جسد الرغبة لتشوه وجه السلام، حتى غدت العلاقة بين البلدين مغشية بالنكال والكُرْه والمَقْت التي لا يمكن التكهن بنتاجها.

لقد زاد الوضع سوءًا وتعقيدا في كافة المجالات، وبالذات في موقف الجبهة من الناحية العسكرية بعد إصرار النظام الإيراني على كسر هيبة الحكومة العراقية في نظر الشعب بالتغلغل في الأراضي العراقية ومحاولة إسقاط نظامه. ناهيك عن التراشق المستمر بالصواريخ الباليستية على المدن وبالذات العاصمتين بغداد وطهران.

فالنتوء الذي نبت بجلد القدم كبر بالحك والهرش، صار مسمارا يعيق سير العمليات الفكرية والجهوية ويعرقل مسعى المنظمات الإنسانية التي تحاول إعادة المياه لمجاريها.

كبرياء أيران لا تسمح لها بالتنازل والخضوع لميزان العقل بعد أن تغلغلت القوات العراقية في أراضيها، والتي تعد أقل عددا وعدة ومساحة ونفوسا عنها، فهي تزيد العراق بثلاثة أضعاف في العدة والعدد والمساحة والاحتياط المادي والسلاح، كما أن إصرار العراق على كسر شوكة إيران لمراعاة أمن حدوده وسلامة مدنه أصبح من اوليات عزف قادته فلن يخضع للذل مهما كانت النتائج، ولن يتراجع أمام تطلعات قادة إيران وأهدافهم التي اضحت واضحة في المنطقة.

على مضي سنة كاملة من الحرب كان نجاح يتأمل أن تنتهي الحرب وتنتهي معاناته، كانت قد علقت تأملاته في عنق محاولات المساعي الحميدة الدائرة بين البلدين، تأمل أن يتسرح من الخدمة الإلزامية ليعود لمطعمه وحبيبته، وليمارس حياة طبيعية كباقي البشر.

طال صبره وطالت الأزمة، ما عاد يحتمل شجن الفراق، ولا عذاب النفس تحت خيمة الوحدة، لقد أنغمس في التدريب والتأقلم بساحة القتال على مدى ستة أشهر.. كان قد وعد حبيبته على تكملة منهاجه معها ولم يتمكن من أن يفي بوعده بعد أن رسم لها صورة الغد جنانٌ كجنائن بابل المعلقة دون ان ينجز

خطـوة واحـدة مـن وعـده. كمـا عـدها بمثابـة الملكـة سـميرأميس بالنسبة لـه تستحق العنايـة والجنـائن لتـروق نفسيتها. لينتشـلها مـن الفـراغ المحـيط بهـا، ليكـون بعـلا حقيقيـا بعينهـا ورجـلا يلـتمس خاطرها ورشدها.

لـذا كـان يتأمـل ان يكـون راشـدا بسـلوكه وتصـرفه بنظرهـا ليـتمكن مـن إسـعادها وتطييـب خاطرهـا، ليسـتطيع حمايتهـا مـن الكـلاب السـائبة، كـي يسـتحق أن يكـون جـديرا بهـا وملكـا علـى عرش مملكتها..

كـان قـد أوهمهـا دون قصـد منـه؛ بـأنَّ النجـاة قـاب قوسـين أو أدنـى مـن قـوس المنـال، صـبرها علـى ضـيم لا يعـرفْ مداه وعمقـه وسـدمه، حتـى غصـت قـدماه فـي معمعـة الحـرب دون أن يسـتطع انتشال ذاته من بذاءة القدر.

تلـك الطويـة مـن البـؤس التـي عَمَّـت آفـاق العـراق، أغشـت بروجـه وبرجهـا بـالعجز والملـل، عانـا مـن قيـود الـزواج وتبعيـة الحـرب ومنغصـاتها معـا، بقيـت تتأمـل عودتـه وبقـي يتأمـل حريتـه. هـي بـذاتها لا تـود تكـرار مأسـاة زواجهـا السـابق، خاصـة أنهـا بـدأت تعـيش طـور ولادة حيـاة جديـدة تضـفي عليهـا سـعادة نفسـية، ربمـا سـتكون أفضـل حـالا، ربمـا تكـون اشـد قسـوة وأقسـى ظلما إذا ما تكررت بها المأساة...

فيمـا هـو لا يريـد خـذلانها بعـد أن وعـدها وأوثـق صـلته بهـا.. بالنسبة لها كانت قد تراخت وهدأت مجسات صدمة زوجها مع ارتباطها بنجـاح، وخاصـة بعـد أن وجـدت عجلـة الحيـاة لابـد لهـا مـن أن تسـتمر أمـام معطيـات الظـرف الجديـدة التـي أحاطتهـا، عكفـت علـى المحافظـة علـى تلـك السـمة، عضـت عليهـا بأسـنانها وأظفارهـا كـي لا تفلـت منهـا، كـي لا تفـرط بالفرصـة التـي مـن شـأنها تنقـذها وتنقـذ وليـدها، مـا عـادت تحتمـل صـدمات مروعـة جديـدة تنكـل بهـا. كانـت قـد خسـرت الكثيـر ممـا كانـت تحلـم بـه، وهـا هـي الآن تـود الحفـاظ علـى الرمـق البـاقي مـن العاطفـة مـن

وجهة نظرها.
كان الزمن قد روضها، صبرها على الضيم، فوجدت في نجاح متكأ وملجأ وراحة بال وجسرا ومعبرا لذاتها وإلى حين. ما كان نجاح سوى بلسم دواء عالجت به قروح الزمن، بزغ لها بالوقت المناسب من حيث لا تحتسب، قبل أن تشرع عواصف العنوسة بالهباب في داخل حياتها ونفسيتها. كانت قد استقبلته من باب الود كرغبة، ومن نافذة الحلم كنسمة، بلقائه توقف نزف العذاب، تجدد الأمل في مواصلة مشوار الحياة، حيث كفكف دموعها وإدمان الأرق والقلق الذي كان مصاحبا لها.
كانت في واقع الأمر في حيرة من أمرها بعد أن تقطعت بها السبل، لقد وجدت ذاتها تركض خلف ضجيج الصدى، في نفق التيه، حتى أغشى قدميها سراب نجاة مهول بالوجل، كل ذلك كان قبل أن يطرق نجاح باب قلبها، قبل أن يعيد لها ابتسامة الأمل.
فيما كان نجاح مأسورا بفتنتها، لم تكن في يده حلول ناجعة لرفع مأساتها، كان مجبرا على مجاملتها بنفس الكيفية التي تجادله بها، المصير مرتبط بخيط واه من الحب إلى جانب حزمة كبيرة من خيوط اليأس والدمار الملتفة على عنقه، فالحرب سجال لا يعرف لها ركن ولا أمد.

قوافل الشهداء مستمرة في دفوقها للمدن، فارضة أجواء من الحزن والكآبة على قلوب الناس، بين الفينة والفينة تدخل عجلة لحي ما لتنث على ذلك الحي بؤسا وكمدا لا يستهان به. القلوب واجفة، مرتبكة، ترهبها أجراس الكنائس ونداءات المساجد حين تخطر الأذهان والقلوب الأسيرة بالرهبة، عندما تنبأ بطيف الوجل بوصول شهيدٍ ما للحي.
بتكبيراتها وأجراسها تدعو الناس للتعرف على الشهيد..

تلك الأصوات كانت تتبع قروء الجبهات المحترقة، تمضي خلف الغمام المحملة بقطران الأحزان. أصوات وجلة ترعب طفل الحي والزوجة والأم، تجبل القلوب بالأحزان والمصائب.

قوافل عجلات التكاسي المحملة بالشهداء والموشحة توابيتها بالعلم العراقي توزع حصصها على خارطة العراق بالتساوي، غدت تلك التكاسي وجه شؤم، تصيب الحي الذي تدخله بالهستيريا، فكل البيوتات لها أحد أفرادها على الأقل رابض على جبهات القتال.. ذلك الجزع كان يصيب أهل الحي قاطبة.

الجبهات مشتعلة لا تخمد براكينها، تلفظ حممها على رؤوس المساكين والعزل ممن لا حول لهم ولا قوة إلا بالله، هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يكفوا خطر الموت عن فلذات أكبادهم. المستنقع عائم، طاف بمساحة الوطن، لم يعد هناك شيء مهم في حياة نجاح، شيء يستحق أن يزعل عليه، سوى أفراد أسرته وشمعة قلبه ناديا، والتي لا ينبغي أن تطفأ أنوارها، فهي بمثابة نبض قلبه وسمير وحدته..

عندما ود الغاء فكرة الزواج بها؛ أنما ود أن يدع مصيرها رهن إرادتها وليس رهنٌ إرادة القدر. ففي تلك المرحلة الغير مواتية من حياته، كانت حيرته تكاد تلتصق بالرعشة التي لا تنفك عن يده، فلا يبغي إعادة كرة المأساة مرة أخرى إليها، لا يود أن يترك خلفه برعم جديد يتعلق برقبتها بلا رعاية ولا سقاية كأبنها عامر.

هيَّ كذلك لا تبغي إعادة تجربتها المرة، على رغم من إن الحدث كان قدرا مكتوبا نال من ريعان شبابها، يكفيها ما نالت من تجارب مرة وهيَّ في مقتبل العمر.

الريح الصفراء كانت قد دحرجت كرة الهم لساحات الظن، ما فتأت كبرت تلك الكرة وكبر معها هاجس الرعب، لفت مصيره ومصيرها بقدر مجهول، حيث لم تجدي نفعا محاولات ناديا

في أقناعه بالزواج منها، حثته على الاقدام والمجازفة بإعلان الارتباط بينهما من باب تحديد الالتزام والاتجاه لكلا الطرفين، فيما كان هو يصر على التريث حتى تقف عجلة الحرب. حيث لا يود أن يعيش في ظل قلق دائم، لقد تعسرت القناعة في ولادتها قبل التحاقه الأخير، بسبب كُبر هم الحرب وكدرها، وبعدم استقراره نفسيا وذهنيا.

لقد عجز عن ردم خندق الشتات النفسي، مثلما تربص الفرص في لقائها الأخير، تربص به القدر كذئب جثم على صدر المودة، افترس البسمة من الثغر، غدت للمآسي ندب في الوجه، عكست ألوان الجزع والبؤس على صيغ الحياة.. كان قد غال الزمن بتعسفه، طاف بالهم في أوساط المجتمع مع كل شهيد جديد زف إلى حي، مع كل ورقة تسقط من الشجرة، والذي لم تصبه أسهم العناء كانت قد أصيب بشجن المقربين منه.

العيون جفت دموعها، الحزن لاك الوجوه،، طوية راغت في النفوس، غدت وصمة بؤس وشجن عائمة، صارت الغمام تطوف بجلل الموت في الازقة والشوارع.. مع مرور الأيام عمَّت فوضى الحرب في الأحياء والشوارع، تكاد لا يمر أسبوع إلا وخيمة عزاء جديدة تنصب هنا أو هناك، كابوس جلجل النفوس، زرع الوجس في حشا الغد، بحيث أزف فأل الظن السيء يطغي على الأفكار، يسيح في بؤر الحياة..

القدر لا يجامل أحدا في تشريعاته، يكاد يحل بغتة في الوسط الدبق دون سابق إنذار، لم يعد الموت يقتصر على جبهات القتال فقط، بل أصبح زائرا بليدا يجوب الأحياء والشوارع المكتظة بالبشر، كحافلة نقل الركاب يتنقل من حي لآخر، من شارع لآخر من خلال قصف العشوائي المستمرة للصواريخ الباليستية على المدن وقصف الطائرات النفاثة التي أضحت

منهاجا يوميا للحياة.

عندما يسقط صاروخ ما في حي فقير، يأتي بجام غضبه على المنطقة السكنية قاطبة، يكشط ويردم أفرعا من الحي بأكملها، كما حدث في منطقة الفضل في بغداد، كون معظم تلك البيوتات بناءٍ قديمٍ من آجر القرميد، أبنية تعد من أقدم أبنية بغداد، مهترئة، مضى على تشييدها عشرات أو مئات السنين.

رغم أنَّ الصفير المتبع يزهق الجميع، إلا أنه في لحظة السقوط يحل بالصاخة، لن يدع أحدا أن يتوانى عن حضور محفل قدومه، يصبغ الوجوه بالرعنة والخوف، يودع الرعشة في الأجساد، يهتك الجدران بالتشققات. يعفس بلعب الأطفال وأنفاس الشيوخ بلمح البصر، بحيث تصفر الاجواء من الوجوم وتبخر الرحمة. أنه عادل بظلمه وقسوته وتدميره وحجم خرابه لا يفرق بين أبنا الحي من غني وفقير، يحل متخوما بالرعب والموت..

مع حلوله تحل القارعة، لحظة خنوع تنزع الروح عن الجسد، لحظة توقف التفكير عن نشاطه، أنها لحظة جمود مجردة من الرحمة.. لذا ترى المتاريس تروج فوق البنايات الشاهقة والشوارع، تحتضن المدافع الرشاشة لمقاومة الطائرات المغيرة فمن الطبيعي أن يحضر ذلك الوجل، ولن يتفاجأ الشخص إذا ما أفتقد عزيزا ما بلحظة غفلة، فللموت وقع وكرزمة يهابها الجميع، يهيمن على أفئدة الناس.

2- 29 نيسان/أبريل 1982

كان نجاح قد ألتحق بوحدته في الفرقة المدرعة الثالثة، في قاطع الفيلق الثالث ضمن قاطع المحمرة، وذلك بعد إتمامه فترة الإعداد والتدريب والتأهيل السريع في مركز تدريب الناصرية..

لم تكن الحرب خيار أحدٍ أطلاقا، لأنها ببساطة مؤلمة ونذير شؤم، وفي كل الأحوال هي خسارة للطرفين، وقد فرضت على الشعبين من قبل قادتهم ومن ورائهم دول القرار. بطبيعة الحال الحرب سجال، كر وفر، الغالب فيها مغلوب بحسابات الربح والخسارة والنتائج البعيدة المدى.

مع اشتداد الحرب؛ كان يلوح في الأفق أملا ضعيفا، معلقا بذيل طائرات الوساطات الساعية لإيقاف الحرب، فالأمل يبان للناظر والقارئ لمجرى الأحداث كخيط دخان متعلق بذوائب الشك - ما أن تعصف به ريح؛ حتى يتلاشى ذلك الخيط ويختفي بين درجات السدم الأثيرية...

أضحت العيون النازفة تتبع ذلك الخيط الواهي وهي مدركة بأنه خيط ضعيف لن يقاوم عنجهية القادة. لذا باتت تحلل وتفسر الأخبار، وتطرح النتائج والمعطيات من وحي الخيال الذي تراه، تطلق القرارات في صمت حيرتها وتكوينها من واقعها المر، وأن كانت دون خلفية سياسية ضالعة في أمور السياسة، إلا أن المأساة المستمرة تعلم الشخص فن التقدير والاحتكام.

باتت الناس تدرك الأحداث القادمة قبل أن تقع مصائبها،

مستندة على الوعي المتنامي وعلى ما تفرزه الوقائع المحيط بها وعلى الطابور الخامس المختفي بين المجتمع، فالزمن كفيل بأن يستقطب الفرد الخبرة والدراية نتيجة تكرار الوقائع وتجدد العسر المستفحل..

مع مرور الزمن أضحت الناس لا تعول كثيرا على تلك الطائرات الورقية الدائرة بين البلدين، باتت رياح الحرب تلفها كقصاصات ورق في فتائل افرانها، تلك التي لا تدرك أين تحط قدرها.

تلك الوساطات صرنا نستشعر بها أشبه بالدبابير، لا تتجرأ أن تخترق الحواجز الزجاجية، هي ضعيفة في تكوينها وقرارها، ما أن تقترب من قبس النار؛ حتى تتلاش وتحترق أجنحتها بنار العند. تلك الموجات من الوساطات والتي ماتت قسما منها قبل أن تولد، والقسم الآخر ذبلت وتلاشت قبل أن ينبت لها زغب الريش، قبل أن تبدأ السعي دُقَ أسافين اليأس في نعوشها..

كانت إشارة الرفض تأتي من قبل الحكومة العراقية تارة، وتارة أخرى من قبل حكومة ملاليِ إيران وحسب حجم ثقة كل طرف بالوسيط المتقدم. أحيانا غرور أيران يدفعها إلى التمسك بخيار الحرب، كونها توقعت مع مرور الوقت انكسار العراق ليكون فريسة سهلة أمام انيابها لعلسه وابتلاعه، ذلك لتفوقها عليه بالنفوس والعتاد والمساحة والسلاح حسب التقديرات الورقية..

هذه الوساطات غدت كالشهب في دماسة الليل، ما أن تخطر الناس بنور الأمل؛ حتى تتلاشى وتحترق سريعا في الغلاف الخارجي... كانت الوساطات قد ابتدأت بمبادرة رئيس جمهورية غينيا بيساو السيد أحمد سكتوري، مستغلا منصبه كرئيس لمنظمة الدول الإسلامية آنذاك، معتمدا على ما يجتمع عليه البلدين من رابطة الجيرة والتاريخ والدين المشترك..

أجهضت محاولته بعد أشهر من بدئها، كما أجهضت محاولة تدخل الأمم المتحدة، أو ركنت على الرفوف، تبعتها محاولة ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، مستغلا شعارات البلدين الرنانة بما يخص تحرير فلسطين من قبضة الصهاينة، وهكذا دواليك صارت تلك الوساطات تموت قبل أن تشرع مهامها.

هذه الوساطات كانت أشبه بإبر تخدير للشعبين، تتلاش في الحدق بعد تلاشى الخدر من العصب. ففي الوقت الذي به انتشت روح التفاؤل بين صفوف البسطاء من الناس، شاع يأس بذات القدر بين المهتمين والمراقبين والمثقفين.

لم تكن الأمور تسير على ما يرام قط بين طرفين النزاع، كان العناد يتحكم بالقرار حسب الغاية المرادة والنية الدفينة والمكتسبات بما يوازي العمل والتخطيط، كل يود نيل الظفر على حساب الطرف الأخر. هكذا دواليك بقي الشعب يتحرق على جمر الانتظار، يتأمل فرجا في الأفق يلحق به...

كانت إيران تدرأ الوساطات قبل أن تبدأ بسبب شعورها بالانكسار أمام العراق، الأمر متعلق بكرامتها، فيما كان العراق يدرأها لأجل سرقة تكنلوجيا الغرب التي بات تدعمه من أجل أن تكون لديه قوة توازن في المنطقة، وذلك بعد أن وجد سعيا منها بمساعدته في هذا المجال.

كانت **فرقة المشاة 11** مكلفة بمسك قاطعها في الجنوب بمحاذات نهر الكارون من مدينة الأحواز حتى نهر شطّ العرب، ومن ضمنها مدينة المحمرة. فيما أصبحت **الفرقة المدرعة الثالثة** فرقة احتياطً للقاطع خلف سكة حديد (الأحواز - المحمرة)، مهمتها القيام بالهجوم المقابل في حالة عبور قوات العدو نهر الكارون، لمنعه من الضغط على القطاعات المتقدمة من الخلف، ولمنعه من التسلل لمواضع الفيلق الخلفية

مع سكة القطار..

وقد أعد الموضع الدفاعي بشكل مطمئن، وكانت قد أجرت الفرقة العديد من المناورات في حدود القاطع، لمواجهة العدوان المتوقع، وأفشال سعيه، إضافة إلى أعداد ذاتها للهجوم المقابل، هذا هو أساس مهمتها في هذا المكان.

وفي الضفة الغربية من شطّ العرب، من الجانب العراقي، كانت فرقة المشاة 15 مسؤوليتها حماية شطّ العرب من البصرة إلى الفاو، ومتهيئة كأسناد للفرق المتقدمة، أضافة إلى مواجهة أي تسلل من جانب العدو الإيراني للأرض العراقية.

في ليلة 29 نيسان/أبريل 1982 قامت القوات الإيرانية بعبور نهر الكارون من منطقة القواعد الخمس بين قاطعي الفرقة الآلية الخامسة وفرقة المشاة 11 بشكل مكثف، استطاعت خلال فترة وجيزة تطويق القواعد الخمسة والاندفاع عبرها باتجاه خطّ سكة حديد الأحواز – المحمرة بأعداد مهولة..

فيما سبق كانت قد صدرت الأوامر للفرقة المدرعة الثالثة لمواجهة العدو حال عبوره النهر دون انتظار الاوامر العليا مع التمسك بمواضعها الدفاعية على خطّ سكة الحديد، كي لا يتمكَّن العدو من نشر قواته والاستيلاء عليها. ومن ثم والقيام بالهجوم المقابل لسحقه وطرده، إضافة إلى تدمير رؤوس الجسور التي يقيمها العدو على نهر الكارون.

إلا أن اللواء الثامن الآلي المكلف بهذه المهمة تأخر في واجبه بالوصول إلى مواضعه، الأمر الذي جعل العدو يسبق قطعاتنا وينتشر بشكل كثيف ممسكا أهدافه، ومن ثم صار يتسلّل عبرها ويتشعب بكل الاتجاهات وبأعداد غفيرة وبالذات نحو خطّ الحدود. حتى تمكن من أن يمسك بالسدة الترابية الحدودية الممتدة من كشك البصري حتى منطقة السدة والممتدة بموازاة طريق الشلامجة – المحمرة، كان ذلك خلال الأيام

اللاحقة للمعركة بعد أن تقهقرت وتراجعت قواتنا بانسحاب عشوائي.

لقد انسحبت الفرقة المدرعة الثالثة إلى خلف السدة الحدودية داخل الأراضي العراقية تحت ضغط أفواج حملة القاذفات من حرس خميني، للحفاظ على قوتها الباقية.

أصبح موقف فرقة المشاة 11 غاية في الصعوبة بعد انكشاف جناحها الأيسر (من الجسر الكائن على القناة الحدودية في الشلامجة حتى مدينة المحمرة، بطول 23 كلم تقريبًا)، صار مقرّها غير قادرٍ على إدارة 22 لواءً بأمرتها والتي معظمها في العمق الإيراني بعد ان انقطعت سبل التواصل السلكية واللاسلكية معها، كانت قد حُشدت معظمها على عجلٍ بعد عبور العدو لنهر الكارون واندفاعه نحو الحدود العراقية. إضافة إلى أنه لم تُتح للتشكيلات الجديدة فرصة تهيئة مواضعها أو إجراء استطلاعاتها في المنطقة بعد أن تأزمت الأمور على حين غفلة منها، ولم يكن مقرّ فرقة المشاة الحادية عشرة أو أي فرقة أخرى قادرًا على إدارة هذا الكم الهائل من التشكيلات بعد أن تعرض مقرها الرئيسي لهجوم مباغت.

كان العدو قد استطاع في ليلة 24 -25 مايس [أيار/مايو] 1982 من تطويق مدينة المحمرة بعد أن نجح في اختراق المواضع الدفاعية تماما.

كان الجيش العراقي قد صمد مدة سنة ونصف دون أن يتزحزح شبر عن مواقعه رغم تكرار الهجمات على القاطع؛ إلا إنَّ في ليلة الغفلة حلت القوات الإيرانية كالسيل الجارف من خلف القطعات، لتكتسح ألوية الجيش العراقي بقاطع المحمرة الأحواز قاطبة، وقد اعتبرت خسارة الجيش العراقي خسارة كارثية، لقد أنهار سد العراقي أمام الفيض الإيراني الجارف نتيجة التوقع الخاطئ والتأخر في اتخاذ القرار والمواجهة. لقد

جرف ذلك الطوفان المدهش ألوية وفرق لا حصرة لها إلى وحل الهزيمة، لتتراجع القوات الباقية وتنسحب بشكل عشوائي إلى الساتر الحدودي بين البلدين.

أدت العملية لأسر أكثر من سبعة آلاف مقاتل عراقي ومثله من الجرحى والقتلى دفنوا في ميدان المعركة.

كانت هذه هي أول معركة فعلية يخسرها الجيش العراقي من بداية الحرب، هي تعتبر امتداد لمعركة الشوش وديزفول التي سبقتها بأشهر تقريبا في قاطع الفيلق الرابع المحاذي لقاطع الفيلق الثالث والتي تكُبدت بها القوات العراقية خسائر في الأرواح والمعدات، كانت قد تمكنت خلالها القوات الإيرانية من إزاحة الجيش العراقي مسافة 30 كم تقريبا...

كانت هذه المعركة هي الأقسى على مدى فترة الحرب التي دامت ثمانية سنوات عجاف، لا بل تصنف بالفادحة من الناحية العسكرية؛ حيث أنسحب الجيش العراقي من عمق يزيد عن 100 كم، وخسر معظم قواته التي يستند عليها، فأسر من أسر، وقتل من قتل. فلم يستطع العراق تعويض خسائره المادية والبشرية التي تركت أثرها على مدى سنين الحرب الباقية، وتقدر الخسائر بربع الجيش الحقيقي.

لم يتوقع أي قائد عراقي من أن يتمكن الجيش الإيراني من التوغل عبر نهر الكارون (والذي كان يحيط قطعات الجيش العراقي من الجهة الجنوبية الشرقية كمانع طبيعي يحفظ القوات العراقية من المداهمات الإيرانية). لكنها تمكنت من عبور النهر بقوة هائلة بعد أن نصبت مجموعة كبيرة من الجسور العسكرية على النهر..

كأنَّ الجيش العراقي كان غافيا وغافلا عما يجري في تلك الفجوة التي قصمت ظهره. لم توضع موانع حقيقية أمام تلك الفجوات، على اعتبار أن المانع النهري لنهر الكارون يفي

بالغرض. لذا كانت أغلب القوات العراقية المتمركزة في القاطع ضمن منطقة العبور؛ هيَّ من وحدات غير قتالية من طبابة وهندسة عسكرية وجيش شعبي، ووحدات وتمويل ومراكز تموين الغذاء والعتاد، زائدا قوة بسيطة من المشاة.

كان الرأي بأنه إذا ما فكرت القوات الإيرانية بعبور النهر، إنما تجازف بعملية انتحار أكيدة.

لكنها جازفت وتمكنت من مد الجسور وأتممت عبور قواتها بأعداد مهولة غير متوقعة، على مستوى فرق وألوية، تمكنت من السيطرة على القاطع وتغيير نتائج المعركة لصالحها، بعد أن تمكنت من المحافظة على عملية الغش والاختفاء بشكل جدي وممتاز قبل الهجوم.

ساعدهم على ذلك ثقة القوات العراقية المفرطة في أنفسهم، والتخبط الذي حصل جراء تغلغل القوات لمسافات شاسعة في الأراضي الإيرانية والتي تتطلب أعداد كبيرة لملىء تلك المساحات الشاسعة بقوات تسد ثغرات الجبهة الممتدة على طول الحدود والتي تزيد عن 700 كيلومتر.

بعد أن توغلت القوات المهاجمة خلف القطعات العراقية؛ لم يستطع الجيش العراقي من معالجة الموقف في إيقاف مد الزحف الإيراني أو ردعه لعدم وجود صورة حقيقية لموقف العملية الحاصلة، لعدم درايتهم عن نتائج المعركة بعد أن قطع الوصل بهم، حيث توسعت رقعة أنتشار القوات المهاجمة على رقعة مساحة شاسعة لا يمكن السيطرة عليها، فتمكن من استعادة مدينة المحمرة بعد محاصرة القوات العراقية المشتتة في تلك المعركة وأسر معظم قواتها.

تخبط الجيش في انسحابات عشوائية أدى إلى الفوضى، كما تخبطت قيادة الفيلق في معالجة الموقف وخاصة بعد انقطاع خطوط الأمداد السلكية واللاسلكية بين القيادة والقاعدة مع تلك الألوية.

تلك التخبطات التي حصلت من قادة الفرق والألوية وضعت القيادة العسكرية في موقف لا تحسد عليه، باتت لا تعرف حقيقة الموقف على الأرض وكيفية التصرف. تجرد الجيش العراقي من المبادرة، صارت الفرق والألوية تحاول لملمة فصائلها والتحصن على الحدود، لألا يمتد الزحف الإيراني سريعا إلى مدينة البصرة، عصب العراق النفطي.
كان العدو قد هاجم مواضع الفرقة 11 الدفاعية من نقاط عدّة على طول السدة العمودية التي كانت تشغلها تشكيلات الفرقة، وتمكَّن من اختراقها في بعض النقاط، إلا أن الجهد الرئيسي للهجوم كان باتجاه ميناء المحمرة لعزلها عن باقي قاطع الفرقة وتطويق القطعات المدافعة عنها. واستطاع العدو في ليلة 24 - 25 مايس [أيار/مايو] 1982 تطويق المدينة بعد أن نجح في اختراق المواضع الدفاعية للواء الشرطة العاشر في شمال المدينة، وقاتلت القوات المدافعة عن المدينة ببسالة إلا أن ذخيرتها كانت قد أشرفت على النفاد بعد قتال شرس استمر لصباح اليوم التالي.

في تلك المعركة كان نجاح مكلف مع حضيرته المدرعة التابع لكتيبة دروع الفرقة الثالثة بالتهيؤ وأخذ الحيطة والحذر مع زملائه المنتشرين خلف السدة الترابية على بعد كيلومتر من السكة الحديدية التي تربط مدينة المحمرة بالأحواز، تلك التي تركز عليها اندفاعات القوات الإيرانية عبر نهر الكارون بزخم كثيف جدا.
خلال محاولته استطلاع الموقف الخارجي بعد أن بات دوي الانفجارات يقترب منهم دون أن تكون لهم فكرة أو دراية واضحة عما يجري من حولهم تحت جنح الظلمة، دون أن تكون لهم معرفة عن الوضع العام الميداني السائد للجبهة، لانقطاع السبل بهم حيث عمت الفوضى في أرجاء القاطع

بشكل عام وعبثي.

وقبل أن يهيئ نفسه وزملائه للمواجهة أو للهرب، كانوا قيد أحيطوا بمجموعة من حملة القاذفات من الجنوب والغرب، فيما هجسوا بشبح الفوضى في صفوف قوات عراقية زاحفة نحو الحدود على الشارع العام، وذلك جراء اشتداد القصف المدفعي والصاروخي على القطاعات الخلفية، لم ينقطع هدير القصف طوال فترة الليل وطلوع الفجر.

القصف أضحى يتجول في الميدان وبين القطعات دون أن يتمكنوا من تحاشيه وبيان مصدره، على خلاف طبيعة الجبهة التي يعرفونها ويعرفون هدوئها؛ لقد التمسوا شرر نيران القصف وهي تلاحقهم من الخلف بدلا من أن تكون من الأمام، ذلك الذي زرع الرعب في قلوبهم. لم يتم إبلاغهم عن حقيقة الموقف، لأن الفوضى جعلت الجميع في سكرة من أمرهم، لا يعرفون حقيقة الموقف مع انقطاع الخطوط السلكية. لقد ضاع رأس الخيط وأصل الحقيقة على القيادة والقاعدة..

فيما سبق كانوا على دراية تامة بتحشدات القوات الإيرانية على القاطع المراد استهدافه، وعن إمكانية المباغتة التي يوشك العدو القيام بها. إلا أنهم في هذه المَرّة اختلطت عليهم الأوراق، فلم يتوقع أحدا منهم بأن يأتيهم العدو من الخلف، أن يتمكن من عبور نهر الكارون بزخم كبير. فلو عُدَّ للخلل بشكل جيد، لو عولج أمر العبور في بدايته؛ لما كان فلح ونجح في توسيع رقعة الهجوم، لصعب الأمر تماما على القوات المهاجمة من تخطي الحواجز والمواجهة والعبور، لأصبح النهر مقبرة لقواتهم، لتكبدوا خسائر جسيمة تمنعهم من المجازفة مستقبلا..

لكن شاء الله ما قدر وفعل، فأصبحت الحرب سجال بين كر وفر حتى توقفت بعد أن هلك الجميع دون تحقيق مآربه.

كانت القوات المتواجدة في خلفيات القاطع قوات صغيرة، ضعيفة، معظمها قوات لوجستية غير قتالية، لم تُعد للمواجهة

العسكرية. كما أن تلك البقعة تعتبر بقعة ميتة من النظرة العسكرية، لذا لم يكن تركيز القيادة العسكرية منصب عليها، ومعظم القوات المتواجدة هي قوات تعبئة وأسناد للقوات المتواجدة بالعمق الإيراني وعلى مسافة تزيد عن 120 كم.

بالأحرى تلك القوات تحمل الصفة اللوجستية من طبابة وهندسة وتموين وجيش شعبي، مهمتها تمويل القوات الرئيسية الرابضة في المقدمة بحاجياتها، مضاف إليها مراكز مواقع القيادات التابعة للقوات المتقدمة، أضافة إلى بعض ألوية الإسناد المنتشرة على مساحة شاسعة تبتلع فرقا كاملة في غور أراضيها، لتكون قوة ردع وإدامة في حال تعرض القوات المتقدمة لهجوم عارض.

على أية حال أصاب نجاح وحضيرته الحيرة والفزع جراء سقوط قذائف بالقرب من مدرعتهم دون أن يعرفوا حقيقة الموقف والخلل الطارئ في خلفيات القطاعات. أصبحوا في تيه من أمرهم. كانت قد سقطت أحدى قذائف المدفع الثقيلة على بعد أمتار من ملجئهم، تعدت خطورتها لكنها كانت إشارة صريحة لتقدم القوات الإيرانية إلى مواقعهم.

تلك القذيفة تركت في صفوفهم رهبة وخيفة، ما دعا نجاح إلى تهيئة زملائه لترك المكان والانسحاب باتجاه الشمال. طلب من زملائه الاستعداد لذلك. كانوا قد شعروا بالفوضى تحيط بهم، ودوا لملمة الأمر والوصول إلى الشارع العام الذي لا يبعد عنهم سوى مسافة أربعة كيلومترات ليدركوا الحقيقة من القوافل المزدحمة فيه، في ذات الوقت لا يأبون ترك الموقع المحصنين فيه دون أمر من قيادتهم، خوفا من أن تلصق بهم صفة الجبن والخذلان والخيانة ومن نيل عقوبة الإعدام.

لقد تقطعت بهم السبل، بعد أن قطعت خطوط الاتصالات السلكية واللاسلكية على حين غفلة، وقبل أن يعدوا انفسهم ويهموا بالهرب أصيبت مدرعتهم بقذيفة آر بي جي 7 وهي في

موضعها، كما أصيبت دبابة أخرى على مرمى البصر منهم، أضرمت النار في عدد من الدروع هنا وهناك.. خرجت الدروع من المعركة، تحولت المعركة لمعركة مشاة، لم يجدوا وسيلة للهرب ولم يتمكنوا من المواجهة، اشتدت عليهم نيران الغضب، وجدوا أنفسهم محاصرون في ملجئهم، حيث لا مجال للهرب.

حينها باغتتهم قذيفة أخرى أكثر دقة وقساوة ورهبة من الأولى، أنذرتهم بصفيرها الموحش، بقدوم الخطر قبل أن تجترهم من نواياهم، قبل أن ينجدوا ذواتهم ويهموا بالهرب، أجبرتهم على النكوص في زوايا الملجأ، تأملوا السلامة وهم مجبرون على تحاشي غيضها وغضبها، رهبتها حثتهم على النكوص ونطق الشهادة والانزواء خلف وشاح الرحمة بالأدعية المتهللة بأشداقهم، هربا من نذير شؤم معلق بصفير القذيفة الموحش. أصبح لدى المقاتلين خبرة تامة بواقع القذائف الساقطة.

أنها قادمة، أنها قاتلة، مميتة، تتقصدهم، ها هي تقترب من هواجسهم. زموا على الشفاه في أماكنهم، أنها رعناء، حف صريرها أمر مقلق من الفزع، شتت الأذهان، ها هيَّ تقترب. تقترب، ما هي سوى ثوان حتى جاءت بالصاخة. الكل صار ينادى: يا لله ... يا ساتر... يا رحمن... يا رحيم.. الطف بنا.... مع لحظة شروع سقوطها؛ كانوا قد أجبروا على النكوص والصمت.

وووووووو... ببببمممم.....

نزلت عليهم كالصاعقة دون رحمة.

لقد سقطت على زاوية من الملجأ، بسقوطها كانت قد قضت على رفاقه جميعا، أنها الصاخة التي أنهت حياتهم، بعد سقوطها انقطعت اصواتهم ودعائهم وتبددت الهواجس، ساد الصمت لبرهة وسط ذلك الطنين الذي بقي يدور في ذهنه

ومحيط الملجأ بترددداتها المفزعة. كانت القذيفة قد ابتلعت همسات رفاقه وترانيم أصواتهم، أضحى السكون مطبقا على ساحة الحدث، أخرستْ الأفواه، تلاشى الأنين تماما.

مع سقوط القذيفة الكل أطلق صرخة رجاءه الأخيرة... كانت قد سقطت القذيفة على الركن المقابل لباب الملجأ المبني أشبه بمكعب بطول 3×4 ×2. ساد صمت مطبق، لم يبقى سوى ذلك الخرش الدائر في الذهن، ذلك الصوت المزعج الذي يتغلغل في الروح كسكاكين حادة، صوت لا يشبهه صوت إطلاقا بحيث يشطر خلايا الدم، لا تحتمل زعيقها أذن، لزنها تشرخ خلايا الذهن والقلب، تفيض بسكرات الموت...

بسقوطها كأنَّ الصاخة زلزلت الأرض بهم، أخذت طنين الشظايا تشتط بالأجواء كسيوف طائرة تلاحق ضحاياها بغل صليلها. مع سقوطها كانت قد ارتعشت الأرض، رجت، ربتت، ذرت زفير عصفها وخطلها لعنان السماء، خالط غبارها دخان القذيفة الأسود، ذرت لون الفزع في العيون مع تباشير الفجر.

الغبرة المندسة بالدخان زادت من شجن الأجواء هلعا وسخطا، رائحة البارود أغشت الأنفاس، كشطت بقايا الأوكسجين من الملجأ، الكل أختنق في جوف الظلمة والعناء.

تلك القذيفة أصابت أفراد الحضيرة بإصابات قاتلة، إلا نجاح؛ كان قد أصيب بشظية كشطت جلد بطنه وأخرى زلخت ذراعه الأيسر، فيما أصيب بجرح فوق حاجبه. جميع رفاقه سقطوا كركام بعضهم فوق البعض. الإصابات والفزع وصوت القذيفة أفقدته الوعي لبرهة، كما الغبرة أغشت انفاسه وبصيرته.

كان جو الرعب سائد بين المتواجدين في الملجأ قبل سقوط القذيفة، اجتاحت النفوس فوضى، غمرتهم بسكون قلق مفزع. ما أن أبتلع الأثير صوت الانفجار؛ ماج تَأَوَّهَ سكرات الموت، سرعان ما أنقطع الأنين، لقد حلت الكارثة بهم، لم يستطيعوا أن

يهموا بالهرب قبل أن يلقفهم الموت، كانت القذيفة قد سبقت ساعة الرحمة بـ ثوانٍ فقط، هذا التسابق بين الحياة والموت لم يكن يخطر ببال أحد منهم.. كان نجاح قد فقد وعيه فترة لا تعرف مداها نتيجة الصدمة والجرح...

الملجأ مظلم لا يستطيع الحركة، كانت الصدفة قد حمته من الموت حين كان يود استطلاع حالة الوضع السائدة خارج الملجأ، فانزوى خلف باب الملجأ، قرب فتحة الخروج. فيما القذيفة كانت قد سقطت في الزاوية البعيدة عنه من الملجأ. وما أن عاد له وعيه حتى صار يرتعد من رائحة الدم والبارود، يرتجف خوفا من الموت، صار يبكي وهو ينادي على زملائه:...

- أحمد – حسن- شكر- عمر- عدنان، لم لا أسمع أصواتكم، هل أنتم أموات، أين اختفيتم؟ ها أنا قد أصبت بجروح، إلا من يساعدني؟ أبغي المساعدة... هل تمكنتم من الهرب؟..

لا أحد يجيب. كل غارق في صمته.

شعر بدنوا أجله، أنها النهاية، لا يعرف عمق جراحه، شعر بدفق الدم المراق من بطنه وكتفه، حينها كان قد سهى للحظات بصور أمه وأخوته، تذكرهم، تذكر ضحكاتهم وأحاديثهم الشجية، التمعت عيناه بالدمع حين طرقت أذنيه ضحكة ناديا.. يا إلاهي أنها طيبة، مسكينة، بريئة، علقت آمالها برقبتي، أين ستمضي بعد أن أمضي لحتفي.

لازال عصف الغبار يشتط برائحة البارود الذي ملئ صدره والملجأ، أختنق بتلك الغبّرَة التي أغشت المقل، فيما لا ينفك عن ذهنه خشخشة دوي انفجار القاذفة التي تجزل المخ، تلك التي صكت أذنيه، جرشتهما برنين الطنين المفجع. يكاد ذلك الزعيق لا يتزحزح عن صِوان أذنيه..

بقي يصارع الوحدة، يعاني من الألم، أصوات الانفجارات

فـي الخـارج لا تنتهـي صـخبها وزعيقهـا، تزيـده قلقـا ووجعـا، لا تنفك عن ذهنه، كأنَّ موسم البطش والقتل والحصاد قد حل بهم.

الوضـع غـامض وكئيـب لا يُعَـرّف نفسـه، لازالـت الـنفس تائهـة بـين العصـف الـدائر والفـزع والخـوف مـن الجـرح النـازف، بـين غيـاب زملائـه والوحـدة التـي يعـاني منهـا، يـا تـرى ..مـاذا جـرى لهم؟

لازال الجـرح ينـز دمـا مـن بطنـه، وآخـر يقـرص ذراعـه الأيسـر، لا يَعـرف مـدى عمـق الإصـابة، لازالـت المفاجـأة تغطـي على ألم العصب.

لـم ينفـك عـن مناجـاة أصـحابه، ظـل ينـادي علـيهم دون أن يسـمع جوابـا مـنهم. ألـتمس جرحـه، أنـه جـرح طفيـف، لا بـد مـن إسـعاف نفسـه.. جـرد فوطـة قطنيـة بيضـاء مـن جيبـه ربـط بهـا ذراعـه كيفمـا شـاء، ثـم تمكـن مـن الزحـف إلـى أحدى الفرش، أمتـد علـى جانـب منـه، لا يسـتطيع الضـغط علـى عضـلاته خوفـا مـن أن يتـدفق الـدم، بـات يمضـي بحركـة انسـيابية زاحفـة، محـاولا أن يتمسـك بوعيـه حتـى يـدرك فرشـته، تمـدد عليهـا، اسـعف بطنـه بقطعـة قمـاش. واضـعا المخـدة علـى موضـع الجـرح، حضـنها بسـاعديه. ثـم أخذتـه إغفـاءة دون أن يـدرك أمـد إغفاءتـه أو فقدانـه الوعي.

الفوطـة الصـغيرة أحـتفظ بهـا للحظـات الحرجـة، أنهـا منـديل حبيبتـه ناديـا، معبئـة بأنفاسـها العطـرة، لابـد أن يكـون لهـا تـأثير إيجـابي علـى الجـرح، طالمـا تحمـل عبـق المحبـة. حيـث بالحـب تـدام الحيـاة، لابـد أن يكـون هـذا المنـديل الـذي تلطـخ بدمـه بلسـم نـاجع يلـم جرحـه، كانـت قـد أودعـت منـديلها لديـه خـلال لقائهـا الأخير في الكاظمية.

عـاد لوعيـه بعـد فتـرة وجيـزه، كـان النـزف قـد خـف أو توقـف، أمـل نفسـه خيـرا، أنشـغل بذاتـه المتعبـة بعـد أن فـاق مـن غيبوبـة.. كانـت قـد راودتـه حـالات الإغمـاء عـدة مـرات للجـوع والعـش

الـذي اصـابه، سـرعان مـا كـان يسـتعيد وعيـه، ربمـا كـان الهلـع والخوف يدلقانه لتنفس القلق باستمرار.

المهم أنـه لازال حـي يـرزق، لازالـت الـروح متمسـكة بالجسـد وهـو متمسـك بهـا، لـم يـذعن لصـوت القـدر ولا لإطلاقـات جنـود العـدو، لكنـه كـان متعبـا، مرهقـا. صـار يسـتعين بالشـهيق ليسـتعيد لذاتـه وعيـه، لابـد مـن مواصـلة الحيـاة، لقد تمسك بأمـل العـودة مـن جديـد، حينهـا تـذكر أصـحابه، صـار يبحـث عـنهم بـين ثنايـا تلـك الغبرة التي خفت حدتها مع الزمن.

كـرر مناداتـه علـى رفاقـه، لكـن صـوته لـم يـدرك وعـيهم، لـم يطـرق طـبلات آذانهم، شـعر بـأن صـوته غـدى أقـل حـدة مـن المـرة الأولى، كما أصيب نظره بعشو ليلي...

...عـدنان؛ رد علـيَّ يـا صـاحبي...أين أصـبحت؟ لـم لا تـرد؟.. لـم جئـت تزورنـا فـي أوقـات الشـدة؟... مـن أرسـلك إلينـا؟ حظـك العـاثر أم قدرك؟..... أنـت يـا حسـن، يـا أبـو الغيـرة يـا طيـب يـا أبـن البصـرة الأبيـة، لا أنسـى ضـيافتك وكرمـك لـي.... لـن أنسـى والـدتك الحنونـة وهـي تقبلنـي مـن رأسـي وكـأنني أبنهـا.... أيـن صـرتم يـا رفـاقي؟ أيـن أصـبحتم؟ تـرى هـل هجـرتم المكـان؟ ...هـل هـربتم وتركتمـوني وحيـدا؟.... رد أنـت يـا شـكر يـا أبـن كركـوك يـا طيـب وحنـون، أخلاقـك لا تسـمح لـك تركـي وحيـدا، حـين أصـبت بقشـعريرة كنـت أكثـر مـن تلطـف علـيَّ ودارى ألمـي، أيـن ذهبـت؟ رد ولا تقـاطعني، لا أظنـك تركتنـي، هـل أصـبت مثلمـا أصـبت أنـا؟

أين أنتم يا رفاقي، أين اختفيتم؟....

لا يمكن أن يكونوا قد هربوا وتركوني وحيدا.

وأنـت يـا عمـر يـا فتـى ديـالى؟ هـل ذهبـت وتركتنـي كمـا ذهبـوا؟. أحيانـا تصـرفات الإنسـان لا تحسـب عليـه وخاصـة فـي أوقـات الشـدة، ربمـا لا يـتحكم بعقلـه، أو يكـون تحـت قـدرة اللاوعـي فينسـى نفسـه، محـاولا درء الخطـر والخـوف عـن

نفسه.... لكنك يا عمر أعرفك شجاعا... أعرف سماتك، لست جبانا لتهرب... لن أنسى كلمات الشكر بحقك حين أنقذت حيدر من ساحة القتال وأنت تحمله على ظهرك رغم الرصاص والمنهل عليك كالمطر، كنت صاحب غيرة ونخوة..

للحظات أستعاد وعيه، كانت قد تلاشت الغبرة ونثار القصف، صار يتمكن من الحركة البطيئة والرؤيا. كأنه حين أفتقد وعيه كان قد أصيب بعمش وقتي، وحين أستعاد وعيه صار لا يميز ما حوله، بات يبحث عن رفاقه، ساعده ضوء خافت ينسل كهباء متداخل عبر كوة الملجأ والشق الذي أحدثته القذيفة في سقف الملجأ، ساعده على الحركة، ذلك الضوء حرك في داخله مشاعره، جعله يستنبط عزيمته ويحلل ما حوله. أدرك بأن هناك خسفٍ في سقف الملجأ من الزاوية المقابلة للمخرج، التمس الكركبة الحاصلة داخل الملجأ وكأنه طُمِرَ بكيلة من التراب. من خلال تداخلات الهباء وانكساراته أضحى يتحسس وجوده، أعطي لذاته فسحة من التصور والتمعن والتنقل ببطء الحركة، تبين له أركان الملجأ.

القذيفة اخترقت الزاوية الخلفية، فتحت فيه بوابة أخرى، صار يزحف باتجاهها على ساقيه رويدا رويد، يا رب أسعفني! هل هؤلاء موتى أم أحياء؟ صار يكلم نفسه، يرتعد من الخوف، أنهم رفاقه الذين عاهدوه على المصير، آزروه بالثقة المتبادلة، بالوحدة وعدم الإخلاء به وبالوطن.

نادى على جثة قريبة منه.. يا أخي أصحى، من أنت؟.. أنت عمر.. يا عمر...يا عمر رد عليَّ!....دون أن يجيبه، شاهد عمر مخضب بدمائه، مصاب في صدره لافظا أنفاسه... لا إله إلا الله...صار يسبحل ويتحوقل مع ذاته. سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

التفت يمينا وجد حسين منكب على وجهه عرفه من صلعته، لا إله إلا الله. الرحمة والغفران يارب...ها هي جثة

أخرى لا تعرف معالم وجهها، أنه عدنان... زحف للأخرى، قلبها...الله وأكبر.. أنها لشكر. باتت دموعه تنهمر..

بات يلتفت يمينا ويسارا، يرتجف حزنا واسفا، مخذولا، مهزوما، الدمع كفكف مقلتيه، بات يأن وهو مرتبك، حائر، لا يستطيع الحركة، ألم دفين يسرى في بطنه وذراعه.

هذا آخرا مذبوحا من الشريان، مغطى بالأتربة، لا إله ألا الله، صار يأن والدمع أغشى بصره ووجنتيه، رفاقه تركوه وحيدا، هاجروا دون أن يودعونه، أخلوا بعهودهم. فكوا شراكة ارتباطهم معه التي تعاهدوا عليها...

لكن أين هم رفقائنا الآخرين؟ أين مجموعة الإنقاذ والقوة الرادعة؟.. لِمَ لمْ ينتشلونا، ينقذونا؟ أين مجموعة الإنقاذ؟ لمَ لا يأتي أحدا منهم لإنقاذنا. أين ذهبت القوات العراقية؟...أين؟ أين؟ هل غادروا دون أن يلاحظ أحدا منهم عصف الانفجار الذي أصابنا؟ ونار المدرعة المحترقة. هل هربوا من ساحة القتال؟ أم أصيبوا مثلما أصبنا؟ نحن في خلفيات القطعات، نبعد بحدود 120كم عن الجبهة! كيف وصل إلينا العدو؟ هل فعلا خسرنا المعركة؟

لا لا يمكن أن يكون الحال هكذا، منذ سنة ونصف وقواتنا رابضة هنا، تجيش في الأرض كالدبيب، تملئ الميدان والفضاء. أين ذهبوا كل تلك القوات؟...

أخذته الهلوسة لصفحات التساؤل والاستفسار. هل، هل، هل من المعقول؟ لِمَ....؟ لمْ ....

كأنهم لم يشاهدوا الدخان وهالات الأتربة التي تصاعدت داراتها كالجبال، الأجواء شبه مظلمة، مغشية بعصف أتربة الدروع والعجلات، والتي علت سحبها لعنان السماء، أين ذهبوا هؤلاء؟

الإرهاق سيطر على فكره، الضعف أنتشى في جسده،

هجس بقواه تتلاشى، تضمحل، أضحى أشبه بجدار آيل للسقوط، تراخت أعضائه تماما، أخذته الغفوة في مكان رقده وهو ممتد بين جثث رفاقه، لم تعرف مداها.. تداخل الإرهاق والخوف والنزف بين ذهنه وقلبه حتى غار في إغفاءة، هجس برجفة، أنها الكارثة قد عصفت بهم، جعلتهم أشلاء متناثرة بلحظة غفلة.

كان من الممكن أن يكون من ضمن الضحايا لو لم يبادر إلى محاولة استطلاع الموقف الخارجي. لذا تجنبته الشظايا بأمر من الله، كان سعيد حظ حين تجنبه القدر، حين ود أن يطلع على ما تؤول إليه أصوات الانفجارات، أن يعرف ماذا يجري من حولهم وفي محيطهم..

في تلك اللحظة من الغبش، وقبل أن يئم بالخروج من دهليز الملجأ الملتوي، شاهد مدرعته قد أصيبت وهي في موضعها، حاول الخروج لتدارك الأمر؛ لكن صفير القذيفة منعته، أراد تجنب قدرها فانزوى خلف باب الملجأ، ذاك ما أسعفه ونجاه من غل القذيفة..

لحظات حرجة، لم تسعفه أن يتحاش العصف كليا، تفاجأ بزخم الدوي وشدة الانفجار الذي هز الملجأ، الانفجار خلخل فضاء المكان، ترك رهبة في النفس، جرش خلايا الذهن. يكاد رنين الانفجار لا ينفك عن طبلات أذنيه، خرتت الأحاسيس والمشاعر.

في الحقيقة في لحظة الانفجار يفتقد الشخص صلته بالعالم الخارجي، فلا يسمع سوى الرنين وصداه الذي يجلجل الذات، يتحول لحالة هستيرية دون إرادته، يتملكه الهذيان، ينسى محيطه وذويه، لا يفكر سوى بانتشال نفسه من صخب القارعة.

في حقيقة الأمر؛ جلجلة صوت الانفجار لا تحتمل، العصف والزعيق الحاصل يفوق طاقة الإنسان، يجرش خلايا الجسد،

يدمج الوجود بالموت.
لشدة الانفجار؛ ينتقل الفزع من المخ إلى القلب، يتحول لكرة نار تحمص خلايا الجسد، تبدد المشاعر، تنتقل بالروح من حالة التكهن لحالة الألم، بحيث يمر ذلك الهاجس عبر العصب لخلايا الجسد فيشلها، فينسى الإنسان نفسه..
حالة لا تحتمل ولا توصف إطلاقا، بحيث تصيب من الجسد ما لا تصيبه الشظايا ذاتها، يشل، تذل من عانده حظه، تهوي بالعزم الذي لا يلين..
الدهليز الصغير الملتوي المؤدي للمخرج رأف بحال نجاح، أنقذه من شر الشظايا العمياء، ربما كان لدعاء الأم والحبيبة أثرٍ وسحرٍ جنبه الويل، أغدقه بالسلامة، ربما لحكمة ما أرادها الله أن تتم حلقاتها.

استسلم للقدر الذي داهمه على حين غفلة من أمره، شعر بقرب أجله، لحظات سريعة مرت على باله، تذكر بها أخوته وأمه المسكينة وأبوه المتوفى، تذكر حبيبته، هجس بالموت يدور قربه، هجس بروحه أضحت تراوح بين البقاء والرحيل، وها هي متشبثة بخيط رفيع من الحب.
ذات يوم كان قد سمع حكمة رجل عجوز أمَام مطعمه حيث قال له: ...
- من تجاوزه القدر سلم من الخطر..
وحين سأله كيف تحكم بذلك قال:...
- لأن الله يود إبقائه لغاية لم تحن بعد.
حينها تذكر قول الحكيم، شعر بطمأنينة، في الوقت الذي به طوق فؤاده حزن سمج كحل عينيه بالعناء والوجل وهو يرى رفاقه مضرجين بدمائهم دون حراك، أنه قمة الرعب والتحدي الذي أحيط به، شعر بخُطى عزرائيل تدور قربه، أصابته حالة هستيرية مزرية، عقيمه، لا أمل بارق يسعفه أو يعينه، هجس

وكأنه يهتز في مهده بين الحياة والموت.

أخذته صفنة قصيرة طافت به بين لهفة الشوق وسقم الفراق، لم يعد يسيطر على وضعه كما سبق، خشونة الخوف غلبت على نعومة الصبر، ضعفت إرادته، محق حلمه ورويته.

صمت مدوش طرق ظنه، زعزع يقينه، لم يعد يمتلك قدرة على المقاومة، ولا فكرة تعينه على الثبات والصمود أمام هول المجهول القادم المحيط به. لا يستطيع الهرب ولا يأبى الاستسلام، أنها عقدة شائكة....

أن طالت الحالة ربما لن يحس به أحدا من الرعية، أنه لا يسمع أصواتا في الخارج كما في السابق، ربما هرب الجميع أو انسحبوا للحدود.. آجلا أم عاجلا سيلتحق برفاقه، ستتفسخ جثثهم دون أن تطرق بابه فرقة إنقاذ..

شاغلته تلك الوساوس، دارت في راسه كعزف الرحى لا يعرف الاستقرار... جالت بمخه أفكار غريبة، مشبعة بالتناقض، تخللت ذهنه وساوس خوف كسيل الماء، ما أن يمسك بإحدى المحاور حتى يتحول لأخرى، لا يقين يغيثه ويعينه.. تنقل بين احتمالاتها المبهمة، لحظات إرباك طرقت أحواله ومصيره، وهو يسمع مطارق الموت تطرق صفيح القدر، تزرق ظنه بخزعات اليأس..

تنقل به الإرهاق من لحظة السهو للحظة النسيان والضياع وفقدان الوعي، بات يغشيه بالكرى، غفى غفوة قصيرة وهو يجيل النظر بين وهدة العذاب وفقدان العزم والقرار. لسعة المرار تتجدد عليه، تجرده من التفكير والحلم، تجرد من كل شيء ملهم وسوي سوى عقله الباطني الذي بقي يتجول بدهاليز الذاكرة، أضحى كموجة ما أن تدرك شاطئها الصخري حتى تتلاشى في بحر ظنه.

لم تدم غفوته طويلا، ما أن أغمضت عينيه؛ حتى فز على وقع أثر حلم عابر تمكن منه، سلبه وسنه، هجس بوالده

المتوفي قدم إليه وهو يمتطي فرس شهباء، مرتديا رداء فضفاض أبيض اللون كفارس همام، كأنه شَعَرَ بـ محنته فجاء ينتشله من كربه، ينقذه من كبوة ألمت به. جاء يحذره من قيد التكاسل والتشكيك بقدرة الله، جاء يفك عنه كربه قيد الاستسلام الذي تقيد به....

قال له بصوت أجش، وبلكنة الأمر:....

- قم أسعف نفسك، أربط جرحك، أنقذك الله من قبضة موت حاق بك لغاية ستراها آجلا بعينيك. لا تبخس كرم الله، قم واربط جرحك، لا تفزع، أنك ستعيش لأجل قادم بعيد، تفاءل بالخير تجده أمامك، ستنعم بحياة كريمة طويلة وبخير ونعم. كن واثقا من رحمة الله.....

على أثر ذلك الحلم فز من غفوته، جلس مرتعبا، مرهقا، مشتت الذهن بين فزع وغبطة.... أنها إشارة بشرى من العالم الآخر، من المجهول، من العالم اللامتناهي النَّائِي. تلك الرسالة تحمل في طياتها آمالا جديدة وبشرى لأمد بعيد، أنها موقعة من قبل الوالد العزيز الغائب الحاضر، الحنون. حينها التمعت عيناه بدمع الفرح.

آه يا أبي كم تحبني بحيث لا تفارقني روحك الطاهرة حتى وأنت ميت، جئت تنتشلني كما كنت لا تفارقني في حياتك.. كم أنت كريم، شكرا لك يا أبي على البشارة، شكرا على لطفك وحنانك وعطفك....

نعم أني سأعيش لأجل آخر، ربما لدعاء الوالدة درجة عند الله، لذا ألهمها الله ووضعت سر نجواها في ذلك القرآن الذي أهدتني إياه، ربما لدعاء الحبيبة رجاء عند الله، فتلك التي تأملتني كثيرا وعلقت حلمها في سري.

رغم أني أخلصت لها، لكني لم استطع انتشالها من كربها، خوفا عليها من تقلبات الزمن، من أن تحمل من بعدي وتتورط

بوليد جديد. فلو أرهصت معها قبل التحاقي، كيف ستواجه المجتمع بعد ذلك من بعدي؟ سامحيني يا ناديا!! لم أوفي بعهدي معك.

ذرف دموع غزيرة حتى جفت مآقيه وهو ممتد كميت بين جثث زملائه، متأملا ولادة حلم والده. رائحة الدم العطن أزكمت أنفه بعبق الخوف والخشوع، الصمت المراغ زجل اليقين، ما ذاك سوى حلم عابر...

من خلال الفزع المنتش في ذاته والخوف من أن يستسلم لموت بطيء يدهمه، وجد في عجزه عن الحركة فشل واضح في النجاة. السكون المطبق بمحيطه، الوحدة مقيتة، رهبة الموت حاضرة، مطرقة الجوع مجلة، ألم الجرح بليد، عوامل كثيرة تدفعه لأن يستسلم للقدر، إضافة لضعفه وهوانه.

صارت الإغفاءة تراوده بين الفينة والفينة، هجس بتراخ في أعضاء جسده، الإرهاق يسرقه من عالمه، أضحى لا يدرك مدة عناءه ولوعته، كل تلك العوامل ابرمت كعقد في نفسه، فهو بحاجة إلى سكينة وعناية ورعاية..

لا يعلم كم من الزمن مر عليه حتى صاخت أذنيه لغط أصوات مبهمة خارج الملجأ، لم يميز مفرداتها، دارت قرب الملجأ، حينها تهلل وجهه بالفرح، تأمل خيرا، لا بد هناك من سيتبع أثر الملجأ ويعثر عليه. كأنَّ لِحلم البقاء قوة ونشوة داعبت هواجس روحه بالأمل، أزالت عن كاهله شبح الموت ولون البؤس.... لكنه مجرد حلم، لن يرى النور.. ترى أيكون ساذجا لدرجة تصديقه حلم عابر، أنه إذا لمجنون....صار يكلم نفسه....

أصحى يا نجاح.....

أصحى من الكوابيس...

أنك ميت كما هم رفاقك ميتون.

لابد تلك الأصوات التي سمعتها هي أصوات جنود الفرس،

أنهم قريبون من مواضعنا، وإلا كيف وصلت قذيفتهم إلينا؟ .. لِمَ لمْ ينقذنا زملائنا؟...
لن تنجوا مطلقا، وأن نجوت سيقتلونك بأنفسهم.. هؤلاء أنذال ليس في قلوبهم رحمة تجاه العرب، يلف قلوبهم حقد دفين منذ سقوط إمبراطورية الفرس على يد المسلمين، لن يرحموا عراقيا أبدا، لن يبقوا أسيرا على قيد الحياة.. هكذا فعلوا في معركة الشوش والإبسيتين حين اقتادوا اسرانا إلى المقصلة... ثم هذا وقت صراع وليس وقت رحمة، يجب أن تتخلص من خطر عدوك، هذا هو سلوك حرس خميني مع العراقيين.
بات يكلم نفسه:...
أن لم يقتلك الايرانيون؛ ربما سيقتلك الدود الذي سيزحف عليك بعد أن تتفسخ جثث زملائك، الأصوات التي سمعتها لم تكن سوى هاجس داخلي أو وهم أوهمك به حلم أبيك، نعم الدود سيزحف عليك... ربما رائحة العفن ستسبب لك أزمة في الأوكسجين، حتما ستختنق وتموت!!!. البكتيريا ستغلق مجرى أنفاسك، ستدب في الأجواء، سيلتف النتن كحبل المشنقة على رقبتك، وسيمتد الدود على قامتك. ستغلق مجرى خياشيمك برائحة العطن حتى تجف رئتاك عاجلا أم آجلا.
حتى لو بقيت تقاوم عجرفة الموت يوم أو يومين، فلن تدوم مقاومتك أكثر، فأنت في عداد المفقودين والأموات يا نجاح، حتما ستعطر رائحة الجيفة في الأجواء، أن رأف بك الدود، فلن ترأف بك الوحوش السائبة، ستشم عطن الجيف الكلاب والضباع وبنات آوى، سيدركن وجودك هنا، في هذه البقعة المنسية من العالم. ستزحف عليك الحيوانات المفترسة، الثعابين وآكلي الجيف والغُرَيْر وحفار القبور وغيرها التي تتجول في عتمة الظلام...ستقضي عليك..... لخياشيم تلك الحيوانات مجسات قوية، تشم عبق الروائح عن بعد عشرات الأمتار، ربما عبر مئات الأمتار.

لا تدع فرحك يتعلق بكابوس عابر، تولدَ من إرهاصات الخوف المحيطة بك. أنت منهار القوى، منسي بين أكوام من الجثث والأتربة وكراكب الملجأ... حين عبطت القذيفة بالتربة وعبثت بالأجواء؛ لم تنتبه عليك، أخفاك القدر في زاوية. إذا لا تتأمل نجاتك وأنت جريح ملقى دون رعاية، بل أنك فعلا مدفون في هذا القبو، مدفون بين الحياة والموت، ربما سيكون هذا هو قبرك الأبدي...

تلك الأصوات التي سمعتها ما هي سوى فرقعة من واقع خيال طاف بذهنك، أبعدك عن الواقع المؤلم والحقيقة.

وأن نجوت من كل تلك الاحتمالات يا نجاح؛ فلن تنجو من آفة الجوع القاتلة، تلك الآفة التي تزحف عليك ببطيء شديد مفتوحة الشهية، فاغرة الفم، شرهة، ستقضمك بقواطعها الغليظة التي لا ترحم..

تلك الآفة تستطع أن تبلع كل أجزائك مهما كان حجمك كبيرا، تبلع الوحوش الكاسرة كالأسود والنمور، إلا تستطع أن تبلعك وأنت صعلوك؟... ستبلعك خلال رقودك واستسلامك دون أن تنتبه لها، ستزحف عليك بيقين دون أن تتأثر بالروائح العطنة أو بالدود أو.....الخ... لا يمنعها حاجز ما أو مانع قط، لا تحتاج لعناصر الجذب لتجذبها.. أنها راقدة في جوفك، أنها آتية بموعدها تماما، لن تتخلف عن المجيء مطلقا، ربما سترحمك لبرهة زمنية قد تطول ساعة أو ساعتين أو يوم أو يومين في أحسن الأحول... لكنها لن تتركك طليقا أطلاقا، ستكبلك بمعاصمها القوية ومن ثم تعصر بمعدتك حتى تجهز عليك بلحظة غفلة.

لكن يا نجاح!...لِمَ تسميه حلم ولا تسميه رؤيا؟.... ألم يذكر الله في كتابه الكريم الرؤيا: (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ).

صدق الله العظيم. فقال له أبوه: يا بني! لا تقصص رؤياك على أخوتك، وكأن أبوه قد علم تفسير رؤياه، وكيف لا وهو من أنبياء الله.

قال رؤياك ولم يقل حلمك...

نعم أنها رؤيا، والرؤيا تكون صادقة، والحلم هو أضغاث معاناة الجسد. وقد تحققت رؤيا النبي يوسف بعد حين.

لكن يا نجاح كيف تقارن ذاتك بيوسف؟ أنه نبي، وأنت مجرد صعلوك.. من تكون لتقارن ذاتك به؟....

صار يدعو ربه: يا إلاهي أرحمني، أنقذني من هذه المعمعة.

لا لا لا.. لم يكن ذلك حلم إطلاقا، أنه رؤيا!...

أبي الذي جاءني من عمق الغياهب ليبشرني بحياة جديدة، حز قلبه أن يراني بائسا، يائسا، لائذا بين مخاض الهلاك والأمل، بين الحياة والموت، وحيدا أصارع جلجلة حرب نفسية مشتعلة بداخلي، تلك التي كبلت ثقتي، قيدت يقيني وقدراتي.

أنها إشارة من الله، جاءني بصفة وحي، أكيد روحه لم تفارقني، تبعتني، تبعت أخباري، ثم جاءت تقرأ لي تعويذة المستقبل.

يا ترى؛ لِمَ ارتعبت منه؟.... أنه أبي...لقد جاء يبلغني بنجاتي! ربما كان سيخبرني أمورا أخرى أنا في غاية الحاجة إليها... ياه...أليس هو أبي؟ لمَ ارتعبت منه؟ هل لأنه متوفى.

هل لأنه ميت!

يا لسذاجتي، أبي الذي كان لا يفارقني كيف أهابه....

أعتقد الأمر كان طبيعيا، هو جاء يبلغني رسالة مقصودة حين وجدني يائسا، متعبا، مرتعبا، لم يأتي ليشرح لي رواية حياتي القادمة.

يا ليته يعود ويخبرني عن طالعي، عن مستقبلي مع ناديا، عن أمي وناديا، عن أمور أخرى كثيرة أنتظرها، غدت شتات

ضائعة في زمن مجهول وفكر تائه.

يقولون للميت أمكانية معرفة الغيب!! لذلك العرافون يحضرون الأرواح.. حين تحضر روح الميت؛ يسأله عما سيحدث في المستقبل، هكذا سمعت البعض يقولون، لكنهم سذج يصدقون كل شيء، وربما هو علم لا يدركه الأخرون، لا استطيع أن أجزم.. لا أدري مدى صحة ذلك لكنه معمول به بين أوساط المشعوذين والعرافين، أنهم يكذبون، يمثلون ذلك من أجل المال، هكذا اعتقد.

لمْ أعد أمسك في يدي عصا موسى لاتكأ عليها، مثلما كنت قبل أن أرتدي البدلة العسكرية. حينها كانت كل الأمور بيدي، أما الآن فأني قد تجرت من كل شيء سوى أمل البقاء حيا.

عندها كنت لا أبحث عن الأشياء، بل كانت الأشياء هي التي تبحث عني وتركع أمامي. الأمور الشخصية والعائلية كانت مستتبة تماما بيدي، لا ينقصني من الحياة سوى الزوجة والرفيقة، لا تنقصني سوى الحرية المكبوتة في داخلي... لولا مخافتي من الله أن أجرم بحق زواجي من نادية لتزوجتها.. الذي عرقل سعيي هو المصير المجهول، حجب رغباتي، جعلني أشعر بضعف وانكسار أمام القراءة الأولية لقوافل الشهداء التي كانت تحط بيننا بين الحين والآخر.

لم أرغب بأن أجعل ناديا معلقة المصير بين السماء والطارق، إذا ما فقدتُ أو أسرتُ، أو متُ، فالقدر سيشرع بكرنفال الفراق، حينها أكون قد قيدت مصيرها بمصير مجهول لأجل بعيد، لا أعرف متى تحين حلول عقدته... أما الان أعتقد ستيسر الأمور، بمجرد العودة سأكمل مشوار حياتي معها على خير.....

يا إلهي ساعدني على تجاوز محنتي، أين هؤلاء أصدقائي، ماذا عن ذويهم وأحبائهم؟ ماذا عن أمهاتهم الثكالى وحبيباتهم وابنائهم، لم أبقيتني شاهدا على ما جرى لهم من مصير أسود.

عصف البارود قتل رغبات النفس الحسية والجسدية والذهنية، أضحينا في سكرة دائمة دون خمرة ودون كلف، أضمحل الفكر، فيما الحزن بات يشتد كبركان في داخلي، يلفظ حممه على مرافق الوعي دون كلل.

أنها المأساة، وهي أول المشوار.....

كان القصف قد تحول عن محيطه تماما، باتت أصوت الانفجارات تبتعد كثيرا عن موقعهم، وذلك أما لتقدم ما قد حصل أو لانسحاب وانكسار قد تم.

لكن لم لا يبحثون عنا؟

هذا السؤال صار يراوده كثيرا ولا يستطيع أن يفسر الحقيقة، ربما السبب في ذلك كانوا في مأمن تام من الخطر الإيراني، حيث تبعد خطوط التماس عن مواقعهم أكثر من مئة كيلومتر من الجبهة الأمامية، فيما يبتعدون عن نهر الكارون بحدود ثلاثين كم تقريبا، وهو حاجز مائي منيع، لهذه الأسباب بقوا متقوقعين في أماكنهم لا يعرفوا تفسيرا حقيقيا للوضع الحاصل من حولهم.

بعد أن أصيب لم يستطيع أن يتحرك من مكانه، كانت قد انهارت قواه، الجوع بطش به، العطش نشف ريقه، يبست شفاهه، أضحى كورقة شجرة يابسة، مصفرة، ملتصقة بجذع الحياة، ربما تسقط بأي عابث طارئ يدركها.

صار يبحث في جوف الرغبة عن رمق يسعفه، عن أحلامه، عن يقظته قبل أن تسقط ورقة شجرته.. فتش في جوف الملجأ عن قطرات ماء تعينه، الجفاف خدش صبره، لابد له من أن يشرب قليلا من الماء، الظمأ والحر والخوف والرعب جلداه، زحفا على بدنه. حياته أضحت طابع صحراء قاحلة، لم تدر عليه سعادة وهو في مقتبل العمر، فكيف ستصور له مستقبله وهو مكبوت، جريح، ملقى بين كومة

كراكب وجثث؟

شارة الجوع حركت معدته، صارت تفرز عصاراتها الحامضية، زادته حرقة وألما في معدته، كما أن النزف الذي عقب سطوة الخوف صار يشعره بدوار في رأسه، يسحق تأملاته، يصرعه... لا يدري كم من الوقت مضى على إصابته، ربما يوما أو يومين...لم يعد يشعر بالزمن.

وهو في خضم يأسه وفكره المضطرب، عاد وسمع ذلك اللغط يتكرر خارج الملجأ مرة اخرى.. لا لا هذا ليس خيالا، أنها حقيقة-- لا يستطع تفسير لغط الكلام بشكل دقيق، أو لا يستطع أن يفسر الأحداث ويفقه الكلام، نتيجة الإرهاق الجسدي والفكري، جراء الخوف والموت المحيط به.. لكنه أطمأن من الناحية النفسية، بأن هناك من هو حي يرزق يطوف حول الملجأ المنهار، إذا حتما سيبحثون عنهم، سيجدونه وينقذوه. ربما هم رفاقه، ذلك الهاجس أزاح شبح الخوف عن قلبه، أرفده بجرعة من السكينة كبروفين مسكن الآلام..

هدأ قليلا، ركن إلى رصيف صبره وهو لا يعلم بأن رفاقه في الخارج كانوا قد استسلموا لقوات الحرس، وقد تم أبادتهم في حينه، ذلك ما أستعلمه بعد حين.

رغم سكرة الألم، بقيت أذنيه شاخصة تتنصت على ما يدور حوله خارج الملجأ، وبقيت عيناه تتصفح غرائب المحن، وهو ممتد بين جثث زملائه في ملجئ شبه منهار، أخشاب السقف منهارة، متكسرة، صفائح ألمنيوم منخلة بالشظايا، مطعجة نتيجة العصف. بين تلك الأشياء بقيَّ يشحذ ذاته بالأمل، عسى أن يرأف به القدر وينقذه من محنته.

3- زاهد

في الجانب الإيراني شيع خبر تطويع الأطفال لسلك العسكري لكافة الاختصاصات، لزجهم في معسكرات خاصة للأعداد والتهيئة، ليتم زجهم فيما بعد في طاحونة المعركة كقوة أسناد للجيش النظامي ضمن مجالات الأعمال اللوجستية والقتالية إذا تطلب الأمر تحت مسميات حرس خميني أو جيش القدس.
المجالات المتاحة هي: تموين، طبابة، إسعافات أولية، سواق، مشاة، إغاثة، إلى أخره من صنوف تدخل ضمن الحاجة العسكرية كحمالين ونقل وما شابه ذلك، حيث القيادة الإيرانية أعدت ذاتها لمعركة طويلة.

حينها كان **زاهد** أبن الثلاثة عشرة ربيعا، يعيش في كنف أمه تحت رحمة زوج الأم حسن، ذلك الرجل الفقير ماديا وثقافيا ونفسيا وفكريا، وبدنيا، ضغطته الظروف ليتصف بالحدة والقسوة....

زاهد هو أكبر أخوته، تصغره أخته شاهيناز بثلاث سنين، وله ثلاث شقيقات أخريات يصغرن شاهيناز وشقيق واحد بعمر سنتين من نسل زوج الأم حسن، أو ما يدعى العم حسن، هو عامل بسيط يعمل بالأجر اليومي، يكاد لا يحصل على رمق العيش إلا بما يتقاضاه وبالنزر اليسير، يدير به أمر معيشة العائلة، في ظل ظرف تكالبت عليه أوجاع القحط والفقر والمرض.

بفعل قسوة الحياة أصبح صعب المراس، دميم الخلق، سمج، أزداد غلظة وفظاظة وشدة مع زاهد كونه بدأ ينشا تحت

رحمته في ظل فقر وعوز، انعكست شدة سلوكه على نفسية الطفل زاهد بالسلب، صار لا يحتمل سلوكه وهمجيته وهو الذي يوده أن يعينه في تدبير أمر المعيشة.

حسن لم يستطع تحمل الفاقة المصاحبة لوحشية الظرف، ذلك الذي ازداد فتكا بالمجتمع مع استمرار هدير آلة الحرب على جبهات القتال. الخوف قبع في النفوس، زعيق أبواق الحرب والفقر أنذر المساكين، دق عظام المتسولين والمتسكعين في الشوارع بسبب الغلاء وتكالب ظلف العيش. الظرف المتعجرف شمر ذراعيه، أشهر سيفه على رقاب هؤلاء وكل من يتأخر عن تلبية نداء واجب الحرب..

زادت نسبة الفاقة في صفوف المجتمع، الفقر قنت بين العيون، رسخ في الأذهان والقلوب كهاجس الجوع، كشبح الموت الدائر في الطرقات، متأهب لافتراس الشباب، يرعب من ألت به الظروف لواحة الكسل والخدر جراء تبخر فرص الرزق والعمل أمام زحف الغلاء المتصاعد والنكد المحيق بهم.

هؤلاء الذين اتعبتهم آلة الحرب، أنهكت قواهم سياسة السوط، باتوا أشبه بالدجاج المعد للذبح، مقيدين بالغلاء والشقاء والذل. هؤلاء المساكين قبعوا كجثامين في أماكنهم، عاشوا كفئران مرتعبة من صور القطط والكلاب السائبة، متخفين عن أنظار الشرطة والحرس التي تجمع شتاتهم، لتزج بهم كوقود حطب في فرن المعركة.

هؤلاء المساكين ترعبهم الأخبار الوخمة، تجلدهم قسوة الظرف وتقشي الأسعار والأمراض في البلد. فمن نكد الدنيا أختلَّ التوازن بين طبقات المجتمع. فالسهم القاتل لا يصيب إلا البسطاء المنكوبين، هؤلاء القابعين تحت سطوة الظرف وقلة الرزق، القانطين خلف حواجز الظن في بيوتات خاوية مُعَرَّة لا تحميهم من لظى الشمس.

هؤلاء الذين أصيبوا برعشة الفقر والفاقة وضعف التدبير،

أمام جبروت الظرف واشتداد المحن، تحولوا مع الزمن لشلة مسحوقة، خاصة بالنسبة للّذين دخلهم يعتمد على قوة عضلاتهم.

صار القوت عقدة في فم الفقراء، تتمنطق به الألسن بين نزق الجوع وشهقة الرغبة، كمضغة الصبر تلغ به الأفواه دون أن تشبع العيون.... تجدهم سكارى يتحركون في دوائر العمل المحدودة وما هم بسكارى، تتلاعب بهم أخبار المعارك وأسعار التجار، صاروا يتبعون الإشاعة في الشوارع والمقاهي، يتأملون أن تنزل عليهم الرحمة.

الظرف الكالح أنهك أنفسهم، أرهق صبرهم، بات الشخص يبحث عن ذاته في جوف المستحيل لتقويمها. الكل صار يبحث عن نفسه ومعيشته بين مخالب الزمن، يبحث عن ديمومته ورجاءه في عيون الآخرين، عن استمرارية ضحكة الطفل في البيت، عن ديمومة بسمة الزوجة.

في تلك الأجواء المغبرة باتوا يبحثون عن وسط يجيل صبرهم وشقائهم لنعيم واستقرار، يبحثون عن ضوء يفتك بالوحشة والظلمة المغموسين بها، عن صور تحسن أحوالهم وشؤونهم، عن أي شيء يحيل حزنهم لفرح وتفاني، لسعادة آنية، عسى أن تستوي الحياة بهم وبذويهم بشكل من الأشكال، عسى أن يعيشوا بمستوى الكرامة..

لقسوة الظرف ما عادت الوجوه تبتسم، يبست الشفاه، أضحت أرض بور كوجه البسيطة التي انقطع عنها المطر، أضحت رهمة، بائسة، لا نور بها ولا سحر، تغيرت أحوال الناس عما كانت عليه قبل أن تبدأ الحرب كثيرا..

تلك الظروف والتغيرات السريعة في المجتمع وفي واقع الحياة دفعت حسن إلى أن يجهد كثيرا في البحث عن فرص العمل هنا وهناك، بات يحفر الطرق بعينيه، يبحث في جوف

المستحيل عن نزر الفرص. صار يتعقب الوجوه المربربة، المتمكنة، الرزينة، بحثا عن صيغة من صيغ العمل، عن أشباه الفرص بين أنقاض الزمن، عن رجاء يعين صبره يعمد صموده وبقاءه بوجه قسوة الظرف.
صار يتفرد بالوجوه، يتأمل الرحمة، يراقب الشارع، يتفحص الأرصفة، علّه يجد بين أكوام الخبب قدره، أو يعثر على نصيب يتبع اثره، يَلبَسه، يحرق به حزنه وفقره، يرفع رداء الحيرة من على كتفه.
تلك الحالة جردته من قواه، نقلته لحالة الجنون والتسامي بين فترات السكون والصمت. أضحت عناوين الليل والحاجة والشح والمرض والعجز هي مرادفات توضح له حظه العاثر وقدره الخائر. ما عاد يستكين على فكرة إلا وهو ناقم عليها، لجحيم الحال وحجم التقلبات التي يتعرض لها...
ما عدَّ خلال حياته السابقة من حلم وتأمل، لم يعد له أثر ووجود في عالم الواقع والحقيقة، لم يجد في عالم اليأس والبؤس مرفأ يأويه، محولاته الحثيثة في تحسين ظرف معيشته باتت مستحيلة، ذهبت سدىً، تحطمت على صخرة ويلات الحرب التي حطمت أسس كل شيء في البلاد وفي النفس والمجتمع..

منذ أن بدأت الحرب أضحى يهجس بحاله تعوم في زورق من ورق لا يتحمل جلد الشقاء والكرب، المصاعب زادت من وتيرة السخط. ما كان يحصل عليه من نزر لم يعد يملأ جوف بطنه، لا يسعف رمق عينه. الفاقة تخطت حاجز قدراته، ألبسته أسمال وأهوال الزمن وأطماره وخببه، تلك الحالة أصبحت جزء من سماته الشخصية، من صور ملصقاته على جدران حياته.
كان قد تدرج في شجنه ونشيجه، حيث أخذ من البؤس طبعه، ومن اليأس قدره، ومن الفقر همه وكدره وصمته، فبات يعيش

في شد وجذب عصبي وبأزمات نفسية كورت تعابير وجهه بالمشقة. أصفرت تأملاته بحيث طغت على لون حياته، لا يستطيع أن يفلت من شباك صيدها، دائما ما تجده يسبق شروع الناس إلى العمل، لكنه ما كان يصل لغايته إلا في آخر الركب، لم يجد ما ينفع أو يعين أو يرجيه إلى غايته، لأن أرباب العمل لم يجدو في قوامه الضعيف سوى عجز وكسل لصق فيه، لذا كانوا لا يكلفوه بعمال.

تلك الأوضاع أرهقت ذاته وأراقت صبره، عقرت تأملاته، فلم يجد مخرجا من قوس حياته ينتشله، ألا بالاعتماد على حافز جديد يستند عليه، لذا لم يجد أمامه سوى أن يستند على زاهد أبن الثانية عشرة من العمر، جعله شماعة فشله وضعفه.. صار يزجه في العمل هنا وهناك لتعويض نقصانه، فيقول:..

- نعم أنه طفل، لكنه حيوي، يمكنه العمل، الزمن كفيل بتعلمه، لابد أن أعتمد عليه لتسيير مركب الحياة الواقفة في وسط الطريق، أنا بحاجة لطاقة تعينني على الصمود بوجه الزمن، المواسم القادمة ستكون أشد قسوة ورعونة من الوضع الحالي، ومن الظاهر للعيان سيطول شتاء الحرب، سيشتد زمهريره وبرده طويلا.

تلك الصور القاتمة عكست عليه الأفكار، فصار يتأمل زاهد أمام عينيه كمنقذ ينتشله من واقعه المرير. صار يشركه بمهام العمل في الطرقات والشوارع، يشركه في الحمالة وكنس الشوارع أو بمساعدة الباعة أو أي عمل يصادفه في طريقه، ليستدل على قوت يومه.

هذا ما دعاه يصب جام غضبه على زاهد حين يخفق في عمل ما، أو حين يتكاسل أو يتهرب من العمل المكلف به.. يكيل له الضرب إذا ما تهاون أو تراجع عن سعي أصابه، يحيل ظرف تأخره وتعثره إلى دواعي الكسل المفتعل والمتقصد، إلى التهاون والتراخي والتعمد.

التهاون في السعي يعني التخاذل في تدبير لقمة العيش، يعني الظلف والمعاناة، لذا أضحى يعامله بقسوة زائدة إذا ما تهاون أو تأخر، همه التخلص من شرنقة الفاقة التي لا تحتمل أوزارها، فالكسل يعني الاستسلام والتشرد في الشوارع، معادلة يجب أن تتزن عتلتاها، ولا يمكن أن تتزن إلا بإشراك زاهد في ميدان العمل هنا او هناك...

عُقد المعيشة زادت مع سخط الأيام، لا يأبى أي شكل من أشكال الانحراف، المسألة لا تخصه فقط، باتت حالة شائعة في وسط شريحة واسعة من المجتمع الإيراني الفقير، ممن يتراوح قدرهم تحت وقع الفقر المدقع.

تلك المصاعب صارت تحصد قوى زاهد الفكرية دون أن يستطيع تغيير مسار ذهن عمه، دون أن يستطع أن يخطو خطوة نحو مستقبله لتحسين ظرفه ووضعه.. خلال تلك المسيرة التي أرادها له عمه؛ أجبر على ترك مدرسته، فلن يحتمل جمر الخوف لقسوة عمه، السكون يعني الاستسلام لعمه الذي بات يستغله استغلالا جشعا وهو في بداية وعييه.

رغم صغره، لم يحتمل شقاء عمه، لذا ناصبه العداء والكراهية، بدأت تلتمع في فكره فكرة سياط الأب الوكيل، يوما بعد يوم توترت وتشنجت تلك العلاقة الجدلية بين الطفل وزوج الأم، تحولت إلى طمع واستغلال من قبل العم، صارت لتلك العلاقة مخالب تجرح، كل صار في عرينه أسدا يود فتك الآخر.

الأب الوكيل يود الحصول على لقمة عيش إضافية، فيما الأبن يبحث عن طفولته وتعقب هوسه براءته بين العيون.. وسعت الهوة بين الأثنين، صار الجدل يطفح على الألسن، توقدت فتائل العند والفصل، صار أكثر حدة من السكين، أحدهم جزل صبر الآخر. لم يعد يستسيغ سلوك عمه الذي صار كحنظلة مرة في كأسه. الفوضى السائدة أثارت سخط كلا

الطـرفين وسـط تلـك العواصـف المثـارة، جعلـت الأمـور تخـرج عن طابع العلاقة الاسرية إلى مبدأ الخصام والعداء.

مالـت العلاقـة لجهـة الفرقـة، لحالـة عـدم التوافـق، بحيـث مـا أن يلتقيـان حتـى يفترقـان بسـبب الشـد وارتفـاع الأصـوات، شـتان مـا بـين الأثنـين، بـين البـراءة والفقـر والسـطوة، لقـد طفـح الكيـل، وصـل حـد القطيعـة الدائمـة والهـرب مـن البيـت، اضـطر زاهـد لتلـك الـدروب والمخـارج بعـد أن اغلقـت الأبـواب بوجـه ووصـل سـيل القـرف الزبـى، عنـدها ود إنقـاذ ذاتـه وطفولتـه مـن سـطوة زوج الأم.

تعقـدت العلاقـة بـين الطفـل والعـم لدرجـة الهجـر وعـدم التراجـع والمرحمـة، لا حـل سـوى الخضـوع لأوامـر زوج الأم أو الهـرب من البيت، في ظل قسوة ظرف وفقر مدقع جائر.

كونـه طفـلا لـم تنمـو عظامـه بالشـكل الـذي تعينـه علـى مواجهـة التحـدي، زيـدت عليـه ضـغوطات العمـل والحالـة النفسـية، جعلتـه يكبـر فـي سـلوكه عـن عمـره الحقيقـي ليجـاري واقعـه المريـر، لـذا مـا أن وجـد فـي نفسـه قـدرة علـى التحـدي؛ حتـى تمسـك بهـا وأفـرط مسـبحة العشـرة، جعـل خرزهـا تتنـاثر فـي ميـدان صـمت صـعب لملمتهـا. الجلـد والضـغوطات النفسـية لونـت طباعـه بالسـواد، شـمعت علاقتـه بعمـه بالعنـد والكراهيـة، أمـام عجـز الأم فـي مواجهـة الحـاح الـزوج وإصـراره علـى ثنـي أبنهـا، ممـا بثـت الفرقـة بـين الطـرفين، بحيـث غـدت النوايـا واضـحة كمسـتقيمين لا يلتقيان في نقطة، هكذا تصلبت العلاقة أمام الفقر والإرادة.

الكـأس النـاقص مـا عـاد يـروي ظمـأ العـم، شـعر بـالزمن يلهـث خلفـه ككلـب مسـعور يـود النيـل منـه، حوصـر بـين الفقـر والعجـز، لـذا نـزع العاطفـة أمـام تلـك البـراءة، كـي لا تتوقـف الحيـاة عنـد حـد العجـز.. بـين هـذا وذاك صـارت تمـر الأيـام بـه كأعاصـير لا تهـدأ تضرب احاسيسه وخواطره بوابل العقد.

تلك الأوضاع جعلت زاهد ينفر من واقعه، لذا فكر بالهرب من البيت دون الرجوع لصحوة العقل، هجس بشباك الحياة قد هرئت وتفتت، ما عادت تمسك بهلل النعم..... لكن الهرب إلى أين؟ من سيعينه على تدبير أمره ورزقه وهو مازال طفل لم تكتمل بنيته وافكاره، لم تقوى عضلاته، لا يعرف له عم ولا خال يعينه على جلده.

الاوضاع جعلته لا يدرك حسن التصرف، لازال عوده طري يافع، لم تخبره التجارب، فاغر الفم، فارغ الجيب، لين العظم، لا يقدر على التحدي. أين يتجه، كيف يتصرف مع المحيط الغامض بمفرده؟ أين سيعيش في ظل خوف وفاقة تحيط به؟ كيف سيظلل الصعاب وهو يدرك الاخطار قابعة أمامه في الشوارع؟

وجد نغسه شريد دون مال ودون مأوى يأويه، أنه بحاجة لدفء وحنان الوالدين. لم تتشبع رغباته من الطفولة التي تبعثرت أفصاد عِقْدِها تحت هاجس الشح والرعب وعصا التأنيب والترهيب وثقل الأشغال التي كالها له عمه.

كان قد زجه بأعمال شتى أكبر من طاقته، أشركه في عمل السباكة والحمالة وأعمال البناء- على الرغم من صعوبة بعض الأعمال لنعومة عظمه، في أحدى المرات أقتصر دوره على نقل البلوك الإسمنتي من رأس الشارع إلى منطقة البَنّاء لمسافة تتجاوز ستين متر، وزن البلوكة الواحدة تزن أربعة كيلوغرامات، تصور الحالة بعد نقل عشرات البلوكات ماذا ستفعل تلك الكتل بعضلاته الرخوة نتيجة الفقر والفاقة والعوز المستمر وسوء التغذية. كما انه لم يكن يتقن تلك الأعمال لصغر سنه، لذا كان قد أجهد جسديا، فلم يحتمل أعباء وزن الكتل، أنه بالكاد يحمل كتبه في يديه، الذي أجبره عمه على ترك المدرسة.

على أية حال بعد أن اشتد الهوان عليه، سقطت أحداها

البلوكات على مشط قدمه، أدت إلى ترك جرح بليغ وورم شيط في القدم والكاحل، فبات يصرخ ويبكي من شدة الألم، أستعطفه رب العمل، سلمه أجرة يومه، ثم سرحه ناصحا له حيث قال:....

- يا بني أذهب ولا تعود مرة أخرى، لازلت ناعما رخوا، طريا، لا تحتمل الجَلَدْ، لا يحتمل جسدك أشعة الشمس، لازلت صغيرا لا تعرف طبع قسوة الحجر، ينبغي أن تعود لكرسي الدراسة قبل فوات الأوان، التعليم يبني لك فكرك والزمن يقوي عضلك، يحفظك من الزلل والمكائد. يا بني الشارع يسلب منك البراءة، يعلمك الخسة والنذالة والمهانة والغش والنصب والاحتيال، لازالت الفرصة قائمة أمامك، عد لمدرستك قبل أن يلفك الزمن بالضياع، عندما تكبر ويزداد وعيك؛ أدخل مجال العمل.

تلك الكلمات أثرت به، أعطته دفقا للتفكير بذاته وإرادة في مواجهة عمه، ذلك الذي لا يهمه سوى أن يحصل على المادة لتدبير لقمة العيش، لا تهمه الطفولة ولا البراءة. ذلك الإنسان الذي عصرته الظروف وركنته في خانة الكآبة والنسيان، فلم ينز جبينه سوى فجاعة وتعاسة تكبل بها، سوى فقر وعوز وجهل. تلك الظروف السقيمة حولته لمتسول يدور في أروقة العمل، دون أن يتغير وضعه وقدره.

عاد للبيت وهو يعرج، الدمع يملأ مقلتيه، استقبله عمه بالذم والسب والشتائم، ما أدى سلوكه إلى ترك شديد الأثر بنفسه، جعله يمقته وينفر من البيت.

في نظر العم (زوج الأم) إصابة قدم زاهد تعني انقطاع صنبور الرزق، تعني تكاسله، تخاذله، تعني له زيادة الفاقة. لذا لم يبتسم بوجه ويطيب خاطره، فهو لم يراعيه من قبل، ترك في قلبه نقطة سوداء. كم وكم لكز ساقيه وهو عائد من عمله،

لقد خاب ظنه فيه تماما، يأس من تعقبه المهين له داخل البيت وخارجه.

لم يمنحه فرص محبة، لم يجعل منه باكورة أمل أمام الحيرة التي تعصف بطفولته، لم يصنع من رأفته شاش رشح لجراحه، تركه أسير هواجس الخوف تحت سياط النقمة، ذلك العقيم لا يُرضى سوى بلمعة التومان ورنة القطع المعدنية في جيبه.

تلك السلوكيات التي أتصف بها العم، تركت دكنة تحت محجر عيني زاهد، وسخط مرارة على لسانه، أضحى يصفه كثعبان الصل، يفرز سُمَّ غله في صحنه.

فقدانه لأبيه في صغر سنه جعل أموره تزداد ضبابية، كان قد أفتقد من يرشده ويظله ويأخذ بيده. ما عاد هناك من يخاف ويحن عليه، من يحسن إلية ويرأف به ويوصله لبر الأمان، شاكت العقد في طرقه وهو صغير السن. زاد العقم والتعقيد مع تركه المدرسة، أضحى لا يستطيع حل طلاسم لغز حياته وهو بهذا السن الفتي.

بعد جهد وصبر، وبعد تفكير وتمحيص؛ لم يجد مناص من التطوع في الجيش الإيراني، طالما الدولة قد أعلنت حاجتها لمتطوعين جدد، ها قد فسحت المجال أمام الأطفال للانخراط بالسلك العسكري لدعم القوات النظامية مستقبلا، هكذا توضحت الأمور، ودت تجهيزهم وإعدادهم كوقود لأفران حرب طويلة الأمد في ظل صبر وجلد وشدائد. فالحرب لازالت في أول مشوارها، والطريق طويل، ربما قد خططت الدولة لحرب تدوم عشرات السنين.

بفتح مجال التطوع أمام الأطفال، فكر زاهد بنفسه وسلامته وبعرض الدولة، فهيَّ مؤسسة حكومية، حتما سترعاه وستعده لمستقبل أفضل، فالجيش في حسابات العقول النيرة هو مصنع الرجال كما يعرفه الجميع. لذا لم يتوان في عملية تطوعه لحظة واحدة، على الرغم من أنه لازال في أول نبوغه، لازال

العضل لم يتركب في البدن، ألا أنه فطن وذكي، يجب أن يستغل الفرصة المتاحة قبل فوات الأوان.

طوال فترة وعيه كان قد عانى من الفقر وقسوة عمه، لذا بات يسأل نفسه متى ستنتهي مشاوير الفاقة والعجز في البيت؟ تلك المعضلة ظلت تطرق فكره، دفعته للإسراع إلى التطوع، بتطوعه سيمنح ذاته استقلالية كاملة ومرتب يعينه على تدبير شؤونه، يستطيع أن يشتري حاجاته ولوازمه البسيطة التي كان يحلم بها.. لكنه تنقصه التجارب وحقيبة الإرشادات التي سيحتاجها في مشواره.

كان قد تطوع عددا كبيرا من القاصرين والشباب، باتوا أفواجا نتيجة الفاقة السائدة في البلد، زجت الدولة بهم في معسكرات تدريب، تلك المعسكرات عدتهم على عجل لبطون الحرب، ليديموا وقود الحرب حتى تستكين أو يغشى دخان النار أنوف الشعب، مع الايام باتت تغزوا الجثامين افواجا مقابر المدن، تلك التي كانوا يخشوها ويتحاشوها.

استخدمتهم الدولة اسوء استغلال، جعلتهم دروع صد بشرية أمام آلة الحرب الشرسة، وضعتهم في فم النار كالنصل لفتح الثغرات وعطب الألغام أمام تقدم الجيش النظامي. كان همهم الاحتفاظ بالقوة الضاربة، آملين اجتياح العراق وكسر شوكته... ففي إحصائية غير دقيقة قُتل من هؤلاء الأطفال أكثر من مئة الف على مدار سني الحرب.

حين تطوع زاهد لم يكن يدرك المعنى الحقيقي لمعنى الحرب قبل أن يرى سوح الجبهات بأم عينه، كان همه أن ينجو من قسوة عمه، أن يلفظ ذاته في سماء الحرية..

بعد أن اختمرت فكرة التطوع في ذهنه خرج من البيت ولم يعد إليه لتوديع أخوته وأمه، ربما لو فعل ذلك لكانوا منعوه عن أقدامه وخاصة إذا ما علموا بحقيقة نيته.

المرارة التي لاكت بفمه والظلم الذي لاقاه من عمه، منعه من التفكير بهم، كأنَّ تلك البقع التي وشمت جلده نتيجة قسوة سياط العم والتي لاكت جسده بالكدمات، منعته من التنازل والعدول عن قراره..

العذاب الذي تلقاه، والعقد التي لصقت تحت لسانه، شغلته بهمومه الخاصة، لم يستطع التفوه بها، منعته من النظر للخلف، خرج من البيت بائسا، يائسا، حزينا لا يقوى على الفراق ولا يأبى الصبر والمرار.

خرج ولم يعد .....

هذه العبارة تلخص فكرة القدر الذي ركب مركبه زاهد، مخر عباب المشقة بكل ما لها من جبروت، الحياة لم تكن بالنسبة له نزهة، لكنها تدهدرت به لتكملة مشاويره لأجل قادم. استسلم تماما لنية القدر وسلم أمره لله.

عمل زاهد في صنف الإعانة والطبابة. أقتصر عمله على توصيل مياه الشرب والأكل للقطاعات المتقدمة أثناء الوضع العادي، فيما خلال المعارك كلف بنقل جرحى القوات الإيرانية، وتقديم الإسعافات الأولية لهم لغاية نقلهم لمراكز الطبابة الخلفية، وجمع الأسلحة المتروكة في ميدان المعركة، كما شارك في دفن جثث قتلى العراقيين في مواضع جماعية ولملمة أقراص تعاريف الموتى.

لم يكن من الذين أسعفتهم الحياة، لقد خرج من شرنقة الأب ليدخل في شرنقة الحرب بسبات طويل وإجهاد نفسي عقيم. البراءة لا تحتمل كل هذه القسوة، أنه ليس ألة جز الصعاب وحرث اليباب، لم تعد تكمن في داخله بهجة ربيعة، أنه مكبل بسلاسل عقد الدنا التي هرست فكره وصبره، عجز أجبره على ترك المدرسة وتحمل فراق أمه وأخواته. وثاق شلَّ فكره، منعه من أن يسوي سلوكه وعمله، دائما ما كان يجد الهم شريك يومه، يزاحم سعادته، يقحم أحلامه، تلك العُقد اقلته لغاية

التطوع، ود أن يجليها من سواد ليله. لم يدرك حجم مخاطر مجازفته التي فرشت بطرقه كأشواك شرسة تجرح احلامه، قيدت حريته، جزلت تعامله مع من هم أكبر منه سنا، جعلته يتحمل سلوكيات وعبث الآخرين بمختلف شرورهم، تلك التي يعجز على تفسير شفراتها. الكثير من الأطفال من هم على شاكلته ومن تتوافق أعماره من سنه كانوا قد تعرضوا لحالات الاغتصاب من قبل من يكبرونهم سنا، في الحقيقة الشارع ومعسكرات الجيش تجمع الصالح والطالح، فقِدْرٍ الطبخ يحوي المهروس والجدب الذي لا يمكن هضمه.

لكنه كان واعيا للمحاولات هؤلاء، ربما القسوة التي تعرض لها من زوج أمه علمته بعض سلوكيات الشارع الخبيثة، والتي شاهدها بأم عينه وتجنبها، بعد محاولات الهرب التي أجبر عليها مرات قبل التطوع، والذي أضطر خلالها أن يجوب الأزقة ويتسكع في الشوارع، تلك الأوضاع قادته إلى الدياحة والتجوال ومصاحبة بعض السفلة لساعات متأخرة من الليل، قبل أن يعود أدراجه متسللا إلى البيت. لقد تعود على العودة المتأخرة في جوف الظلمة، كان ينتظر أن يغشي عمه الأرق وأن يغور في سكرة الكرى ليدخل البيت دون شوشرة وزعيق وصراخ. استمر على تلك الشاكلة من السلوكيات المنحرفة؛ لاشمئزازه نظرات عيني عمه المقلقة، تلك التي كان يطره بها بحدة عينيه الصفراوين. كان لا يود أن يشاهدهما وهنَّ مكتنزتين بالاستفسار وعلامات الاستفهام المغرضة...

أين كنت؟

كم حصلت من مبلغ؟

كم صرفت؟

لمَ لمْ تجد عملا؟

ماذا ستأكل غدا؟

..الخ من أسئلة تحط من عزيمة الفرد، يرمى بها في وجهه في

كل لقاء، تلك السهام السامة والسياط المرة التي تصيبه، تجرحه وهي تحاسبه على ذنب طفولته، والتي لم يقبض على لهاف مفاتنها من شيء، بعد أن غرست نظرات عمه اسافين الكآبة والخوف في صدره.

التأخير كان عاملا مرهقا بالنسبة له، يرهقه في منامه، وفي أكل طعامه، الطفل بحاجة لساعات نوم كاملة واسترخاء كاف، حيث تقدر ساعات نوم الطفل من عشرة إلى أثنتا عشرة ساعة باليوم الواحد، لكنه لم يأخذ كفايته من النوم، دائما ما كان عمه يزج به في المتاعب الحياة منذ باكورة الصباح، يزج به بأعمال صعبة، ثقيلة، تفوق طاقته، لا يحتملها عضل يده، تجده يترنح بين سكرة الكدر والإرهاق النفسي. كثيرا ما تجده يعوض فقدان نومه بالنوم في الطرقات، أو في أماكن عمله، أو في زوايا الشوارع على الأرصفة كالمشردين، أو في ركن ما كالكلاب السائبة. لذا تجده دائما ما كانت تحيط به الوحوش المفترسة، محاولين استغلال تلك البراءة في عمل غوغائي قذر، يحط من قدره.

هؤلاء أولاد الشوارع والسوابق كان قد أحتك بهم مجبرا، تعلم منهم عناوين الإساءة والمراوغة دون أن ينخرط في سلوكياتهم القذرة، فوجد في سليماني وآزادي وأحمدي عِبَر استلهم أثارها، هؤلاء اللذين لم ينتبهوا على أنفسهم، جرفتهم موجات سلوكيات موبوءة لوهدة السقوط والسفالة، حتى باتوا كسلع تباع وتشترى ذممهم بين شلة الغاوين.

وجد فيهم حاجز صد يمنعه من الانخراط بسلوكياتهم المشبوهة والمُعرفة بالخسة والنذالة، هذا ما دفعه أن يجرد نفسه من هؤلاء، ليؤمن ذاته من السقوط في فخ اللواط. كان خلال التحاقه بالعسكرية قد اخذ بنصح الرقيب كريمي مسؤول عن الوحدة التي ينتمي إليها: عدم السهر، عدم التعامل مع من هم أكبر منه سنا، عدم الاشتراك في عمل مشترك دون اقرانه،

عدم الانخراط في بيئة غير بيئته.
الالتزام بتلك النصح لحفظ كرامته من العبث، كان قد وجد في كريمي عاطفة الأبوة، فمال إليه وتمسك بتعاليمه.
كلما تحل في ذهنه فكرة الهرب يستنجد بكرامته، تتراءى له صور القسوة التي كان يكيلها له عمه.....

أثناء معركة نهر الكارون المحمرة أو معركة شرق البصرة كما يسميها البعض وفي خضم تلك المعارك الشرسة بعد التوغل الايراني خلف القطعات العراقية، أنيطت لزاهد مهمة أخلاء جرحى العناصر الإيرانية إلى خلفيات مشفى الأحواز، وجمع الأسلحة الخفيفة المتروكة من قبل أسرى وقتلى القوات العراقية المتقهقرة، ودفن جثث قتلاهم في مقابر جماعية، مع الاحتفاظ بأقراص تعريفاتهم في مدفنهم وتسجيل اسمائهم.
حينها كانت القوات العراقية بما تبقى منها قد انسحبت إلى الستار الحدودي الفاصل بين البلدين... في تلك المعركة المباغتة أُسِرَتْ جُلَّ القوات المتقدمة، باكورة استطلاعات الجيش العراقي وهي تطل على مشارف مدينة الأحواز على بعد قرابة 100 كم عن مدينة المحمرة.
على ضوء ذلك صار يفتش عن الجرحى والقُتلى في الملاجئ العراقية المتروكة والمدمرة لجمع ما تبقى من الأسلحة ودفن الجثث في أماكنها، وهو أمر شاق أمام طفل لم يشاهد قتلى ودماءً تنزف وجثامين مبعثرة من قبل، هذه المرة الأولى التي يشترك في معارك حقيقية طاحنة، أول مرة تسقط عينيه على بشاعة صور الحرب، شاهد تناثر الجثث في العراء، والتي تعبر عن حدة المعارك الدائرة في الميدان، جثث مشوهة تركت وقعا مخيفا على نفسه، أيادٍ وأرجلٍ مبتورة، موزعة على السواتر ممرغة بالأتربة، وكأنها خراف جزت

كأضحية العيد، تكاد الأرض تبكي ألما وحزنا وشفقة على هؤلاء الشبيبة المساكين، المظلومين، الأبرياء، الذين راحوا ضحية وسوسة شيطان وعداء غير مبرر بين قادة البلدين.

كان قد شاقه الحزن على هدر تلك الأعمار الفتية، التي زهقت دون ذنب، خيل له الأرواح تتطاير أمامه كعصافير تركت شجرتها. في لحظة ما خيل إليه ذاته من بين هؤلاء القتلى، ممزق الأشلاء كتلك الجثث المتناثرة في العراء...حينها ذرفت عيناه دموعا على حاله، أخذته الرأفة بنفسه، صار يلوم ذاته ويعتب عليها على تسرعه بتطوعه ومعادات عمه. احتقنت أنفاسه. يا ترى؛ كيف ستسبر الأمور خلال الأيام والسنوات القادمة؟ فإذا ما نجى من فك الموت اليوم، فلن يحصن ذاته من الغد المجهول... تلك الحالة من الرهبة كدمت ظنه، شلت أفكاره، شغلته عن محيطه.

صار يدفن تلك الأشلاء بمقابر جماعية قبل أن تتفسخ وتتحول لصيغة يصعب التعامل معها، هناك جثث مخفية عن الأنظار، مغشية في الملاجئ وتحت ظلال الحشائش والأدغال، عطنها صار يدل عليها، بعيدة عن أنظار آكلات الجيف والحيوانات الزاحفة، أضحت إنتانها تغطي على عبير زهور الربيع المتقدة بهجة ورونقا في المعمورة.

يا إلهي؛ المنظر مرعب والحرب سجال، لِمَ كل هذه المجازر، ماذا يبغوا العراقيون منا؟ وماذا نبغي نحن منهم؟ على ماذا نتصارع ونتقاتل مع بعضنا؟ ألسنا جميعا مسلمين؟ إلا يجدر بنا أن نتحد ضد العدو الفعلي الذي يود النيل منا؟.

تعثرت قدمه بيد مبتورة، توقف قليلا، صار يجادل نفسه وهو يحدق في تلك اليد الطرية، احتقن الدم في وجهه، ترك ذهنه تجول في تلك الأنامل الطرية والساعد والتي تدل على فتية صاحبها، تدل على أنه لم يهنأ بحياته، لم ينل من كأسها رشفة سعادة، أنها ناعمة وكأنها يد فتاة في مقتبل العمر. لم

تشقى بعد، لم تواجه الصعاب، لم يصقلها الجلد...

تـرى لمـن هـذه اليـد؟ وتلـك الأرجـل المبتـورة والـرؤوس المهشـمة المدنسـة بوحـل التربـة؟ مـاذا عـن أهـاليهم؟ عـن ذويهـم واطفـالهم وزوجـاتهم؟ أنهـا المأسـاة، نبتـت لهـا جـذور يـأس وجـذوع فـزع فـي هـذه الحـدود الملتهبة...صـار يـدعوا ربـه ينجيـه؛ يا رب الطف بنا، يا رب ألطف بنا.....

الجثـث منثـورة علـى مـد البصـر، سـئمت روحـه مـن الحالـة، ميـدان القتـال يشـيع رعبـا وجزعـا، شـاقت النفـوس هـوام اليـأس والحـزن، يـا تـرى هـل تلـك الجثـث ستسـأل ربهـا عمـا جـرى لهـا والحـال الـذي آل بهـا؟ لِـمَ بتـرتْ وقطعـت؟ لِـمَ رميـتْ فـي العـراء؟.. أكيـد ستسـأل ربهـا؛ لـم جـار عليهـا هـذا الظلـم الأسـود؟ فـي هـذه البقعـة الموحشـة؟ مـا ذنبهـا؟ مـا حـال ذويهـا؟ كيـف سـيتلقون أنبـاء الوداع؟ أين سَيَؤول بهم المصير؟.....

كـان الله قـد علـم البشـر دفـن الجثـث بإشـارة مـن الغـراب، وكـان قـد خلـق الأنسـان فـي أحسـن تقـويم، ورغـم أنَّ خلقـه لنـا يعتبـر مـن كراماتـه وحسـن تقديره لنـا بعـد أن فضـلنا علـى بقيـة خلقـه؛ إلا أننـا انحرفنـا عـن منهجـه، سـلكنا سـلوك الحيوانـات، بـل أضـل سـبيلا، افتقـدنا إنسـانيتنا، فلـم نراعـي تلـك الكرامـات التـي خصـنا بهـا الله، مـا خلقنـا إلا لنعمـر الأرض ونعبـد الله، ونلتـزم بالشـرائع التـي نزلـت علينـا، لنرتقـي بقيمنـا وتعاليمنـا وعقولنـا حـدود الإنسـانية، لنحـافظ علـى طبيعـة الارض والبشـرية.. فمـن الظـاهر قـد غلبـت صـفة الشـيطان صـفة الالوهيـة عنـد الـبعض، لـذا طغـى الشـر المؤذي وساد بين الملأ.

أن لـم نـدفن الجثـث سـتأكلها العقبـان والنسـور التـي تحـوم فـوق سـاحات القتـال، كأنهـا تشـم رائحـة الـدم عبـر المسـافات، بـات النـتن المثـار يـزكم الأنـوف، تلـك العقـاب كـأنَّ لهـا درايـة فـي نتـاج المعـارك، حيـث تتبـع سـرف الـدبابات وهـدير المـدافع، لا تتهيـب

مـن أصـوات الانفجـارات، كأنهـا تعـودت علـى رعـدة الصـواعق وهديريها.

حسبنا الله ونعم الوكيل....

حسبنا الله ونعم الوكيل

حسبنا الله ونعم الوكيل على كل من أشعل نار الحرب وعلى كل من غذاها وتمسك بها، وعلى من جنى أعمار الشباب ودعس على طموحاتهم ..

جثث متناثرة، المنظر بشع، امتزج الدم العراقي بدم الإيراني، تُبلت اللحوم بذرات الثرى، التي عجنت بدماء الشباب الزكية الطاهرة. تعطرت الجثث بكافور التربة، تعلقت الأرواح بسقف السماء كمصابيح نيرة، تذكرنا بالله والمحبة والسلام، مضت إلى دار القرار في هجرات جماعية كسرب الطيور. تلك الأرواح زرعت ثورة في نفس كل مقاتل ضد الهمجية المباحة، ضد قرار الحرب وجوره، هاجت مع اشتداد العصف، مع لعلعة المدافع ونفور النيران وغبرة الأتربة المجنونة.. اغتاظت، ارتقت عنان السماء بأراهط وهي تستنجد بالخالق من همجية القدر الذي داهمها.

دار سؤال في خاطره.....

من هو القتيل؟ ومن هو الشهيد؟ ....

سؤال علق بذهنه وهو يدفن الجثث..

من هو المسلم ومن هو الكافر؟...

أظن كلاهما أسوياء في القدر والظلم، ماتوا دون ذنب، دون أن تكون لهم رغبة حقيقية بالقتال، ماتوا بحكم كونهم مسلمون أراد العدو أن يفتن بينهم وينتقم منهم، تورطوا بحكم عنجهية قادة البلدين- الله عز وجل يذكر في كتابه الكريم" لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى" صدق الله العظيم.

صار يجمع الأشلاء المبعثرة ويدفنها في حفرة جماعية،

كان يعمل إلى جانبه حفار شفل، يستخدمه لسرعة أنجاز العمل، أحيانا يدفن الجثث في حفر الملاجئ المتروكة، يردم تلك الحفر بكيلات من الأتربة، دون أن يقرأ عليها سورة الرحمة (الفاتحة) خوفا من تشفي زملائه به فيعاقب على جريرته، ثم يضع عليها شاخص ما يبين إنجازه عمله، وليكون دلالة على من دفن، كان يجمع السلاسل التعريفة المعلقة بأعناق القتلى في علبة معدنية مع ورقة بأسمائهم ومن ثم يدفن نصف العلبة في التراب إلى جانب شاخص الدلالة. ليعرفوا بعد حين عدد من دفن في تلك البقعة. الشاخص البارز إما أن يكون حجرا من آجر القرميد الأحمر أو بلوكة إسمنتية أو خشبة من علب صناديق العتاد يوضع فوق المدفن، ففي كل الأحوال كان يطلي ذلك الشاخص بلون أحمر، دلالة على أن المكان فتش وانهى مشوار عمله فيه.

صار يسجل في اليوم الواحد معدل من خمسة إلى عشرة مواضع دفن، وحسب أجواء المعركة، لشاسعة المساحة الموبوءة وبشاعة المناظر، حتى جزعت نفسه من هذا العمل المقرف، المبطن بالعذابات النفسية والروحية والفكرية، أحيانا يجهش بالبكاء وينددب حظة بتطوعه، فلم تكن عنده فكرة واضحة عن طبيعة العمل الذي سيقوم به، هجس بقسوة العم أهون عليه من بشاعة المناظر المحيط به، والمكلف بتسويته.

باتت صور البشاعة تراود مخيلته في منامه، صارت تتهافت الكوابيس المخيفة على أجفانه، تؤنبه، ترهبه وهو يرى ذاته في الوجود كلوحة تعبيرية مملة، كشجرة يابسة جلدة، ما أن تهزها الريح حتى تنفض أوراق جزعها ورعبا.

هكذا تجده غارقا في شجونه، ما أن يستمع لأزيز النار في أعماقه حتى تنتفض جوارحه وأحاسيسه من الفزع، يجفل من غفوته وهو مشحون بالهم والقلق، صار يعد أيامه ويحاسب ذاته، حيث مع استمراره في الخدمة توقع مصيرا مشؤومٍا

يصيبه، ولن يكون أفضل من مصير هؤلاء.

تلك الصور أصبحت جزءا من كيانه وعمله اليومي، أثرت في فكره وقيمه وشخصيته، رافقته في سكونه وضجره وفي أوقات راحته. بات يراها كعرة ملصقة في ذاكرته؛ تحذره من مجهول ما يتبعه، يهامسه. شك ما دخل جلده كفايروس، أضحى يشم عطن شرر الغد بأنفاسه.

هوس الخوف غرز في ذهنه رهبة، خارت في قادم الأيام، كبلته بفكرة الهرب من الجبهة، دعته لانتشال ذاته من فك الجنون والوحشية قبل أن تسلب إرادته ويصاب بداء الهوس والفتك مثلما رأت عينيه، قبل أن تتحول إنسانيته إلى غوغائية تدعس على القيم التي تعود عليها العقل، قبل أن يصاب بهلوسة الحرب ويفتقد كراماته، قبل أن تفترسْه العقد ويصبح في خبر كان، قبل أن يصبه الجنون ويصبح هوية له.. ربما تتعطل فيه المشاريع الإنسانية التي يقوم بها، ربما ستغطي واقع طفولته وبراءته الوان غثة، فلا يجد في داخله شيء ثمين يعتز به.

الخوف والهوس زعزعا شخصيته، بات ضَمِيرُهُ يوَازِعُهُ على التنصل، يحثه على استلهام فكرة الهرب والتملص من فك الحرب وقيده قبل أن تفرمه شفرات الشظايا. احيانا تكيله أفكاره لفكرة الانتحار بعد أن وجد ذاته تعيش لـ لا شيء، كره شكل العبث الدائر من حوله، فلا يَمْنَعُهُ من اتخاذ قراره سوى الوَازِعُ الديني والخُلُقِيُّ بآن يرتكب جنحة ما بحق نفسه لتخليصها من وصلة العذاب.

تهلهل صبره، سُوِّف ظنه، صار يجادل نفسه دون أن يصل لنتيجة أو قرار.

ترى إلى أين الهرب؟

إين يتجه؟

ثم ماذا بعد الهرب؟ كيف سيعيش؟...

اسئلة محيرة طرأت على فكره، حيث لا ملجأ يأمنه، ولا قريب يسنده، يجيل عنه الخطر المحيط به. حتما ستتبعه كلاب الحرس لتوشي به، حتما سيودع في السجن. المنظمات الحكومية المكلفة بمتابعة الهاربين ستقتفي أثر كل قانط وهارب ومتخلف ومتردد عن خدمة العلم، خوف زاهد نبع من أنه لا يود أن يعود لنكد الشارع وعجرفة عمه، ولا لنظرات البؤس تلك التي آلمته.

لا شك فيه أن لكل إنسان خصائص وصفات تميزه عن غيره في أسلوبه وتفكيره وتصرفه وإحساسه وإدراكه وردود أفعاله. هذه الخصائص والصفات تشكل في مجملها جوهرة شخصية الفرد التي استقاها من تربيته وبيئته ومن محيطه وتعليمه، يمكن تعريفها بأنها تلك التشكيلة الفريدة من الانفعالات والأفكار والسلوكيات التي تتيح للإنسان أن يبرز ويتألق بها بالمقارنة مع زملائه..

سمات وانساق ثابتة نسبياً يبلورها الزمن على أنماط مختلفة من الأبجدية الفكرية التي تقوده في مشاويره، تفرد الإيجابيات الفردية والجماعية، ترسم له صورة شخصيته في عيون الآخرين. قد تتأصل بالشخص أو تنحرف به، وقد تنمو أنماطا عشوائية مضطربة في شخصية الفرد تقيم ذاته في عيون الآخرين..

المهنة التي يمارسها الانسان تؤثر في شخصيته سلبا أو ايجابا. تؤثر على أساليب تفكيره وإنسانيته، وعلى صحته واضطراباته الجسدية والنفسية. فالصحة عبارة عن نظام متعلق بالعصارات الهضمية والعصبية التي يتعرض لها الانسان، والتي تؤثر أنزيماتها عليه حسب الموقف بالحزن أو الفرح الناتجة عن تلك الاضطرابات والانفعالات التي يتعرض لها من قلق وسعادة وراحة بال، وهكذا دواليك.

من المعروف أن هناك أمراضاً وصفاتا مهنية يتعرض لها

الأشخاص الذين يمارسون مهن معينة، وتلك معروفة بنسب معينة ومختلفة تؤثر على سلوك الفرد، تختلف معدلات هذه الأمراض عند عموم الناس من شخص لآخر. على سبيل المثال يتعرض العاملون في المواد الكيميائية وعمال المناجم لأمراض تنفسية انسداديه وسرطانية واعتلالات في الكبد والكلية والدم وغيرها، بسبب الغازات المشعة والغبرة التي يتعرضون لها أثناء عملهم. كما يتعرض العاملون في تربية المواشي ونقلها وذبحها لعدد من الالتهابات الخاصة، بسبب انتقال عدوى الحيوانات لهم مثل مرض الحمى المالطية.

لذا ونتيجة لعمله الشاق مع الجثث والجرحى؛ قد يتعرض زاهد لجرعات من الامراض النفسية كالكآبة المفرطة، تلك الجرعات أضحى يأخذها كحقن يومية من خلال تلك المشاهدات المريبة والمكررة على ذاته في ساعات عمله، دفن الجثث ونقل الجرحى وطبابتهم أثرت فيه، جلدته، عذبته، كرهته بعمله وحياته، بات يهجس ذاته وكأنها تعمل في مشرحة أو مجزرة حيوانات، كل ذاك كان له انعكاسات نفسية وفكرية عليه، أنه لازال طفلا لم يبلغ رشده، ناهيك عن انعكاسات لون الدم على نفسية الفرد...

البراءة لا تحتمل تلك الجرعات الثقيلة من السموم والهموم، من الرعب والخوف والاشمئزاز، إضافة لفيض الكوابيس الليلية المتهافتة عليه. لذلك أنه صار لا يحتمل بشاعة القتل ولون الدم في شريط عمله اليومي المحزن، أضحت حياته مشروخة لا ينفع معها الخِياط.

في لحظات الضحك يدب نشاطا في خلايا الجسد، يُعين الفكر والبدن على الاسترخاء، يضفي عليهما راحة نفسية وصبر لتخطي مراحل العجز واليأس والقنوط، بينما الحزن يزيد النفس دكنة وشرودا ولوعة، تلك الحالة المظلمة تأمر أجهزة المرارة والبنكرياس من أن تزيد من عصاراتها

الحامضية والمرة.. فتدخل سمومها لسيتوبلازم الخلايا، فتشل حيوية الأنسان وتنعكس طاقته على قنوات وجهه كحالة بؤس ويأس مركبة، تصيبه بحالة فشل والانحلال.
فالضحك يثير بهجة وسعادة، يحرك معظم عضلات الوجه والجسم، فتزداد نبضات القلب ويتوسع التنفس، حينها تزداد إفرازات هرمون الغدد الدرقية واللمفاوية، مما تساعد الفرد على تخطي مرحلة الاكتئاب.
ولكن.. كيف يضحك الانسان في يومه وهو مكبل بالعقد من حوله؟ كيف وهو المكلف بانتشال الجرحى ومواراة الجثث؟...
يا ترى؛ هل الضحك فن ليتقنه، أم تقنية لا إرادية تنم عن مواقف طريفة تحفز عضلات الشخص على الانشراح والسعادة؟
لذا عانى زاهد كثيرا في عمله، لم يستطع تخطي أسورة العقد الشاهقة التي تكبل بها، والتي كبلته بالشقاء وبالأوامر العسكرية، أنه أشبه بعجلة من العاطفة مسير دون إرادته، الخيارات غير مطروحة أمامه، لن يتمكن من اختيار قدره، الأبواب مؤصدة امامه.
هكذا بقي يعاني من صمته ووحدته وهو يناجي ربه الرأفة والخلاص، علَّه ينفذ من شباك قدره المكلوم لقدر ما أنفهه يسعده.

أستمر زاهد في عمله بدفن الجثث في مدافن جماعية مع نقل قتلى وجرحى الإيرانيين للقطعات الخلفية، بقي يتحمل إرهاصات الضغط النفسي وقرف الحالة على مضض، وجد في تلك المناظر التعيسة المحيطة به قدره ونصيبه، فتحمل وزرها.
الحياة في مجملها فرص، أخذ وعطاء، ما كان يحزنه هو أمر والدته وأخوته، كيف يمكن إسعادهم، هؤلاء الذين تأملوه

يكبر ليعينهم على الفقر، فهم مصدر بقائه ورجائه وسر تفانيه...

لكن تلك الغلة التي تلقاها من قبل زوج أمه جعلته دميم، أصم، تحول لحجرٍ مؤذٍ لا يصغي لنصح، ولا يشغل باله بأمور الغير. في الحقيقة الذي لا يُعين نفسه لن يعينه الغير، قد تمضي تلك العقد معه حتي النهاية، تبقى ملتصقة به كعاهات نفسية لا يمكن التخلص منها.

من الجميل أنه تمكن من انقاذ نفسه رغم صغره، وقبل أن يصل لمرحلة التشرد في الشوارع، الفطنة التمعت في ذهنه، قادته لتخطي ما لم يتخطاه أقرانه أمثال سليماني وآزادي وأحمدي، الذين بقوا متسكعين في الشوارع دون رشد. هؤلاء المشردون لم يجدوا من يأخذ بأيديهم، قادهم التيه لمنحدرات الخسة والقذارة، لمتاهات الشوارع، أدمنوا على المخدرات وتدخين الحشيش والسكر، تبعوا الموبقات أينما وجدت.

للطفولة حقوقا يجب أن تراعى من قبل الدولة والأسرة على حد سواء، لا يجوز استخدام الطفل في مجالات العمل قبل بلوغ سن رشده، يمنع زجه في أتون الحرب، يحظر تكليف الطفل بأمور أكبر من سنه، يحظر الإتجار به على أية صورة من الصور، يجب ان يعيش الطفل طفولته ليستطيع تحمل أعباء الوطن والأسرة في المستقبل.، تلك الأمور قد تعود على صحة الفرد وتعليمه بانعكاسات سلبية ومستقبلية تعمق فيه الضرر، قد تعرقل نمو جسمه وعقله. يجب أن يتمتع الطفل بحماية تامة تؤهله لمجالات الحياة. هذا ما صرحت به لجان حماية الطفولة في الأمم المتحدة اليونيسف، لكنه في الدول النامية لا قانون يطبق ولا طفل يُتابع أو يُراعى من قبل الدولة.

المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والتربوية، والتفكك الأسري، والجهل وبعض العادات والتقاليد البالية وقلة الثقافة

والتسرب من المدارس، كل ذلك له وقع سيء على الأطفال.

يرجع سبب تعرض ذلك إلى أن الكثير من الأطفال يتعرضون لقسوة المعاملة، إلى العقاب البدني والنفسي من قبل المدرسين وأولياء الأمور، وكثيرة تلك الحلات المنشورة صورهم في فديوهات على صفحات برامج التواصل الاجتماعي (السوشيل ميديا) مثل الفيسبوك والانستغرام أو اليوتيوب وبالذات في دول العالم الثالث، يرجع ذلك لتخلي الدولة أو وزارة التربية عن دورها التثقيفي والمنهجي في التعليم إضافة إلى ضعف التقييم وتقدير دور المعلم.

ذلك ما حصل مع زاهد، الذي لم يجد يد حنونة ترفق به، لم يتابع بجدية من قبل ولي أمره، كما أن الشرائع والقوانين في البلد اقتصت منه، حيث لا يوجد قانون يردع أولياء الأمور في حالة تجنيب أبنائهم كرسي الدراسة، أو منع العنف وأفراط القسوة مع الطفل.. كان قد اجتمعت عليه أقدار الفقر وقسوة زوج الأم والعنف المدرسي معا، تلك الظروف جعلته ينبذ الحياة ليتطوع في السلك العسكري.

على أية حال أصبح وضع زاهد الجديد في جبهة القتال معرضا لمزيد من الضغوطات النفسية والقسرية، أشتد عليه كابوس الخوف مع ديمومة الحرب، كأنه خرج من فخ العم ليقع فريسة العسكرية، تلك الأكثر قسوة والأكثر ضيما وهما، حيث لا تنتهي صولاتها، صورها مليئة بالبشاعة والعبثية، التي تؤثر في نفسيته بالسلب، جعلته يركن إلى الوحدة والتفكير والتعقيد، بعد أن تحول إلى آلة تسلب من لدنه الرحمة والتفكير، لا يستشعر بما تحت قدميه من لهب وغم.

خلال تلك المعركة كانت القوات الإيرانية قد فجرت معظم الملاجئ، خوفا من أن تكون كمينا يوقع خسائر بصفوفها ويعرقل تقدمها، فيما استمر زاهد في عملية دفن الجثث وجمع الأسلحة المتروكة من ساحة المعركة والملاجئ.

4- لقاء زاهد بنجاح

أستمر زاهد بديدن عمله في تفتيش الملاجئ ودفن الجثث بمقابر جماعية، كان يدرك عمله متعبا من الناحية النفسية والجسدية، وكان عليه إنجاز عمله بالشكل المطلوب طمعا في إرضاء ضميره أمام الله وإرضاء مسؤوليه، لينال الثناء من الله ومن لجنة التقدير المتمثلة بقادة الجيش....

بعد أن أدرك زاهد ملجأ نجاح، وبعد أن شاهد بأم عينه أثر القذيفة؛ تأكد بأنه لابد لهذا الملجأ قصة تختلف، بأن لهذه القذيفة ضحايا في الداخل. لذا أصر على دخول الملجأ، قوة مجهولة شجعته إلى البحث عن ضحايا واسلحة في داخله، ربما الفضول أغراه لملاحظة حجم تأثير القذيفة من الداخل.

كان متأكد من أنه لا أحياء داخله، حيث القذيفة التي اصابت الملجأ اصابت الزاوية الحادة منه، أي أنها حفرت حفرة جديدة أدمجتها مع الملجأ، بعد أن خسفت جزء من سقفه. إذا لابد من وجود ضحايا في داخله. دخل الملجأ بحذر وفي يده مصباح إنارة صغير ليساعده على الرؤيا..

كان حَذِرا، خائفا من سخط المفاجئة، فالفكرة المأخوذة على الجندي العراقي بأنه لن يستسلم، أما أن يفجر نفسه أو يظفر بعدوه. لذا كان يتوجس خيفة من المجهول الذي ينتظره.

مع دخوله الملجأ كان قد سمع صوت قرقعة، في البداية توقع قرقعة سلاح، لذا توجس خيفة، توقف وهو يصغي لمصدر الصوت، الملجأ معتم، بدخوله كان قد أعشيت عَيْنَاهُ بعد أن أختلف عليه تركيز الوسط. ما أن أستعاد بصره؛ حتى

سقطت لاحظة عيناه على جنديٍ مضرج بدمائه.

كان الصوت ناتج عن حركة لاإرادية أفتعلها نجاح بعد أن وجد شخصا يدخل الملجأ. حينها هجس بغبطة، أخيرا جاء من ينقذه. الصوت لم يكن صوت قرقعة سلاح إطلاقا، إنما الخوف الممزوج بالفرحة جعله يحرك ساقه لتحرك بذاتها صفيح الألمنيوم المنهار من سقف الملجأ. الخوف الكامن في أعماق زاهد فسر له صوت حركة القدم باستعداده الدفاع عن نفسه. خاله ذلك الصوت بأن شخصا ما هيء ذاته لوضع الاستعداد والرمي، خاصة أنه لم تكن له خبرة ودراية كبيرة باستخدام الأسلحة إذا ما أخذنا فترة إعداده القصيرة والسريعة في معسكر الأعداد.. فترة شهر أو شهرين من التدريب ليست كافية ليكون الشخص خبيرا في مجال عمله، إضافة لصغر سنه، حيث لم يكن قد تجاوز عامه الثلاثة عشرة.

فيما في المقابل بعد أن شاهد نجاح طفلا يدخل الملجأ؛ أستعد لمحاورته، استند في ذلك على سلاح الإنسانية والتفاؤل، ليتمكن من إزاحة شبح الموت الدائر حوله، حيث زاهد لم يكن مسلحا في حينه، لقد دخل الملجأ بمصباح إنارة يفتش عن أسلحة القتلى المتروكة. لذا ما أن رآه استنجد به نجاح، اطمأن له بعد أن وجده يتحفى بوجه طفل بريء، حينها أدرك بأنه وقع في قبضة القوات الإيرانية، حيث القوات العراقية لا تزج الأطفال في الحرب، لذا حاول استعطاف زاهد بعد أن تطمأن له، صار يبكي فرحا لتوافق الحدث مع حلم أبيه..

نجاح لم يكن يعلم بما آلت إليه نتائج الحرب، لكن هاجسه أوحى له ذلك، بعد أن عجز صبرا بنجدة رفاقه.

لم يتوقع إطلاقا وصول القوات الإيرانية لمواضعهم في خلفيات القوات العراقية وهي على بعد 100 كلم عن خط التماس، لكن حين سقطت لاحظة عينيه على وجه زاهد، تأكد له ذلك..

من خلال الإعلام كان قد سمع بأن إيران تزج بالأطفال في جبهات القتال، لذا خمنَّ من لباسه المدني بأنه ينتمي لحرس خميني. باتت الدموع تنهمر من عينيه، توقع بأنه سيقتله، لذا استنجد به قائلا له:...

- أرجوك...الله يخليك.. الله يحفظك ساعدني.

لم يكن زاهد يفهم المقصد، ولكن الدموع التي انهمرت من عينيه والتذلل الواضح في ملامح وجهه المتعب، المرهق، كان كافيا ليعبر عن مغزى ما يريد، زاهد فهم المقصد ولم يفهم منه سوى كلمة الله، استلم الرسالة من فم نجاح، تكبل بالرحمة، الآلام التي اعترته جعلته إنسانا متسامحا، كريما، عاجزا عن الحركة، لذا أبتسم بوجه نجاح كردة فعل منه ليطمئنه.

عندما فتش زاهد ملابس نجاح؛ لم يجد في جيبه سوى قرآن صغير وتوسلات تغمر عينيه. كان مجهدا جدا، فاقدا القدرة على المواجهة والحركة. حين تصفح القرآن وجد في داخله صورة ناديا وأبنها، تجمد في مكانه، غازلته الرحمة، خيل له صورة الزوجة والأبن، الصورة عبرت له عن المأساة التي يعيشها نجاح، فأصيب بسهم العاطفة، تحرك وجدانه، حينها توقدت في ذاته الرأفة، دفعه إلى أن يتخذ قرارا بنجدت نجاح...

لم يتأخر زاهد في ردة فعله، طبطب على كتفه، ضمد جراحه، تلك كانت إشارة منه لاطمئنانه، ثم اعطاه حبة بروفين لتسكن آلامه وقليلا من الماء.. تلك الإشارة أودعت السكينة في قلب نجاح، فأستسلم لأمره.

بعد أن سرط الحبة ارتخت عضلات مخه وانحل جسده ليرقد في مكانه، كان زاهد قد وعده بالعودة لنجدته قريبا، كانت لغة التفاهم بينهما هي لغة الإشارة.

ما أن خرج زاهد من الملجأ حتى غص في سباته، كان بحاجة ماسه لراحة الجسد والبال، لما شاقه من عذاب النفس

ودجنة اليأس بعد يومين من وقوع الفاجعة وهو مرمي في كوة بين الموتى الذين بدأت تتفسخ جثامينهم...

الصورة حركت عواطف زاهد، القرآن ذكره بالآخرة وبالرحمة، كان لدعاء الأم استجابة آنية، حين دست ذلك القرآن في جيبه وهيَّ تودعه وداعها الأخير، موصية به:..

- احتفظ بهذا القرآن؛ سيحميك وسينجيك من الكرب..

رأف زاهد بنجاح، أدرك وجوده لم يكن رغبة منه، أنه مأمور بهذه الكارثة، مجبر على ترك عائلته، لذا قرر مساعدته، تصرف معه بلغة الإنسانية، طلب منه الاتصاف بالهدوء وعدم الشوشرة، كي لا يشعر بوجوده غيره فينتقم منه. ربما أرسله الباري لينقذه من مأزقه، ربما قادته روح الوالدة الدائرة حوله كالريح، فيما روح الوالد لم تفارق مخيلته قط. ربما دعاء الوالدة ارهفت قدمي زاهد لنجدة أبنها، فلو دخل عليه حرس خميني لن يرحموه بتاتا...

كان حلمه بوالده قد ترك فيه أثرا طيبا، مشبعا بالتفاؤل، كأنَّه أبا أن يحضر إلا وهو ينير فكره بقبس الصبر والنجاة، حاله على الصمود والبقاء، ألم يبشره بطول العمر؟ ... فذلك الحلم لم يكن حلما عابرا، أنما هو رؤيا حقيقية رسخت اليقين في ذهنه.

كان أبوه في الحلم قد حذره من الخنوع والاستسلام، وها هو زاهد يقدم إليه بشارة النجاة، جاءت البإشارة من قوة خفية دفعته لإنقاذه- ذلك العالم المجهول الذي يقبع خلف الوجود بأسراره، لا يمكن للإنسان أن يخترقه إلا بالروح والمنطق، عالم غير محدود، محسوس وغير محسوس، يمكن استطلاع أبعاده بالدين والتبصر، قد يتحسس الانسان تفاصيل أجزاء بهواجسه، بماهيته، إذا ما أمعن النظر بحيثيات المادة والتمس ضفائرها... حيث المبدأ العام الذي بنيت عليه العلوم التجريبية

هو مبدأ مادي، أي تفضيل الملموس على عالم الأرواح والأساطير والخيال، بينما الرؤيا هي من واقع الخيال والوجدان، أحاسيس مجردة، مادة غير ملموسة لا تدركها الابصار إلا بالتخيل.

لكن من خلال تطور العلوم الحديثة توصل العلم إلى ظهور ظواهر جديدة شغلت بال العلماء، خاصة في ما يخص العالم المتناهي في الصغر، كعالم الذرة والإلكترونات والجزيئات الصغيرة، وآخر متناقضة ومتنافية مع الأولى كعالم الأجرام والكواكب والمجرات والأبعاد الزمنية التي تحسب بالسنوات الضوئية، هذه الموضوعات المعقدة لا يمكن مقاربتها بالتجارب المادية بالطرق القياسية نفسها التي نقيس بها واقعنا المادي المعتاد، ذلك ما أدى إلى ظهور ما يعرف بحالة أزمة التجربة.

تعمقت أزمة التجربة مع الفيزياء التي قدمت لنا عالماً غريباً يختلف شكلاً ومضموناً عن العالم المعتاد الذي نعرفه، إذ كيف يمكن للشيء أن يتحرك بقفزة فجائية فينتقل من مكان لآخر دون أن يضطر إلى قطع المسافة الفاصلة بين النقطتين، بل كيف يمكن أن يتواجد الشخص بذاته في أكثر من مكان واحد بذات اللحظة؟ كعالم الصور التي نشاهدها. كيف لشيء أن تكون له طبيعة مزدوجة مادية وخيالية، كيف يؤثر عنصرا ما في آخر رغم عدم التلامس؟ وهو ما اصطلح عليه بالتشابك.

إن روحانية الفيزياء المعاصرة معناها أن المادة ليست مجرد مادة جامدة، وأن الطبيعة ليست مجرد جوهرة خالية من الروح، معدة للملاحظة والقياس... ثمة شيء خفي في هذا العالم يتجاوز حدود العقل، نظامٍ سامٍ يقبع خلف الظواهر المراءة، بإمكان الإنسان التواصل معه والدخول فيه، وهذه هي الخلفية العميقة للكون برمته، التي يسميها غريغ برادن الماتريكس (المصفوفة) الإلهية.

ما هو إذن هذا الماتريكس أو المصفوفة الإلهية المبثوثة في الكون كله، والتي يتعين علينا إدراكها كي نعيش في انسجام وتناغم معها؟

المستقيم الذي نراه لم يكن مستقيما أبدا إذا ما نظرنا إليه بإمعان، الأرض لم تكن مسطحة ليكون المستقيم مستقيما أنما هي كروية، أي أن المستقيم إذا ما أمتد طويلا سيأخذ شكل الأرض، وبالتالي سيكون منحنيا، والأشعة الصادرة من طاقة ما، هي في واقعها موجات من الفوتونات لا نرى تموجها بقدر استقامة مسارها الذي تسير به، لذا علينا أن نفهم لغز الكون الذي هو خارج جعبتنا المادية والفكرية، علينا أن نأمن بأن في الخفاء هناك عالم آخر خفي، لا يُرى بالعين المجردة، كعالم الجن والشيطان والملائكة والخلود..ووو.الخ..

لذا نجاح تحول بواقع حالته من عالمه الملموس الآمن المادي لعالم خفي، لعالم الهوس عبر رؤيا والده..

السؤال الذي بقي يدور في ذهنه، هو كيف علم أبوه بمصابه؟ ما السر في تلك العلاقة التي فرضت على الوالد المجيء إليه ليخبره بمستقبله؟ ذاك ما جره إلى الإيمان بالعالم الخفي، على الرغم من أنه مؤمن بذلك من خلال إيمانه بالجنة والنار والحساب الذي يفرضه دينه وهو يشير لعالم الغيب، هاجس ظل يرن في مخه؛ بأن شيء ما سيحصل خلال مجرى الأمور وسينقذه من حيرته، وقد تيقن به بعد أن حضر زاهد كرسول رحمة مبعث من قبل ذلك العالم الخفي بشكل ما، مبعث من قبل قوى خفيه أرشدته إليه، من قبل عالم خارجي يتراءى لنا بعيدا جدا وهو أقرب من حبل الوريد....

ربما لهاجس الأم رنَّة، يحمل شيء من القدرة الألوهية، حين أعطته ذاك القرآن ليكون سندا له ورحمة، ليرأف به عند الشدة، ليكون سببا في نجاته. ربما الرجاء المرسوم في وجه حبيبته الذي بان كقبسٍ نور ملائكي بإِسْتِعْطاف وإِسْتِغَاثَة

فاضت في طيات ابتسامتها، اسرت قلب ذلك الطفل فأثرت به لينجد نجاح.

إذا عطف زاهد عليه كان أول الغيث، أول لحظات الطمأنينة لحياة أخرى طويلة مثلما أخبره والده. حينها دخلت النشوة إلى صدره شعر بنفسه ترتقي رصيف النجاة بعيدا عن تلك الوساوس التي خالجته وأرهقت كاهله ولوت ذراعيه ونخرت فكره قبل مجيء زاهد..

حلَّ الطفل زاهد كملاك رحمة منزل من السماء ليرأف بحاله. كان قد أتخذ قرارا بداخله بأن ينقذ هذا الجريح من الموت، كأنه كان مسيرا بقراره وليس مخيرا، ليتوافق سره مع السر الذي تماها في فكر نجاح، أنه عزم على الوصول إلى النقطة المثالية التي ينوي نجاح ادراكها، الأثنان حضرا لتلك الغاية المجهولة دون إرادتهما.

شعر نجاح بأن القرآن كبل يد زاهد، زرع في راحتها رحمة وتَحْنَان وعَطْف، أمَّ قلبه برقة وشفقة سديدتين، لمس الرحمة ترف بين جفنيه وفي وجدانه وضميره، كأنه قد وضع نفسه مكان نجاح، كأن شوقه لأمه وأخوته انزل في قلبه تلك الرحمة التي أزاحت جليد الحقد والكراهية عن صدره.

سعد نجاح بلفتة زاهد، تذكر كلمات أمه بحرسْ القرآن له، فعلا لدعاء الأم حظوة عند الإله، لقد حضرت تلك الرحمة في الوقت المناسب.

قرر زاهد إنقاذ نجاح..

خبئه بين كراكيب الأخشاب وصفائح الالمنيوم المبعوجة والجثث، حينها تريث في إنقاذه حتى تهدأ عاصفة المعركة في الخارج، صار يتردد علية كل يوم، يسقيه الماء ويجلب له شيء من الطعام والدواء مما يحتاجه لإدامة حياته.

شعر نجاح باستعادة وعيه، واستكانة هواجسه، تجاوز حالة اليأس، غدى أشبه بوردة نابتة في وسط جحيم، استنشقت

روحه نسمة الأمل من بين ثنيات الكوة التي أحدثتها القذيفة في ملجئه، طل عليه تفاؤله مع تداخلات أشعة الضوء الخافتة إلى قلبه، فلو لم يكن هناك عطفة أمل لنجاته لقتل مع رفاقه في حينه، لتوقف زمنه في تلك اللحظة.

تلك القذيفة كانت مأمورة، جاءت لتنهي حياة الجميع إلا نجاح، صار القدر حاجزا منيعا بينه وبين الموت. ذلك الضيف المقيت حل بشكل خاطف على حياته، عفص الذاكرة بمطرقة الزمن..

تلك القذيفة التي داعبته بشظية من شظاياها، تركته يستنشق غل العذاب لغاية لا يعلمها، تركته تابعا، يفسر هاجس الحلم والأمل الذي وطأ قلبه، لقد هجس بهجرة رفاقه إلى حيث الفراق واللاعودة. فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، وشاح من الطمأنينة غطى على قلبه، علق كقرط صبر بأذنيه، استشعر بدفء الشمس بحسن تعامل زاهد..

أنتظر زاهد ثلاثة أيام على تسليك أمر نجاح، حتى سنحت له فرصة نقله مع الجرحى لخلفيات القطعات، سحبه من بين مخالب الظرف دون أن يكشف سره لأحد ودون أن يكتشف سر أمره أحدا ما. كان يعلم بأنه إذا ما أنكشف أمره سيقتل بالحال، لذا وهو ينقذه تفاجأ بمقاتل يتبعه يود قتل نجاح، حيث ضربه بأخمص البندقة على فكه فكسر سنا في فمه.

كان خلال فترة تغيبه أستنجد بطبيب معالج، حثه على مداواة نجاح وحشره مع الجرحى لمشفى الأهواز. حرص على إخفاء هويته عن أعين عناصر الجيش وزملائه في العمل، خوفا عليه من لغة الانتقام بعد أن رأى بأم عينيه كيف قتلوا جرحى جنودٍ عراقيين بعد استسلامهم، لذا أخذ عهدا على نفسه أن ينقذ نجاح من فك الموت.

خلا فترة انتظاره كان يتردد عليه، مسترقا اللحظة من فك الفرص، كان يأتيه خفية تحت جنح العزلة والظلمة، أحيانا يطل

عليه فجرا، أو في أوقات الذروة حين ينشغل الجيش بفترة الغداء، يجلب له مستلزمات الصبر والبقاء من زاد وماء ودواء. يضمد جراحه، يسكن آلامه، ثم يتركه تحت رحمة القدر.

أطمأن نجاح لحسن تعامل زاهد، بدأ يستعيد وعيه وثقته بالحياة.

كان يحل عليه أشبه بالشمس، يخترق ظلمة غمام عجزه، صار يتأمل طلته عليه، يتأمل غده المشرق بوجه أكثر نضارة مما سبق. صار يتأمل الحياة ويتشبث بها أملا بلقاء ناديا..

دفقات الأمل حقنته بالصبر، طردت شبح الوساوس الخانسة التي تهاجمه بالشعوذة والجنون، نتيجة ما يغمر ثناياها من خوف تحيط به، تلك التي قيدت فكره جراء رهبة الموت الدائرة في فلك ظنه، حيث كان قد أنتشل ذاته من مستنقع الوساوس والخنافس وعقارب العذاب.

بنفس الوقت كان نجاح هادئا، سلسا، على الرغم ما تعتريه من نوبات صرع تهز ثقته بنفسه، كان قد صَغَا إِلَيْهِا بِاهْتِمَامٍ بَالِغٍ، حتى جزلتها الرحمة التي لامست قلبه ومسدت ظهره.

مع أن الثقة ترسخت بينه وبين زاهد؛ إلا أن كل منهما كان حذرا تجاه الآخر في بداية الأمر، خاصة خلال اليوم الأول، خوفا من أن يلوح سيف الغدر في الأفق، وأن كان ذلك هو من هوس الشيطان لا أساس له. سرعان ما انقشعت الغمة عن الأذهان كما ينقشع ضباب الفجر، لم تكن لتلك الأفكار وجودا حقيقيا إلا في الوهلة الأولى.

بالنسبة لنجاح لم يعد يمتلك خيارا آخرا يعتمد عليه سوى أن يتمسك بالرحمة التي يذرفها عليه زاهد، وزاهد وجد في نجاح نفسه التي راغت بمستنقع الحرب والقدر مجبرة.

الحذر في تصرف زاهد كان طبيعيا، فأنه لم يكن سوى طفلا أبن الثلاثة عشرة ربيعا، رغم الطيبة التي أبداها بعفوية،

إلا أنه لازال طفلا لا يحتمي بوعي كاف وتجارب محصنة، الخوف كبل سعيه، لذا تعامل مع نجاح والمحيط العسكري بحذر وسرية وبذكاء ملفت للنظر.

أما نجاح فأنه كان يعاني نفسيا من شبح الأسر، لقد رماه حظه العاثر في وسط المعمعة، في وسط تجاذبات الفكر ومعوقات الحياة القادمة بعيد عن أهله وحبيبته. لقد لفه القدر بلفائف العذاب، جعله يتحرى عن ضوء العطف في وجه الزمن. القذيفة جردته من أحلامه البنفسجية، أضحى عاجزا عن تلبية رغبات قلبه، أضحى يتحرك بنصف طاقة، لا يستطيع الاعتماد على ذاته في تسوية أمره.

كان قد أرتعب من نقطة شغلت فكره كثيرا، ولكن لا يستطيع توضيح مفهومها لزاهد الذي لا يجيد العربية، وهيَّ كون زاهد لازال طفلا بريئا لم تخضه التجارب، قد يُخطئ في تصرفه ويخبر المسؤولين عن تواجده، فينتقموا منه.

لكن أيا من ذاك لم يحدث... الأثنان كانا يعملان بصمت، حريصين على كتمان السر، ينظران للآخر بعين العطف والمحبة الصادقة.

لقد وجد نجاح في زاهد الطيبة والعاطفة والبراءة والعفوية والإخلاص.... فيما وجد زاهد بحاله نجاح مسكين متورط بالعسكرية، بحاجة إلى عطف ورأفة، لقد جرد من الحظ فساقه طالعه لوهدة القدر، تورط في حرب لم يخترها بإرادته، عصفت به رياح الشر مثلما عصفت بذاته..

ينطبق على حالة نجاح وزاهد قول الشاعر السوداني إدريس جماع الذي قال:..

أن حظي كدقيق فوق شوك نثروه

ثم قالوا لحفاة يوم ريح أجمعوه

5- معاناة نجاح

مضت الأيام ثقيلة على نجاح، وهو قابع تحت رحمة زاهد وسقف الملجأ المنهار، يشعر بذاته مدفون في ذلك القبو المتشح بنتن الجثث التي باتت تتفسخ، بدى له المكان كجدث هيئه له القدر، اضحى عطن النتن يحجب الأوكسجين، يشعره باختناق وضيق التنفس، حبل ملتف على عنقه. لحظات صبر مرة تهادنه بالمشقة، لحظات مملة تعبث بستائر الروح والعقل بشيء من القرف..

في وحدته يهجس بذاته أقرب ما يكون إلى المسجون في غرفة انفرادية، معزول داخل قوس الموت، تهاجمه الأفكار البائسة من هنا وهناك، هواجس الخوف تجوب خاطره، تدلقه لمسرح الرعب، خائف من غدر جنود الفرس الذين وطئوا المكان، من الكلاب السائبة والوحوش الضالة أن تعثر عليه قبل أن ينقذه زاهد، تلك التي لها أنوف حادة تشم رائحة الجوع من على بعد، تلك التي تدفعها الغريزة للبحث عنه، قد تغزوه في وكره دون أن يستطيع أن يفعل شيئا لدرء خطرها.

مع جنوح الغسق تنهال على فكره وقلبه افكار الشؤم، مع طفق الظلمة تتجمد الانفاس في قوارير الظن، فلن يشعر براحة بال إلا حين يغلبه النعاس، إلا حين يهجع في إغفاءة تنسيه همه؛ وإلا فالكوابيس تطارده، تنطر دورها خلف ساتر اليقظة، لتجرده من يقينه وأحلام نجاته، تزحف على صدره كعناكب شرهة تفترس صبره..

الخوف من المجهول والهوس الدائر في فلك ذهنه؛ لم يمنحاه هدوء قط، قوضا سعيه بوشاح الصمت والوحشة والترقب. خلال تلك الفترة كان قد أجبر أن يحصن ذاته بالسكون التام خلف تلك الرايات من اليأس والجنون، كل شيء في الملجأ كان يوحي له بصورة من صور العذاب والتهليل والموت.. أحيانا تجتاح فكره أصوات غريبة مزعجة، تأتيه على شكل موجات هلوسة عبر وساوس الظن، تنبعث من فجوة النسيان والوحدة المريبة المتسلطة عليه، تكشف له غطاء صبره المهلهل، فتبيد لحظات سكونه، تُرهبهُ بنزر الشؤم، تجلجل حساباته وتخميناته، تبدد أسراره....

هالات الهوس تجتاحه بشكل دوري، تنبثق من صمته وواقعه، صور عبثية، رمادية، تزرع في أوصاله رجفة، تذكره بالشؤم القادم.

ما أن ينجلي الليل؛ حتى تنقشع هالة الخوف مع الظلمة الهاربة، تحل الراحة في بدنه، تعيد له ثقته بنفسه وبالغد المشرق. لم يكن يملك ساعة يدوية تعرفه بمجريات الوقت، إلا أنه كان يدرك الوقت من خلال التغيير الحاصل في انعكاسات فوتونات الضوء وتداخلات الهباء عبر كوة القذيفة وباب الملجأ.

هكذا ركب جماح الظرف، محاولا أن يألف سره، أن يتجاوز غُلبه، فما من حال راء له سره.

تشبث بالعروة الوثقى بعد أن أضناه الزمن المقتر في دروب الشك، على الرغم من أنه مع مرور الوقت كان قد نفد صبره وزاد قلقه. ها قد اختاره القدر من بين صفوف زملائه ليضفي عليه سخط الأيام وغلها، أبقاه حيا ليعش عمره القادم وحيدا، أسيرا، بائسا، لا يدري أن كان في عرفه يشكر القدر أم يذمه - لم يكن قد عد ذاته لمثل هذه الفاجعة وهو يفكر في زواجه من ناديا، لذا بات يُسلك أمره بما ييسر له صبره.

كان الظرف قد قسى عليه، كشَّ عنه أحلامه وتأملاته، جعله يأجل خطط كرنفال أحلامه لأجل قادم بعيد، جعله يتأمل مركب السفر القابع خلف المدى، حتى يحين يوم الميعاد الذي طالما حلم به، يوم الرجوع لحظن حبيبته...

المعضلة التي واجهته سحقت أمنياته وطاقته، جردته من قدرة المواجهة ومجاراة أعباء الحياة، لقد أدرك بأن الزمن كفيل بحل طلسم العقد. تلك المعضلة لابد من أن تلين، أن يتجاوز خطورتها مع الزمن، أن تصبح طوع ارادته وكما يشاء. الحكمة تقول ذلك، والله يقول ذلك، "فأن مع العسر يسرا، أن مع العسر يسرا" صدق الله العظيم..

طالما الكون وحياة الانسان في حركة دائمة، طالما الزمن لن يتوقف عن جريه والعمر يتبع أثره ويركض خلفه، إذا لا بد من أن يطرأ تغيير في حياته، تغيير يرفع من شأنه، يغير من درجات عقربة السعادة.

إذا حتما ستتغير أحوال نجاح كتغير فصول السنة، طالما جاء من يساعده، لابد تتبع ذلك فواصل تسهل حياته، لابد في الحياة فصل لين وآخر جلد، هي الحياة هكذا، لن تدوم عواصف الخريف ولا تستمر أمطار الشتاء..

لقد خلق الله الإنسان ضعيفا، لكنه هناك عوامل خفية تدفع به ليكون جبارا بوجه التحديات. لازال يحتفظ في جعبه شيء من الوعود الرنانة التي ألهبت منزلة المحبة في أروقة حبيبته، وعود من ذهب ويقين أرهف بها فؤادها، أشكم بها صبرها، كحل بها عيونها، فهي بالنسبة له جسر محبة وسعادة ممتد نحو سدرة السعادة. ثقته بناديا كأس نجاة سائغ شرابه، سلسبيل هَنة يتوقها، هي فقط من تستطيع أن تحيل قسوة الزمن والعنجهية الدائرة حوله لمن وسلوى في فمه.

خلال مكوثه في الملجأ لم يغفل عن ذكر حبيبته لحظة قط،

كيف يغفل عنها وأحرف أسمها تبدو كشعل تضيء سماء فكره، تذكره بالعهد والشغف وسحر الهوى؟ كيف يغفل عنها وهالة وجهها تدور في سماء فكره كوكب دري يخترق دجى ليله؟ كيف يستكين لوهدة الصمت والحيرة وهي تنابز صبره بالمصير المجهول؟ رغم شفق الأمل بين اللحظات العابرة..

صور ناديا تحتل مخيلته، لم ينم إلا وطيفها يخيط جفنيه بحرير الوسن، تتراءى له سرا من أسرار بقائه حيا. أنها السلوة والواحة والشجر في مشواره.

هل توجد مصاعب تفوق تلك التي واجهته وهو جريح، أسير، مرمي بين أكوام الجثث تحت شفقة العدو. أنه الهوان بعينه، تكبل بأقسى درجات العذاب، تقيد بالعقد والعراقيل والفكر المضطرب.. حينها لم يجد فسحة حقيقية للتنفس سوى ذكر أمه وحبيبته. لحظات مرة، لمع بها الحنين، تسلى بها وهو يتأمل أن يعود من الأسر لحضن حبيبته.

صار يسأل ذاته ويجيبها:....

- يا ترى! هل اخطرها الطيف بما جرى معي مثلما يراودني طيف وجهها؟ هل همس بأذنها؟ هل عبث بصمتها؛ مثلما عبث طيفها بصمتي؟ يكاد الطنين لا ينفك عن أذني، كطنين ذبابة تدور في رأسي. أظن للقلوب مجسات تخاطر فيما بينها، تنبأ الحبيب عبر الأثير ولو بعد حين، تمخر المسافات مهما طالت بمنحنيات الشك واليقين.... أذكر جارتنا فريدة، حين كانت تتغزل بعين أبنها وهو في جبهات القتال قبل أن تلحق بها الضرر، ذلك الفتى الوسيم المطيع حيث أصيبة بشظية في عينه في قاطع الخفاجية في الوقت الذي به وصفت لنا سعة قزحية عينيه وجمالها، كان ذلك بحدود العاشرة صباحا في ذات الوقت والساعة واليوم....

يا للعجب!!!.

ترى من الذي أخطرها وجعلها تتغزل بقزحية عينه بتلك الساعة التي اصيب بها؟ كيف تحدث تلك المصادفة؟ أم أن للقلوب مجسات تخاطر فيما بينها؟

حتما تخاطرت القلوب وأخبرت بعضها البعض، أكيد وصلتها إشارة من أبنها، فعجز قلب الأم عن تفسير إشارة المورس التي وصلتها لحظة الإصابة، فعبرت عن جمال العين بحجم الشوق لرؤية أبنها...

أكيد كانت لحظة حرجة حين أصيب بها، لم يتذكر حينها أحدا سوى أمه، فأخطر فؤاده فؤادها بإشارة استغاثة لاسلكية، أنبأها عن ما جرى له، فتحسرت عليه وتسحرت بعينيه..

ربما لم تفهم الإشارة إلا بعد أن لمست الكارثة بأم عينيها، لكنها لم تتخلف عن الدعاء له، لأنَّ نغمة التخاطر بين القلبين والذهنين هي نغمة إلهية، فيها شيء من السكينة والرجاء والمحبة. أنها الأم، ربما بدعائها حفظته من غل الكارثة. قلقها عليه حرك إحساسها، أنبئها بخطر ما قد أحاط بأبنها، حينها تكبلت بالخوف عليه والدعاء له والرأفة به، رافعة يدها للسماء أن يحفظه الباري من كل شر وبلاء.. فمضت إشارتها إليه ليتطمأن قلبه.

صار يكلم نفسه:...

لابد أمي عرفت بمصابي، لابد ناديا عرفت بمصابي، لابد فسرت إشارة استغاثتي بشكل استثنائي صحيح، لابد الإشارة وصلت قلب أمي. تلك القذيفة اللعينة انفجرت بعنف، حركت مجسات العاطفة، أنذرتها بالمخاطر، وأكيد قد ارتعبت مثلما ارتعبت جارتنا، أكيد رفعت يدها للسماء ودعت لي بالسلامة، وإلا كيف تفسر ذلك الحرز الذي حفظني من غل القذيفة ومن شظاياها الفتاكة؟

نزلت الدموع على لحيته المبعثرة في مساحة ذقنه، بعد أن

أرهقه العجز لأيام من العناء والشقاء في تلك البقعة، بات يمسحها بأتراف كفيه...

بقي يعيش فترات جزر ومد بين عسر ويسر، وهو قابع تحت قبة الرعب والخوف من المجهول والقدر، بين الفينة والفينة تطرق مسامعه أصوات انفجارات رعنة، تلك التي لم تكف رعودها، تلك التي تزيد من هرمون الأدرينالين، تزيد من الانفعالات والترويع في صدره، متأملا لحظة العودة لأمه ولحبيبته التي تلطخت بسخام القدر الجائر.

الفصل الثالث

1- معسكر الأسر - 3\5\1982

بعد يومين من استكشاف زاهد لحالة نجاح، تمكن من دحسه في عربة نقل الجرحى مع عدد من المصابين من الجيش الإيراني، أعانه زميل من صنف الطبابة بعد أن استنجد بآمر الطبابة لتقديم علاج أولي له...

خلال نقله، قابله أحد منتسبي حرس خميني، وكان قد تعرف على هوية نجاح من شكل حذائه المميز، حينها ضربه بأخمص بندقيته على فكه فهشم سن من أسنانه، كاد أن يقتله، لولا تدخل زاهد.

دحسه بين مجموعة من الجرحى بعد أن أبدل لبساسه العسكري بلباس مدني، آملا أن يصل مشفى الأحواز التي تبعد مسافة تزيد عن 100كم .

خلال نقله حاوره بلغة الإشارة، طلب منه التزام الصمت والسكوت التام خلال الطريق، أشار له أن ينام قدر الامكان، أن يجعل نفسه مرهقا، ميتا حتى يصل المشفى.

خلال الحرب كانوا عناصر حرس خميني غير ملزمين بارتداء اللباس العسكري؛ نتيجة قلة تجهيزات الدولة العسكرية، حيث الغالبية منهم دخلوا جبهات القتال بالزي المدني.. بذلك تمكن نجاح من صد الأنظار إليه، لألا ينتبه أحدٌ على شكله، كما أنّ تنامي لحيته كان لها دور في إخفاء ملامح وجهه، على اعتبار أن الجيش الإيراني لا يمانع تربية اللُحى.

تلك الصورة أضحتْ عاملا مساعدا له، أبعدت عنه زيغ العيون الناقمة خلال الطريق.

خلال الوداع جالت بين زاهد ونجاح نظرات شكر ووداع أخيرة، فاضت بها دموع نجاح بالشكر والتقدير والسلامة كتلك التي ودعته بها أمه حين فارقته، كانت عيون زاهد تشفق بالدفء والعطف تجاه نجاح، دعا له بالشفاء وبسلامة الوصول، عسى أن يجد من يعينه في المشفى... فيما عبر نجاح لزاهد بامتنانه وتقديره لعطفه وإنسانيته، فاضت عيونه بالشكر لمى قدم له من خدمة جليلة، متمنيا له السلامة.

كانت اللحظة الأخيرة التي جمعت بينهما، لحظة عرفان وشجن، تكللت بفيض المشاعر والصمت المطبق من قبل الطرفين، وبالذات من قبل نجاح الذي تكلم بنظرات عينيه.

بعد أن فهم إشارة زاهد ألتزم نجاح بما اشار اليه، فلم ينبس بشفة.. في الحقيقة كان منهكا تماما، كان في حاله يرثى لها أشبه بالموتى، حتى أدرك مشفى الاحواز بسلام.

في الاحواز فرز إلى مشفى عسكرية لا يعرف لها أسم أو موقع.. الحقيقة لم يكن يتوقع بأن جنديا إيرانيا سينقذه من لب المعركة، حيث الإشاعة المبثوثة بين صفوف الجيش العراقي من أن الإيرانيين يقتلون اسراهم، وهذا ما حصل من قبل في معركة الشوش وما كاد أن يحصل لولا تدخل زاهد في اللحظة الأخيرة قبل الوداع حين أنقذه من انتقام جندي المشاة..

كان زاهد أخبره فعلا بأن زملاء له قد قتلوا بعد أن أسروا من قبل حرس خميني، وآخرون لاقوا مصرعهم بعد الأسر في معركة الشوش والابسيتين قبل أربعة أشهر، وكان التلفاز العراقي حينها قد بث مشاهد فديوية وصورية لمجموعة من الأسرى وهم يتعرضون للتصفية الجسدية الشنيعة من قبل الجنود الايرانيين، ولم ينسى الأسير الذي شرخوا جسده لنصفين حين ربطوا ساقيه بعجلتي واز لتذهب كل عجلة لجهة

معاكسة. كان ذلك المشهد قد بث من خلال برنامج صور من المعركة الذي كان يعرض بعد كل معركة.
إذا نجاه الله من فك العدو، حين أرسل له رسول رحمة، تمثل له بالطيب زاهد.

كانت قد انتهت مهمة زاهد بوداع نجاح، فيما وصل نجاح لمشفى عسكرية في الأهواز..
بقي راقدا في المشفى مدة شهر وبضعة أيام، تم استطباب جراحه بشكل تام، كان قد أعتنى به طبيب لبناني ينتمي إلى فصائل حزب الله اللبناني.. كان هذا الطبيب في كيانه مقسم لجزأين، جزء يحركه شعوره القومي العروبي وهو شعور لا إرادي، وآخر طائفي مقرون بانتمائه لحزب الله الذي يتبع إرشادات ولاية الفقيه في قم.
لذا فأنه تصرف ضمن انتمائه القومي العربي بمشاعره وعواطفه وإيمانه ودينه تجاه نجاح، لقد خالف ميول فكره الحزبي، ذلك التناقض حرك زغب مشاعره تجاه عروبته.....
بعد استطبابه أحيل لمعسكر الأسر في أصفهان، ومنذ تلك اللحظة انقطعت صلته بالعالم الخارجي تماما، لكنه بقي يتذكر ذلك الملاك الطاهر وهو يجول في خاطره ويداوي جراحه.
خلال رقوده في المشفى وخلال مكوثه في معسكر الأسر، كان يحق له كتابة رسالة واحدة لذويه كل شهر، ذلك هو ما سمح به لكل أسير وحسب التعليمات المعمول بها. كان عليه وضع الرسالة في صندوق مهيأ للرسائل، متأملا أن يصله جوابا من قبل ذويه أو حبيبته ناديا دون أن يصله شيء يطمئن قلبه..... كانت قد طالت مدة انتظاره دون رد من قبل الأهل، مرت عليه أشهر وسنين دون أن يسأل عنه أحد، دون أن يصله طارش، أضحت الحالة عقيمة، مرة، لا لون لها ولا رائحة، لم تتغير الحالة المرة، احتفظت بذلك الروتين الممل، تمادت

بانقطاع الصلة عبر الأشهر والسنين، حتى دب اليأس في نفوس الأسرى بشكل عام.

تفاقم الشك في قلب نجاح...

مضت الأيام تدور دون تخاطر يجزل حيرته برسالة يمني النفس بها، يؤكد لذويه من أنه لازال على قيد الحياة.. رسالة تشفي غليله وتُطمْئِن قلب أمه وحبيبته، لتنتظر رجوعه على دكة الأمل ليطمَئن قلب الوالدة على مصيره.....

لكن هذه الأمنية باتت عسيرة، أبت أن تتحقق تحت ظل حكم ليس له علاقة بالدين، بقيت الحالة غامضة دون وضوح، النفوس حائرة، مغتاظة بتجاذبات الأفكار والانكسارات التي اصابتها؛ خارت في تشنجاتها حين باتت لا تهجس بمحيطها ولا بذواتها.

لم يكن هناك من يعير لهم أية أهمية، لم يكن هناك من يرد على استفساراتهم ويطمئن قلوبهم، ذلك الغموض عم المعسكر بأسره، كانوا قد عزلوهم عن المشهد العالم تماما، همشتهم الدولة، أخفتهم عن الأنظار، محت أسمائهم من السجلات، لا أحد يعلم عن وجودهم وعن أماكن معسكراتهم وعددهم شيء.

في البداية أنتابه شعور بتقصير وإهمال متعمد من قبل الأهل، تلك الحالة ولدت له عقدة نفسية في الذات، لكنه مع مرور الأشهر والسنين أكتشف بأن الحالة لا تخصه فقط أنما تخص جميع الأسرى الذين معه في المعسكر. عندها وضع أمامه علامات استفهام كثيرة، صار يعيش تحت ضغط القلق والعجز، شُتت أفكاره في منازلة الظن السيء، أفكارا ولدت أفكارا أخرى أكثر سلبية تعشقت في ذهنه، بعضها صار يولد من بعض، بعضها تبرر له وضعية الحالة، وأخرى رهينة القلق تجره لمستنقع التشكيك بأمه وحبيبته. أفكار عبثية هدامة، تولدت لديه نتيجة العبث والقلق والوحدة واليأس.

كما أن سوء تعامل سجانيهم دفعت بهواجسهم إلى التشكيك

بمصداقية الجانب الإيراني، القسوة المفرطة عكست صور احتمالات عديدة ضد مسؤولي السجن وخط نهج الدولة، بعد أن وجد الحالة لا تخص فردا معينا، أنما الحالة شملت قائمة أسرى ذلك المعسكر أجمعين، سائدة بذات الكيفية.
تلك التجاذبات من الافكار احيانا تعزله عن المعسكر فيبدأ الشك بأهله؛ لكن أين ناديا؟ لِمَ لا تكتب له عن طريق الصليب الأحمر، ترى هل فعلا حال زملائه كحاله؟ هل هناك من هو بشاكلته؟ هذا السؤال بقي يتردد عليه، يزرع الشك في ذاته، يجزل يقينه بأمه وبـ ناديا وهو في عزلة تامة عن العالم ولم تستكين هواجسه حتى تأكد بذاته...
صار يسأل هذا وذاك ....يا صلاح ... يا عمر ... يا عدي، وأنت يا سعيد... يا حسين ....يا علي ....يا عمار ...وأنت، وأنت. أخبروني هل تصلكم رسائل من ذويكم؟
الجواب موحد: لا لا لا لا لا لا لا لا لا لا
الغريب أن الكل لا تصلهم رسائل من ذويهم، كما أنه لا تصل رسائلهم لذويهم.. طالما الحالة عامة؛ إذا هناك أنَّ في الموضع، هناك عملا مخططا مقصودا ضدهم، بان القصد من وراء ذلك من قبل السلطات الإيرانية، محاربتهم نفسيا حتى ينتموا إلى صفوف المليشيات المصطنعة الطائفية ضد وطنهم... ذلك ما أرادوا فرضه عليهم، ودوا إيصالهم لحالة كره الوطن.
بدت تنقشع الحالة الضبابية التي فرضتها قيادة السجن على فكره وعينيه، ما أن غشيت عيناه بهالة الشك حتى عاد قانعا بصفاء القلوب، بغير ما روجت له أفكاره السوداوية، صار يمضي عكس الظن الخائب، بات يلتمس يقين العلاقة المتينة بينه وبين أمه وحبيبته ناديا، وتلك الجذور المتأصلة التي تربطه بأهله. أنه المصير الذي لا تهزه ريح، حتى لو خانه التقدير ونبزه الشك الذي زرعوه سجانيه في افكارهم، لكن لن تخزق المشاعر الدافئة بالظن السيء، ذلك الجدار المتين من

العلاقة التي تجمعه بأمه الغالية وأخوته الذين ضحى من أجلهم...نعم؛ أن بعض الظن أثم.

الجميع شعروا بتلك المشاعر، والجميع علقوا آمالهم بخيط واه من الامل، تكوروا في خانة الانتظار، منتظرين رسالة ما تصل أحدهم لتزيل عنهم شكوكهم!.... حيث لا يمكن أن يكون جميع الأسرى لهم ذات الظرف مع أهاليهم.

إذن القضية فيها أنّ، فيها لغز أفتعله السجانون والقيادة الايرانية. كانت الحكومة الإيرانية قد تقصدت في عدم أرسال رسائلهم لذويهم وعدم توصيل رسائل ذويهم إليهم، كما أنها أخفتهم عن شبكة الصليب الأحمر الدولية، فهم غير مسجلون في قوائم الأسرى بتاتا، رغم أن الحكومة العراقية قد طالبت بهم مرارا، وحثت الصليب الأحمر على البحث عنهم، إلا أن السلطات الإيرانية تمادت بغيها، فغيبتهم، وكأنها أسدت لهم الإذن الطرشة، فهي لا ترطن لهم ولا تسمع ولا ترى.

لقد حاربتهم الدولة حربا نفسية، كما حاربت ذويهم في ذات الوقت بنفس السلاح، بحيث زرعت اليأس في قلوب هؤلاء الأسرى أتجاه ذويهم، في الوقت الذي به أغشت قلوب ذويهم بالعزاء واليأس تجاه نجاة أبنائهم من مطاحن المعركة. لتزيد الغل في نفوس العراقيين تجاه حكومتهم.

تمكنوا من زرع اليأس في النفوس، تولدت لدى العوائل قناعة تامة في عقولهم بمقتل أحبتهم في جبهات القتال. أضحى التصور واضحا للعوائل خلال مراجعاتهم الحثيثة لمراكز الصليب الأحمر. كانت الأخبار تشير إلى أن أبنائهم ضمن قائمة المفقودين؛ أي أنهم أقرب إلى عداد الموتى من أن يكونوا أحياء على قيد الحياة، حالهم حال القتلى الذين دفنوا في ساحات القتال ولا يعرف لهم أسما أو خبرا.

كما زرعت في ذهن البعض من الأسرى شيء من العبث من خلاله تمكنت من إيصالهم لنتيجة بائسة، إلى القناعة المرة

التي لا تحتمل، والتي يكمن في طياتها خبث دفين تمحى نغمة المشاعر لديهم تجاه عوائلهم، بعد أن أوصلتهم إلى القناعة بإهمال ذويهم لهم.

استمرت المماطلة ومرت السنين حتى تمكنوا من سد ثغرات العاطفة في نفوس الأسرى وأهاليهم بالسقم والعجز والنسيان. في ذات الوقت أدخلوا ذات الفكرة في أذهان ذويهم بعد أن اصيبوا بحالة العجز التام من نجاة أحبتهم من المعارك. رسخت فكرة الموت في أذهان الأهل، تلك كانت كفيلة بفرض صيغة اليأس بعد أن كُبلت العواطف وأريقت المشاعر.

كانت للحكومة الإيرانية لها أهداف بعيدة وعديدة من وراء تعذيب الأسرى، أرادت إيصالهم لحالة كره الوطن، ودت كسبهم واصطفافهم لجانبها ضد حكومة بغداد، وكانت قد نجحت في مسعاها مع كثير من هؤلاء الأسرى الذين فضلوا الخيانة على تحمل العذاب النفسي والجسدي الذي كالوه لهم سجانيهم. تمكنت من إيصالهم إلى وضعية حرجة لن يستطيعوا مقاومتها، حيث كان على الأسير أن يسلك أحد المسارين، أما الموت البطيء في زنزانة قذرة؛ أو الحرية المقيدة مع خيانة الوطن!!!...أما يتحمل التعذيب والإهانة اليومية أو أن ينتمي لأحد فصائل المعارضة بحمل السلاح ضد الوطن مع تزويجه عاهرة من عاهرات ملاهي إيران... ودوه أن يقلع عن جذورها الأدبية والأخلاقية والوطنية، ليرفع السلاح بوجه أخوته وأبناء جلدته. قدمت السلطات الإيرانية تسهيلات وإغراءات رمزية للأسير المنحرف، وفرت له راتبا شهريا ومنحوه فرصة زواج من فتاة فارسية وسكن بسيط، ليضمنوا ولائه التام لهم، إضافة إلى ذلك وفروا لهم متنفس عام من الحركة والحرية في مجال الحياة بعد ان رفعوا عنه الضغوطات النفسية.

فعلا رضخ الكثير من هؤلاء تحت سوط التعذيب، فيما آخرون كابروا وصبروا وصمدوا وتحملوا تلك المهانة والقسوة

المفرطة والمشقة على مضض دون أن تهتز مشاعرهم تجاه الوطن قيد شعرة، وكان نجاح أحد هؤلاء الأسرى..

يقول عزت الشاهبندر في أحدى لقاءاته وهو من فئة المعارضين لحكم البعث؛ بأن الحكومة الإيرانية زوجتهم فتيات الشوارع والملاهي الليلية من راقصات ومومسات وغواني، اللاتي كانت تعج بهن ملاهي إيران أبان حكم الشاه قبل أن يستلم الخميني أمور الدولة، حجزوهن وزوجوهن معارضي حكم العراق..

التقيد بفكرة المعارضة والصف إلى جانب جيش العدو في أوقات الشدة كالحرب؛ لا تميل إلا لمنحى الخيانة بمعناها البسيط، لأنها في واقع الحال العملية تؤدي إلى قتل أبناء الوطن دون أن تتمكن من الحاق الأذى والمساس بأركان السلطة المراد معارضتها، هذه الفكرة بالذات كانت قد منعت الكثير من الأسرى الانخراط في فكرة المعارضة والتوجه للجبهة تحت مسمى جبهة المعارضة.

سنة بعد سنة قلت الهمة والشوق والرغبة لدى الأسرى لسماع أخبار ذويهم، بعد أن تشمع اليأس على الأذهان والقلوب، فالعذاب النفسي كان قد رسَّ في العروق فأنساهم فكرة التخاطر والتواصل، لم يعد الأسير يسعى خلف أحلامه ويتحرى عن أهوائه، أصبحت الرغبة هشة بلا روح، ميتة، لا لون فيها ولا طعم ولا رائحة وذلك بعد أن تعودوا على صيغة المعيشة داخل معسكر الأسر، إضافة إلى أن تلك الفترة الطويلة دون وسائل ترفيهية كالتلفاز أو الجرائد ليطلعوا على ما يجري من حولهم؛ أدى إلى مسح الذاكرة وخلخلتها.

توقف نجاح عن كتابة الرسائل بعد أن نزع طوق الياسمين عن عنقه، بعد أن نبتت في خواطره أشواكا جارحة منعته عن تتبع عواطفه وأشواقه، بعد أن تحجرت المحبة على دكة القلب فأثقلت نبضات اشواقه، أضحى شخص منهك ذهنيا وجسديا

ونفسيا أمام فشل المحاولات والبوادر العديدة لفك كرب ذاته. أضحى في عداد المنسيين، خائري القوى في تحديد المصير وصقل البخت، إذا ما علمنا أن بعض الأسرى من هؤلاء المساكين هم فعلا كبار سن، أصابتهم جلطات وعوق جسدي، البعض منهم مات في الزنزانة دون رعاية طبية تذكر. الإهمال التام في الرعاية والتغذية، إلى جانب التعذيب الممنهج أدى إلى صقل النفوس بالتعود على صيغة الخنوع والاذلال؛ حتى أسملت النفوس وشتت كالثياب البالية على أجسادهم.

مع مرور السنين صار الصراع الداخلي يأخذ مفعوله في الجسد، يفعل فعل الذبابة الخبيثة حين تترك ندب حمراء في مواقع لسعاتها، لتثير الجلد بالحك والهرش كحبة بغداد. مع مرور السنين انعكست عليهم الأوضاع بأشكالها المختلفة، غَزتهم أمراض عديدة، كالطفح الجلدي والأكزمة وكآبة وأمراض أخرى داخلية كالربو وضيق تنفس وتشنجات عصبية والوساوس وقلب....الخ، بعضها لا تعرف لها أسما، مثل الأمراض الفايروسية والجلدية التي تعلقت بأذنابهم، تلك غدت أشد قسوة وفتكا وعنفا من الموت على أبدانهم. جار عليهم الزمن، أغشت عقولهم؛ محيت ذاكرة البعض، تبددت الأحلام وكل شيء جميل مر في حيواتهم، محيت البسمة تماما من على الثغر.

الزهور البراقة لم يعد لها وجودا في أصص الخيلاء، فيما المخ غدى أشبه بلوحة تسديد مخزومة بكم هائل من رصاصات العقد والتعنيف والتزييف والعذاب، لعب اليأس والقنوط والخمول وضيق مساحة الحركة في الفكر لعبة الجلاد والملك على الجسد.

وبعد تلك السنين العجاف أخرس صوت النداء تماما، عقف اللسان، ما عاد يتذكر شيء من وطأة الرجاء، تناسى شكل ذويه وحبيبته وأخوته، بل حتى الأطياف ما عادت تراود الفكر

بعد أن طفأت قناديلها، ما عاد يحتفل بها حتى في أحلام الكرى، تلطخت تلك الصور والمباهج بسواد النصيب، تلاشى كل شيء كما هو السراب، لم يعد يتذكر من تفاصيل حياته سوى أسمه.

اتقدت في ظنه صور أخرى منافية لرغباته، صور واقعية تلامس حياته، صور التجني والخلاص من القيود والعبودية والذل والهوان، كثيرا ما راودته فكرة الانتحار، أضحت الحالة أهون عليه من البقاء، تراءت له الفكرة كالثقوب السوداء في سدم حيرته عليه أن يمخر منها لينهي فصل العذاب، تكاد فكرة الموت هي أكثر الأفكار شيوعا وبراقة في ذهنه، أنها الحل الأنسب له.

أفكار عديدة تولد وتموت في المهد قبل أن يمسك بها، قبل أن يشهق بذكرها وبطريقة الخلاص من مأزق الأسر، صور العناء والجوع المستمر انعكست على فكره وبدنه، فبات أكثر نحافة وبؤسا ومقتا مع مرور الأيام.

السنين العجاف نبتت لها أسنان حادة، صارت تقضم أحلامه وتطلعاته وعمره، صارت لها مشارط حادة تقطع دابر أفكاره كمنجل الحصاد، حشت المشاعر والأحاسيس عن الجذور. عبثت بإرادته، صيرتها قشور خواء لا فائدة منها، حشرته في كحشرة في عنق الزجاجة.

هؤلاء الأسرى كانوا قد حرموا من لحظات المتعة والتسلية المفروض تواجدها في معسكرات الأسر، لتخفف المعاناة والوحشة من لوحة الحياة. معسكرات جرداء لا تحتوي على ملاعب وساحات تنزه، لم يوفروا لهم تلفازا ولا جرائد وبرامج ترفيه لمعرفة ما يدور في العالم الخارجي، بل أنهم جردوا من ساعاتهم اليدوية كي يضيع عليهم حساب الزمن... كما كان لا يحق لهم طرح الأسئلة، ومن يحاول أن يشغل فكره في تفسير ما؛ كان يجلد في ساحة التدريب الصباحية أمام زملائه ليكون

عبرة لغيره...

هكذا كانت القسوة تلاحقهم بسياط الجلاد، فالتزموا بحدود الصمت والخنوع، رضخوا مجبرين لواقع نظام قاسٍ جلد، بعيدا كل البعد عن شرائع السماء وتلك التي سنتها الأمم المتحدة بحق الأسير.

لقد تعددت السياط في أطر حياتهم...

فللسؤال سوط.

لطلب الحاجة سوط.

للخطأ سوط

وللتأخير سوط ...الخ.

حتى بات السوط يكنى بالسيد! لما له من جبر في عالمهم، صاروا لا يسألون عن شيء يخصهم قط، ولا عن حاجة تعينهم، ولا عن أكلة تشتهيها أنفسهم، ولا عن ذويهم، ولا حتى عن الزمن الذي يلفهم...ليس لهم حق السؤال والمطالبة بأي شيء هم بحاجة أليه، حتى الأدوية ومواد النظافة ممنوعة عنهم.

ذلك الظرف القاسي الذي لفهم بسواد النية والحظ العاثر، جعلهم يفتقدون الإحساس بالزمن، بحيث تناسوا أسماء الأيام والشهور والسنين، وفي النهاية باتوا لا يدركون كم من السنين مرت عليهم وهم مقيدون في معسكر الأسر، معزولون، غدوا كالبهائم في الحضيرة...

كأنهم في واقعهم يعيشون على سطح كوكب آخر بعيد عن عالمهم الواقعي، حيث لا زيارات رسمية تمر عليهم من المسؤولين، ولا طبابة تسأل عن أحوالهم ولا منظمات حقوق إنسانية ترفق بهم، لا يسمعوا خبرا ولا يشاهدوا تلفازا..... كانوا في واقعهم ميتون وهم أحياء.

كانوا يحاكمون من قبل سجانيهم بذنب اقترفوه أو دون ذنب، هكذا بقوا معلقين في صيغة الحياة بين السماء والطارق،

لـيس لهـم وجـود حقيقـي لـدى الصـليب الأحمـر، ولا هـم مطلـق سراحهم ولا هم من عداد الموتى.

علـى هـذه الشـاكلة اسـتمرت الحالـة مـع نجـاح وهـو فـي الأسـر مـن يـوم 3\5\1982 وحتـى منتصـف شـهر تشـرين الأول (أكتـوبر) مـن عـام 2000،علـى الـرغم مـن انتهـاء الحـرب بـين البلـدين فـي 8\8\1988..... أي أنـه بقـي يعـاني فـي الأسـر مـدة تقـارب ثمانيـة عشـرة سـنه... ولا غرابـة فـي ذلـك إذا علمنـا أن بعـض الأسـرى العـراقيين تـم أطـلاق سـراحهم فـي شـهر كـانون الثـاني عـام 2020، أي بعـد أثنـين وثلاثـين سـنة مـن انتهـاء الحـرب بـين البلـدين!! والإحصـائية تقـول لازال هنـاك أسـرى فـي السـجون الإيرانيـة بعـد مـرور أربعـين سـنة علـى وقـف إطـلاق النـار بـين البلدين!!

2- ظرف ناديا وأمه

ظلت ناديا تعاني من سقم الفراق وانقطاع الأخبار عن حبيبها نجاح، بقيت نار الوحدة توقد الذاكرة وتهرس القلب المليء بالشغف والحب دون أن تبرق إليها في الأفق بارقة أمل تعرفها عما آل إليه ظرفه، عاثت الحسرة في مكونات ذاتها دون هوادة، وذلك لأنَّ كلمة **مفقود** تعني الكثير في معناها، تعني الحزن والمأساة والذل والهوان لها، تعني الانتظار لأجل غير مسمى، تعني البحث في غياهب الجب عن اللغز، تعني شيء من المستحيل يطفح في لوحة الحياة كولوج الجمل من سم الخياط...

كلمة مفقود تعني فقدان الأمل بالنجاة بنسبة 90%، ومعوق بنسبة 10%، حيث يتوقف القلب عن النبض فلا يحتمل منغصات جديدة تؤرقه، الحال لا يحتمل انتظارا حتى تطوى صفحات الحرب وتنكشف أسرارها. الأمر معقد جدا، والعمر يزداد هشاشة مع مرور الوقت لا يحتمل عناء فوق طاقته.

كلمة مفقود غامضة، مبهمة؛ ربما يكون حيا، وربما يكون ميتا أو قد سلم امره لمصير مجهول للأبد.... فأن كان حيا تعني أنه قد تعوق في ساحة الحرب ومن ثم أسرْ، وأن أسر يفترض عليه اطمئنان ذويه برسالة تصبر أمه وحبيبته، أو أنه قد دفن مع قتلى الحرب في مقابر جماعية بعد انسحاب الجيش العراقي.

ربما تفسخت جثته دون أن تعرف هويته، بذلك غار في فوضى الحرب، اختفت جثته بقصد أو دون قصد، الميدان

واسع، لا يمكن الصليب الأحمر من أن يمسح كل ابعاد ومنحنيات الجبهة كما يشاع في الأخبار، ولا أن يدخل المناطق المشتعلة أوارها. ربما سقط أسمه سهوا أو حذف عن قصد من سجلات الأسر ليزرعوا الشك والفتن والعُقد بين الأسير وذويه أو بين ذويه والدولة لإثارة الشغب ضدها.

إذا كلمة مفقود محيرة، تعني أنه حي وميت في نفس الوقت.

الحكومة العراقية كانت قد أعلنت مرارا تأكُيداتها بتواجد أسرى عراقيين غير مسجلين لدى الصليب الأحمر، معتمدة في ذلك على الجهة الاستخباراتية ومتابعة الطابور الخامس داخل إيران، واعتمادها على المشاهدات العينية والأخبار التي نقلها بعض الأسرى الايرانيين ممن تم القبض عليهم وتلك التي نقلها الأسرى العراقيين الذين تم أعادتهم من الأسر في بداية الحرب. كل هؤلاء أكدوا للدولة العراقية بتواجد مجموعة من الأسرى الغير مسجلين لدى الصليب الأحمر موزعين على معسكرات شتى.

تلك الأخبار أجلت حكم اليقين لدى أمه وحبيبته، جعلتهما يؤجلان شعائر المأتم إلى ما بعد انتهاء الحرب.

ربما الدولة العراقية أطلقت تلك الشائعات لتهدئة عوائل الضحايا وإغراقهم في تأملات تخفف عنها ردود الأفعال الآنية، تأملهم برمق بسيط من حلم عودة أبنائهم لأحضانهم، في الوقت الذي به تكسب موقف الرأي العام الدولي والإنساني إلى جانبها حتى يحين كشف البيانات الحقيقة المخفية.

لكن الصدمة جعلت أم نجاح تضمحل بدنيا نتيجة الحزن والقهر على فلذة كبدها البكر، على الرغم من أن أخوه نعيم قد أصبح من المتفوقين في مجال دراسته وشغل منصب رب البيت بتسلمه قيادة المطعم إلى جانب أخته نوال، لقد أثبت جدارة وقدرة فائقة في مجال دراسته وعمله بالمطعم.

كما أن ناديا لم تنقطع عن مواصلة أم نجاح ومؤزرتها، بل

أنها أصبحت عنصر مهم من أفراد العائلة تشاركهم أفراحهم وأتراحهم رغم الغصة العالقة في النفوس جراء غياب نجاح، تمسكت بغصن المحبة حتى انتهاء الحرب الملعونة في 8\8\1988، منتظرة رجوعه دون بارقة أمل.

كان مَيل الصبر قد أنحرف عن اتجاهه، ومع ذلك بقيت تشهق بمحبة نجاح، لقد ترك ندبا من الوفاء في نفسيتها إلى جانب أخرى من سواد الحزن في وجهها، فلم تعد تصدق تلك الأخبار الملفقة التي ما عادت تجدي نفعا مع حجم اليأس الذي خزق الأفئدة.

كانت مشكلة نجاح الحقيقية تكمن في سلوكه مع ناديا من حيث لم يتزوجها بشكل رسمي، إضافة إلى أنه لم يُسجلْ ضمن قوائم الأسر كأسير، ولم تستطع جهة الصليب الأحمر من الوصول أليه. بقي معلقا ضمن تخمينات قوائم المفقودين حتى انتهاء الحرب، أي احتمال بقائه احتمال ضعيف جدا لا يصدقه إلا المجانين.

في الحقيقة وفاء ناديا كان قد غطى على أحلامها، فلم تنتبه إلى غيره من الشبان، لم تنتبه للزمن الذي أخذ يعنس قامة شبابها، بقيت تعيش على ذكراه كبكتريا العفن، حتى تعفن فكرها وحزَّ ساقيها، فلم تعد تحتمل صبرا يرغ في كأسها.

مع مرور الأيام زادت شدة الوحدة عليها، اشتدت الوحشة على قلبها، تلك التي أذكت مشاعرها وهواجسها بالعبس والسخط والكآبة. هجست بعجلة العمر قد تجاوزت خط ربيع العمر وهي دون أنيس أو معيل لها، دون زوج يرفع من قدرها ويحد من سخط الزمن عن كاهلها ويعينها في تربية ولدها. حينها كانت قد رفضت العديد من العرسان الذين تقدموا لخطبتها خلال فترة الحرب، ولكن بعد انتهاء الحرب لم تعد تحتمل ذلك الصمت المطبق بعد أن يبست شفتها، بعد أن يئست تماما من عودة نجاح...

أنها أنثى! ضعيفة، لا تقوى على الصمود أمام همجية القدر، كانت قد ذرفت دموعا حتى جفت مآقيها، لامت نجاح ولامت حظها العاثر. لمْ تفلح بزواجها الأول ولم تجني ثمار علاقتها بنجاح، هذا هو قدرها، فلا خبر نم عن يقين، ولا يقين راء في أفق المصير.

لا رسول منه وصل ولا صبر باليقين كُلَلْ، بقيت أسيرة القنوط تعيش على حاجز الذكرى، حتى خمدت جمرة صبابتها لتحصد رماد محبتها.

بعد تلك المعاناة وانفلات السنين من بين يديها، قبلت أن ترضخ لسوط الزمن وتتزوج من رجل يكبرها بخمسة عشرة عاما، عسى أن يعينها على وحدتها، كانت قد أدركت حينها الثلاثة والثلاثون من العمر، رضت بقاسم زوجا على أن يعينها على تربية أبنها الذي أصبح يافعا على الرغم من أن قاسم كان يركل برجله اليسار وكان ضعيف حال.

أما أخوه نعيم فقد شاءت الظروف أن تخدمه بعد أن أجتهد في دراسته تمكن من أن يحصل على أعلى درجات النجاح، بحيث تم تصنيفه من ضمن فئة الأوائل على مستوى الدولة، خلال اجتيازه مرحلة الثانوية. كان ذلك مع نهاية الحرب العراقية الإيرانية.

تلك النتيجة التي حصل عليها ساعدته بأن يكون من ضمن قائمة طلاب البعثات الخارجية لتكملة دراستهم على حساب الدولة والمبعوثة إلى كندى. حيث الجزاء بقدر العمل، وقد أختص بالهندسة التقنية ليحصل على شهادة البكالوريوس ومن ثم الماجستير والدكتوراه في مجال تخصص الميكانيك بعد أن أنهى ست سنوات من الدراسة المكثفة.

بعد نيله الشهادة الدكتوراه استقر في كندا، لتفاقم سوء أوضاع العراق الاقتصادية خلال فترة الحصار على أثر غزوه

الكويت. تكالبت الدول المغرضة على تحطيم قدرات العراق، فأدخلوه في نفق الحصار ثم وسيئت أوضاعه حتى أدركت الحضيض، عندها صارت قيمة العملة العراقية (الدينار) في الحضيض، بحيث الدولار الواحد صار يعادل ثلاثة آلاف دينار عراقي بعد أن كان الدولار يساوي دينارا مع انتهاء حرب العراق وإيران.

حينها استقر في كندا وتمكن من فتح ورشة كبيرة لإصلاح محركات السيارات في مدينة فكتوريا الكندية. بغياب نعيم خلال فترة دراسته، أدارت المطعم نوال برفقة أخوها الأصغر نواف وإعانة ناديا لهم... أخذ نواف على عاتقه إدارة المطعم بإرشاد أخته وناديا على الرغم من صغر سنه، تمكن من أعالة أمه التي تدهورت صحتها حزنا على أبنها نجاح وزادت شجنا بعد رحيل نعيم عنها، كانت قد يئست من رجوع نجاح بعد انتهاء الحرب، عندها أشتد عليها المرض حتى وفاها الأجل في يناير(كانون الثاني) عام 1994، كانت تلك هي فرصة جيدة أمام نعيم لزيارة العراق والاطلاع على الأوضاع المزرية التي آلت إليه اقتصاده، جراء تحالف دول العالم بقيادة أمريكا في فرض حصار مشدد على العراق.

بقي نواف وأخته نوال يتعاونان على إدارة المطعم بمساعدة ناديا لهم، إضافة لأربعة عمال من اللذين أعفوا من الخدمة العسكرية لعوق ما أو لمرض عضال أصابهم كالسكري. استمرت المجموعة بالتعاون لرفد عماد رزقهم امام تعسف الزمن ونكال صعوبات الأيام..

تمكن نواف من العمل والدراسة على ديدن أخيه نعيم خوفا من أن يساق للخدمة العسكرية الإلزامية التي تورط بها أخوه نجاح، واضعا تجارب أخويه نصب عينيه حتى صلب عوده. بات يدير شؤون البيت والمطعم، إضافة للحوالات التي كان يرسلها لأخيه في كندا كل شهر بانتظام، حتى أتم نعيم دراسته

على أتم وجه.

بذرة التعاون التي غرسها الوالد في صلب العائلة أتت باكولها، تمسكوا بها، جمعهم الحس والألفة، أضحت هي الأساس التي أوصلت العائلة لبر الأمان في خضم تلك المعمعة، التي زحفت على العراق بكل أشكالها المزرية.

استمرت حالة العائلة على هذا المنوال لغاية عام 1995م. استمر الوضع الاقتصادي والأمني في تدهوره بعد أن تجرد العراق من مقومات القوة تماما. وكأنَّ الحالة الاقتصاد كتلة حجرية صلبة تدحرجت من قمة الجبل إلى سحيق القاع لتفتت إلى أجزاء منثورة متناهية الصغر، توزعت على كاهل العراقيين بنفس النصيب.

بعد غزو الكويت عام 1990 وتحالف دول العالم بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضد العراق استمر قيمة الدينار بالهبوط حتى أصبح الدولار الواحد يعادل ثلاثة ألف دينار عراقي أمام ثبات مرتبات الناس. أي مرتب الموظف الذي كان يعادل 300 دولار صار يعادل ثلاثة دولارات في الشهر فقط!!.

واوووو...

أنه الدمار التام لكل عناصر الحياة، بحيث قضت تلك الأوضاع على الحس والنفس والمشاعر قبل أن تقضي على فرص العمل والأرزاق.... تلك العصا هي التي أدت إلى تمكن أمريكا وأعوانها من احتلال العراق في 2003 خلال أحدى وعشرون يوما فقط وذلك بعد أن تخلي الشعب الدفاع عن الحاكم المتسلط آنذاك... في دخولها لم تجد مقاومة تذكر، اضحى العراق هيكل عظمي دون قدرة عضلية، بلا مقومات تذكر، كشجرة نخرتها دودة الأرضة هكذا فعل الحصار بالوطن، صار هيكله من الداخل هش كالقطن المندوف.

تلك الأوضاع المزرية جعلت نعيم يبادر في سحب أخته

وأخيه نواف إلى كندا بحدود عام 1996م وخاصة نواف كان لازال طالبا بعد أن أكمل مرحلة الثانوية، فيما تم بيع المطعم لناديا مقابل مبلغ رمزي لتسترزق منه.

3- أسر زاهد

بعد معركة شرق البصرة 1982؛ أختلف تخطيط القيادة العراقية، صاروا أكثر بعدا ودقة واستراتيجية مما كانوا عليه، بحيث وضعت في الحسبان أنشاء فيالق جديدة مساندة، مع أعداد فيلق الحرس الجمهوري بحرفية فائقة ليكون القوة الضاربة، تم تجهيزه بأفضل الأسلحة الحديثة. أضحى كفيلق متحركة في خلفيات القطاعات المتجحفلة على جبهات القتال.

من جهة أخرى تمكن سلاح الجو العراقي من قطع دابر سلاح الجو الإيراني عن بكرة أبيه، بحيث بعد سنتين من الحرب التي دامت ثمان سنوات لم نشهد طائرة حربية إيرانية تحلق في سماء العراق.

على أثر اختلال الموازين؛ مالت كفة الحرب لصالح الجيش العراقي بقية سنين الحرب حتى استسلام الخميني علنا على شاشات التلفاز، على الرغم من تمكن القوات الإيرانية من عبور شط العرب واحتلال مثلث الفاو في شباط عام 1986؛ إلا أن تلك المعركة كانت قد قصمت ظهر القوات الإيرانية، بحيث أصبحت الفاو وميناء أم فصر وخور عبدالله مقبرة لجنودهم بعد أن خسرت ما كانت تعتمد عليها من قوات. كانت معركة الفاو سبب في قبول إيران وقف الحرب بعد أن وشلت تماما من المبادرة، أحرقت ما تبقى لديها من أوراق على صعيد المناورة والمبادرة.

بعد تحرير الفاو صارت القوات العراقية تصول وتجول في الاراضي الايرانية كما تشاء، تمكنت من تسيد جبهات القتال

وأسر أعداد هائلة من عناصر الجيش الإيراني، مما ولد ذلك ضغطا مخيفا على القيادة الإيرانية التي اضطرت إلى إعلان استسلامها، خانعة لشروط العراق.

في ليلة 11-12\5\1985 مارس، كانت القوات الإيرانية قد شنت عمليتها العسكرية المسماة بـ "بدر"، على جبهة طولها 10 كم بين جبهة القرنة والوزير، تمكنت خلالها من الاستيلاء على أراضي عراقية بعمق 14 كم قبل أن توقفها القوات العراقية في نهاية يوم 15 مارس ومن ثم تجبرها على الانسحاب للعمق الإيراني. في 18 مارس استردت كافة الأرضي المستولى عليها بعد أن تركت خسائر فادحة خلفها والتي تجاوزت 12 ألف جندي بين قتيل وجريح، في مقابل خمسة ألاف مقاتل عراقي. كما تم أسر عدد كبير من قوات الجيش الإيراني، وكان من ضمن هؤلاء الأسرى الجندي الإيراني **زاهد** والذي بلغ من العمر حينها ستة عشرة عاما.

لكن حال زاهد في الأسر اختلف كثيرا عما لاقاه نجاح خلال فترة أسره، حيث تم وضعه في معسكر مجهز بصالات رياضية، وبوحدة طبية، ومراعات صحية كاملة وبأشراف الصليب الأحمر الدولي.

كما انه وجد فرصة للعيش بهدوء وسلام بعيدا عن معمعة دفن الجثث، ونقل الجرحى وتحمل مناظر الدم والتشريح، حتى أنه فضل البقاء في الأسر عن الرجوع إلى إيران. رغم أن الشوق حاف به لأمه وأخوته، والذي صار يسأل عنهم في خاطره عن ما تبقى من خيط رفيع يشده بشجرة العائلة والحياة، والتي أضحت مصفرة تماما أوراقها...

يا ترى؛... كيف أصبح حالهم؟

كيف هيَّ أمه الأن؟

أكيد الأوضاع لم تتغير، ربما سيئت أكثر عن سابقها، أكيد

كبروا أخوته وكبر هم تربيتهم... يا ترى؛ هل يجلدهم العم حسن مثلما كان يجلدني؟ هل يدفع بهم لميدان الأشغال الشاقة التي تفوق قدراتهم، كما كان يفعل معي؟ هل و هل.....الخ. من تساؤلات شغلت باله.

على الرغم من أنه أصبح رجلا، يستطع أن يدافع عن نفسه، يستطع أن يقول كلمته ويفرض رأيه خلافا عما كان عليه من قبل؛ إلا أنه بات يكره ذلك الوجه الجهم، المكفهر، العبوس، الذي شرده ودعس على طفولته ومستقبله، والذي غير مسار حياته من واد لـ واد.

تلك النقطة السوداء ختمت ذاكرته، صفعته، تركت في وجهه حزن لابد كطفح جلدي بارز، بحيث كلما رأى صورته في المرآة هجس بذلك الحزن يغشي وجهه، مذكرا إياه بتلك القسوة الغير مبررة التي كان يسديها إليه عمه.

الوحدة والحسرة رافقتا صمته، هرشتا جلده، صار يميل لوهدة الصمت والسكون والتسامح، رغم شدة الألم..

قبل الأسر كان قد تجنب مراجعة عمه، كره مشاهدة صوره والتواصل معه، كان لايزال طفلا يحمل في قلبه غيض ثقيل، الرعب قيده من أعماقه.. ذلك ما كان يمنعه من زيارتهم خلال الثلاث سنوات التي قضاها في المعسكر قبل أن يؤسر. في كثير من الأحيان كان يرفض إجازته الدورية، لأنه لا يَجد لنفسهِ فسحة أو مأوى يؤممه، أو مكان يقضي فيه أيام إجازته... ولا يجد هناك من يروقه ويتقبله، ثم إذا ما ذهب إليه حتما سيجرده من ما يملك.

خلال فترة التحاقه بمعسكره كان قد تعرف على أثنين من أقرانه- رضا بختيار وهاشمي غلام- آلت الصدفة أن يعملا معا، في ذات الصنف والوحدة. لذا كان كثيرا ما ينسق إجازته الدورية مع أحدٍ منهم، كي يرافقهم لبيوتاتهم، بعد أن شرح وضعه لمسؤوليه مبينا قساوة ظرفه، وقد لاق ترحيبا جديا من

أصدقائه.

صار يذهب مع هاشمي ومرة مع رضا مرة، وهكذا دواليك قضى فترة خدمته برفقتهما، أستمتع مع رفاقه في جولاتهم داخل المدن الكبيرة، خاصة رضا الذي كان يسكن في أطراف مدينة طهران العاصمة، فيما هاشمي كان يقطن في مدينة أصفهان. من خلالهم تعرف على محيطه الخارجي، بات يقضي الإجازة في جولات ونزهات ولعب وتبضع مستلزماته الخاصة من لباس وأدوات شخصية يحتاجها كمستلزمات حلاقة وعطورات تروقه لتقارب أذواقهم.

لقد سره ذلك كثيرا، بنفس الوقت كان يتألم في داخله لفقدانه وشائج الأسرة الحميمية ودعائمها، كان ينظر لزملائه بعين الحسد والغيرة وهو يشعر بزخم العطف الذي يتلقونه من أولياء أمورهم، وعن حجم الترابط الأسري المتين الذي يجمعهم على المحبة، فلم ينسى قُبلة أم رضا له، حين ودعتهم في التحاقهم بعد أن قبلت أبنها، وحين أوصته بالرفقة الحسنة والمؤازرة لأبنها قائلة له...

- لا تهتم يا زاهد اعتبرني أمك، متى ما ترغب بزيرتنا نرحب بك.

سره كثيرا تصرفها، وفعلا أضحت علاقته برضا متميزة لأنه وجد فيه أخ صالح، رب أخ لم تلده أمه، بات يشكي له همه ويأمنه أسراره.

كما أنه لن ينسى الساعة الإلكترونية التي أهداها له أبو هاشمي، على الرغم من بساطة قيمتها؛ إلا أنها كانت لها اعتبارات شخصية كبيرة في قلبه، فهي أول هدية يتلقاها في حياته والوحيدة التي يتذكرها، لذا بقي محافظا عليها، لرفيع قيمتها ووقعها على نفسه، في الوقت الذي بات يكن لوالد هاشمي الاحترام والتبجيل..

بعد أن أُسر كان قد أفتقد رفيقاه، لم يعد يعرف ما آلت بهم الظروف... يا ترى هل أسرا مثله؟ هل قتلا؟ هل ... هل. حالة ظلت تشغل باله.

مر زاهد بنفس ظرف نجاح من ناحية كتابة الرسائل، حيث ود أن يخبر ذويه عن مصيره بعد أن اشتدت به العاطفة لأمه وأخوته.. وعلى الرغم من تسجيل عنوان ذويه للصليب الأحمر وكتابة عدة رسائل لهم بشكل دوري؛ إلا أنه لم تكن هناك أية استجابة من ذويه! بقي يعاني من عدم الرد على رسائله دون أن يعرف أسباب انقطاع أخبارهم. صار يقارن نفسه بزملائه، صار يحسد الذين تصلهم رسائل من أحبائهم...

الفارق بينه وبين نجاح ؛بأن رسائله كانت تذهب عن طريق الهلال الأحمر أو الصليب الأحمر، وتسلم للجهة الإيرانية، لكنها لا تعود إليه بخبر يطمئنه، بقيت الحالة غامضة دون تفسير، مما ولد شك في قلبه.

بعد انتهاء الحرب بفترة وجيزة كان قد فك أسره، حيث تمت مبادلة الأسرى بين الدولتين. عاد زاهد لوطنه مرغما، عازما على ملاقاة أهله.

بعد عودته من الأسر، سرح من الخدمة العسكرية كجندي متقاعد، وبذلك أصبح زاهد حرا، طليقا كطير مهاجر بلا مأوى! لا دار تأويه ولا عمل يشغله عن همومه.

4- حيرة زاهد

خلال عودته أنشغل في إيجاد عمل يسترزق منه، كما هم بمعرفة أخبار أهله. لذا صار يبحث عنهم ويتقصف أخبارهم.
حين عاد من الأسر أصبح بعمر يناهز التاسعة عشرة من العمر. بعد وصوله أتجه بشكل مباشر لمقر سكناهم في مدينة آراك يبحث عن عائلته، كان قد هاجه الشوق لرؤية والدته وأخوته، هجس بأنه بحاجة إلى حضن عائلي بعد غياب فترة طويلة دامت أكثر من ستة سنوات من المرار والبعد، لقد ضاق ذرعا من الوحدة والوحشة، كبر وهجس بذاته رجل لا يهاب سطوة عمه، ود أن يستشعر بأخوته ويحتضنهم ويرعاهم، ود معرفة أسباب عدم ردهم على رسائله التي أرسلها لهم خلال فترة الأسر.
أتجه إلى دارهم وهو يشك بذاته المهزوزة من قدرتها على تسوية الخلافات بينه وبين عمه، كما أنه دخل في متاهة التوقعات السلبية التي قد يواجها خلال اللقاء به. وما أن أدرك باب الدار حتى طرقه طرقا عنيفا..
تاك، تاك.....
طرقا فيه شوق لمقابلة والدته، حينها فتحت الباب له إمرأة غريبة مسنة، بدت مندهشة، سالته عن طلبه...
- تفضل يا بني ...ماذا تريد؟ ومن تكون لتطرق الباب بهذا العنف؟ هل تعرفنا؟
أجابها زاهد بغرابة...
- من أنت؟ - أين أمي؟-- هذه الدار دارنا!....أين

أمي؟...أين أخوتي؟
- ومن تكون أنت ؟
- أنا أبنهم البكر، كنت أسيرا في العراق وعدت من الأسر اليوم.
- الحمد لله على السلامة، ولكن يا بني؛ حسب علمي قد توفى أبنهم البكر في الحرب!! ولقد هجروا المنطقة لمحافظة أخرى بعد دفنه. كانوا قد باعوا البيت لنا، لا أعلم عنهم شيئا، لم يتركوا لنا عنوانا. أي أبن أنت؟
- أنا ...أنا أبنهم البكر.
- لكن المسؤولون جاءوهم بجثة، وأظن أسمه زاهد.
- أنا...أنا زاهد لم أمت، كنت أسيرا..
- لا إله إلا الله، المساكين دفنوك وعملوا لك فاتحة وباعوا أمتعتهم، ثم رحلوا.

سرح ذهنه بعيدا، جاب بحر الخيال، تجرد من الواقع ليغور في اللاوعي، بات يفكر بمصير أمه وأخوته، أشتعل قلبه حنينا إليهم، ذاب حزنا وشوقا عليهم، لاع بلسعة الفراق التي فرضت عليه صمته، أحس بوحدة مقيتة مفروضة عليه، أحس بذاته كعجلة مغروزة في كثبان رمل لا تقوى على التحرك. انهارت دموع غزيرة من مقلتيه، غسلت محياه، صار يسأل نفسه و يجيب ظنه...

ترى أين هم الآن؟ .كيف هي أحوالهم؟.. في أي بقعة يعيشون؟ ربما نزحوا إلى الجنوب، فأنها أكثر رحمة من الشمال. الناس هناك بسطاء وطيبون، لا يتاجرون بأرواح المساكين كما يحدث في الشمال..

ترى كيف أصبح شكل أخوتي؟..

أكيد سوف لن يتعرفوا عليَّ لو التقيهم في الطرق، تغيروا مثلما تغيرَت...

آه يا أماه ..

كيف هي أمي؟....
أظنها قد هرمت وتعبت كثيرا بغيابي.. أكيد زادت خطوط البؤس في وجهها بسبب فراقي ومعاشرتها عمي المسكين.
الحمد لله على كل شيء...
دفنهم الجثة والواجب الذي قاموا به سيكون في ميزان حسناتهم، والميت لن يكون غريبا أبدا فهو أخ لي مهما كان وأن لم تلده أمي.
مثلما أسلفنا سابقا فأن زاهد لم يكن له معارف وأقرباء في منطقته يعتمد عليهم، أقارب يسندوه ويقومونه، وأن تواجدوا فلا يستطيع التعرف عليهم لانقطاع الصلة بهم منذ صغره، لم يسمع بهم ولا يعرف لهم عناوين.
اضحى غريبا في وطنه، ميتا في قرارة نفسه وفي عرف الدولة وفي ظن أهله بعد أن جاءوهم بجثته، وبعد أن وجد لنفسه قبرا شاخصا يحمل أسمه...
إذا هو في سجلات الدولة ليس من الأحياء. ولا يعتبر ذاته من الأموات أيضا لأنه ببساطة يتنفس. ترى من يكون؟؟ بات يحمل هوية شخصيتين في آن واحد، أحدهم ميت والآخر حيْ، ترى أي شخصية ستسود وأيهما سيرتدي؟ الميت أم الحي؟
قرر دراسة الأمر والعيش بأحدهما.
قرر أن يذهب إلى المقبرة ليبكي نفسه الغائب الحاضر. ما أن بحث في المقبرة الصغيرة حتى وجد قبره. وجد قبرا يحمل أسمه على الرغم من أنه لازال حيًا يرزق، هذا يعني أنه من الأموات، الحالة تعد مسألة مرعبة له نفسيا، ترى كيف حسبوه من الأموات وهو لازال حيا يأكل ويشرب ويتنفس وينام؟؟؟ كيف؟
هذا يعني أنه لا وجود له اسما في كشوفات دوائر الدولة، المدنية والعسكرية. هذا يعني أنه قد شطب أسمه من سجلات النفوس العامة، كما شطب أسمه من قوائم الرواتب والصحة

حسب الإجراء اللازم، ومن المؤكد بعد موته قد خصص له راتبا تقاعديا يسلم لذويه كل شهر...
أن مات ودفن منذ ثلاث سنوات في سجلات الدولة، يا ترى؛ كيف سيعيش باقي عمره في هذا المجتمع وهو ميت؟
كيف سيتزوج؟ كيف سيعمل؟ من يثبت للآخرين بأنه حي وهو غير معترف به في سجلات الدولة؟
كيف سيحصل على قوت يومه وهو لا وجود له في الحياة، لا أحد يصدق ادعائه، الأوراق فقط التي تؤكد ذلك وتشهد له، وتلك الأوراق لا يمكن الحصول عليها من الدولة، لأن الاثباتات على صحتها تحتاج إلى إثباتات وشهود في غاية التعقيد.
وأن أدعى بحقيقة ما يشعر به وبوجوده؛ سيدخل في مدخل الكذب والنصب والإحتيال والتلاعب على الناس والدولة، عندها تحدث له مشاكل وعقد مع الدولة هو في غنى عنها.
كيف يمكن أن يستخرج أوراق ثبوتية تعينه على تجاوز تلك المطبات وإمكانية إيجاد فرص عمل مستقبلا ؟
كيف سيستخرج جواز سفر يساعده على تخطي تلك العقد بالسفر خارج الدولة، أن لم يكن له اسما في سجلاتها؟
بقي مشغولا في تلك المسألة العويصة.. كيف؟، كيف؟.. وكيف؟ وهو مكبل بعقد لا يمكن تجاوزها.
إذا يجب أن يبدأ من حيث يكون، فحسب الحالة الواقعية هو يحصل على راتب تقاعدي منتظم من الدولة، أي أن عمه يستلم مرتب التقاعد بدلا عنه، والمستفيد من ذلك أمه وأخوته، ذلك ما دعاه أن يسترح نفسيا، كونه استطاع مساعدة ذويه وهو ميت...
لكنه حي، على الرغم من أنه على قيد الحياة؛ لا يستطيع أثبات هويته، لا يملك أوراقا ثبوتية تثبت بأنه حيٌ يرزق. وإذا ما علم عمه بوجوده حيا؛ فأنه سيتنكر وجوده، سيعتبره نصابا،

محتالا، لن يرحب به إطلاقا! سينعته بخبث الأوصاف، لأن أثبات وجوده يعني قطع الرزق الجاري من راتبه التقاعدي الذي يستلمه من الدولة، اكيد سوف ينكر وجوده.
كما أنَّ زاهد سوف يعاني كثيرا حتى يحصل على تلك المستندات والأوراق الثبوتية، وهو ما لا يملك شيئا منها أمام القضاء، وهذه المسائل تأخذ فترات زمنية طويلة حتى تصبح في سجلات القضاء. ثم استخراج مثل تلك الأوراق في بلد تحرك موظفيه الرشوة والخبرة لن يصل لغايته وغرضه إلا بعد معمعة ومماطلة وفقدان الكثير، وإذا ما وصل الحقيقة سيجرد أمه وأخوته من حق التقاعد وبذا يضرهم في معيشتهم.
الحظ أو الدهاء أو القسمة التي لعبت تلك اللعبة القذرة والتي انتصرت لعمه على حسابه الشخصي، وضعته في خانة الاستسلام. الأمور متشابكة، والنفس لازالت فيها شيء من وخز الألم والحنين، لازلت عالقة فيها شوائب الذاكرة بحكم الدم، على الرغم من فترة الفراق الطويلة، إلا أنه لازال مكبل بحنين الماضي والمشاعر التي يكنها لأمه وأخوته، أنه قدره المكتوب على الجبين فلا مفر منه...
ففي أذهان أهله وأذهان دوائر الدولة وخاصة العسكرية منها أصبح مجرد ذكرى من الماضي، وإذا رغب بأثبات وجوده، سيتطلب ذلك وقتا طويلا وصراعا مع الروتين المعمول به في دوائر الدولة، ناهيك عن الاستنزاف الفكري والمادي لتحريك تلك الضمائر المتجمدة، نتيجة الغلاء والفاقة التي انتشت في جسد البلد وخاصة بعد فترة الحرب. تلك التي بدأت تزحف على أوصال المجتمع قاطبة..
لقد تبدلت النفوس، تغيرت المبادئ مقارنة بالفترة التي سبقت الحرب، ثم من أين له أن يأتي بذلك المال ليقدمه كرشاوي لضعاف النفوس من الجشعين المنتشرين كالعقارب في شرايين دوائر الدولة، والمتربعين على قراراتها، تلك الحشرات

الضارة تتغذى على دماء الأبرياء كالبعوض، تنقل الأمراض بين طبقات المجتمع.
بعد مراجعة حساباته وبعد أن توضحت له الأمور، وبعد أن علم سبب عدم رد أهله على رسائله خلال فترة الأسر، حزن كثيرا على نفسه بعد أن منحهم العذر على ما بدر منهم، حتما صعبت واشتدت الحياة عليهم فلاقوا ما لاقوه - لذا قرر أن ينسى مسألة أنه حي وينسى تقاعده، وتذكر بأن المستفيد من ذلك هم أخوته وأمه بالدرجة الأساس، وأنهم سيبقون يتذكروه ويدعون إليه بالرحمة والمغفرة.
حينها قرر أن يبقى ميتا كي تحيى أمه وأخوته.
خرج من أسر القوات العراقية لتأسره قوى خفية لابدة في قرارات الدولة وفي نفوس الناس وفي نفسه هو، قوى لن يقدر على صراعها ومواجهتها، مجهولة، مختفية بين السجلات وأوراق الدوائر وفي أذهان الناس، قوى لا يتحسس وجودها ولا يمكن أن يراها بأم عينه المجردة، أنما يتحسس وجودها بفكره وقلبه وخواء جيبه. قوى شبحية، تحمل من القسوة ما تزيده غلا عن تلك التي واجهها خلال الحرب، هلامية لا يستطيع أن يمسكها أو يتحكم بها أو يتعرف على شاكلتها ويفقه مضمونها، قوى خفية، مذابة في فرص المواجهة لتحرق بقايا زيت عمره وصبره.

تمعن طويلا في قبره حتى ذرف دموعا غزيرة على نفسه بعد أن ترحم عليه وهو مكبل بقيد الوحدة والحزن. ترحم على النفس التي أحتلت اسمه وقبره، لابد أن يكون مفقودا بالنسبة لذويه. لعنة الله على الحرب وتجارها....
صار يسب الخميني وصدام معا، لا فرق بينهما، الأثنان وعاء للعنجهية والدكتاتورية، لم يراعوا مصالح شعوبهم قط.
ثم عاد لوعيه ليبتسم، بل أنه أطلق ضحكة مجنونة في الفضاء،

تلك الضحكة كانت لا إرادية، هزته، صحته، أنفجر بها وكأنه ود أن يثبت لنفسه أنه لازال حي يرزق، موجود على قيد الحياة، فلم كل تلك المأساة والحزن؟؟؟....

يا ترى؛ لِمَ تبكي على مصير كاذب؟ على نفس لازالت حية؟ صار يتحسس جسده، يمسك رأسه، شعر بغبطة ورجفة لا إرادية حركت هواجسه، انهملت دموعه، حمد الله وشكره على بقائه وهو يشهد مصيره لدى الدولة، كاد أن يكون مكان ذلك المدفون، لكن الله نجاه من ذلك المصير لغاية أخرى، غاية لم يحن موعدها، ترى ما هي؟؟.

كان قد أفتقد أهله منذ أن تطوع في الجيش، ثم لم يعد يعرف ماذا ينبغي عليه فعله وسط معمعة تلك الأفكار المضطربة والغير مجدية، الغير مستقرة وسط عجزه وضعفه وفقره المادي والنفسي، في ظل ظرف مهلهل. حسب أبجديات الحالة كان من الصعب أن يحظى بحياة طبيعية حتى لو لم يكن ميتا لدى الدولة، لأنه دون أساس مادي واجتماعي، لذا فكر مليا بطرق تقئه تخبطات الظرف، طرق تعيد له جادة الحياة، المسألة تحتاج لسحر ما يبسط له الأمور.

تلك العقد ليست متعلقة فيه فقط، أنما مخزونة في باطن المجتمع المحيط به، هذا المجتمع صار صعب المراس، لن يتقبله أسيرا بعد أن كان لا يتقبله حيا، لن يحتضنه.

حسب قواعد العرف العسكري لا يحق له العودة للجيش مرة أخرى لكونه كان أسير حرب. إذا لا بد من تغيير محل سكناه لمحافظة أخرى، عسى أن يجد من يعينه على إدارة شؤونه، عسى أن يعثر على حظه العاثر بين متاهات الأقدار، عسى ان يجد له عملا ما يرتزق منه.

جالت في ذهنه فكرة أسعفته على تخطي ضعفه، تلك الفكرة تمخضت من وحي طيبته، الفكرة ببساطة هيَّ:

عليه أن يبقى ميتا حتى يجد ما يستحق أن يحيا لأجله.

في ظل موته سيحيون أخوته وأمه بتقاعده، أما هو فبإمكانه سد ثغرة فاهه بأي عمل بسيط، في أي عمل يومي لحين أن تفرج الأوضاع عن فرص لها جدوى تنقذه من معمعة تفكيره، وحتما ستأتي تلك الفرص ولو بعد حين، حيث الله لا ينسى عبده.
تلك الحبال التي تركها في عرفه التفت على رقبته، قست عليه كثيرا، وحتما ستفتتها شمس الرحمة في يوم ما، ستقطع أوصالها ويعود لطبيعته.
عليه أن لا ينتظر الفرص، عليه أن يخلقها بنفسه حتى لو كان يتنفس تحت الماء موتا وحيرة وعجزا. هم بالبحث عن تلك الفرص بين مخالب الظن ودروب العناء، في عيون الفرص والناس، بين ثواني الموت والنجاة، عسى أن تعود له شخصيته الحقيقة...
لذا أنتقل إلى مدينة بندر عباس على الخليج العربي، عاد وعادت له حريته ووعيه، تنقل خلالها من عمل لآخر كأجير هنا وهناك، جرب أعمال شتى من بناء وبياع خضرة وحمال على رصيف ميناء السفن وووو--- الخ.
أستمر في عمله هذا حتى تعلم أبجديات اللغة الإنجليزية، تمكن من إيجاد فرص التفاهم مع الأجانب الذين ترسي بهم سفنهم في الميناء...
جال بين الفرص حتى تمكن من أن يجد له سلما لنجاته، كان قد تجاوز عمره 33 سنة ولم يزل قابع في وسط الطريق ينتظر رحمة القدر، لا يملك في جيبه قرشا يعينه على معاناة الحياة، حيث لا زوجة ولا طفل يبتسم له ولا بيتا يأويه، أنه تائه، يعيش بين متاهات الأقدار، بين حاويات السفن، كان قد ركنه حظه هناك على حافة حلم تأمله، كان قد قطع تلك المسافة من العمر وهو يسير على جادة الرصيف بقدم واحدة، وحين ود استخدام قدمه الثانية ليلتحق بمصيره أصطدم بشح الفرص لعدم امتلاكه هوية تعرف ارباب العمل عليه، لذا فكر بالهجرة لينقذ نفسه من

الضياع، ليستقر في بقعة لا ترتعش عليها قدميه.
كانت فرصة الحمالة في الميناء ساعدته على اقتناص الفكرة، أستطاع من خلال عمله أن يشرح ظرفه لكابتن أحدى السفن الكندية ليرحم بحاله فينقله على باخرته خارج إيران، كان القبطان قد رأف به بعد أن سمع قصته الغريبة، فقرر إنقاذه من حالة الموت التي يعيشها في وطنه لحالة الحياة.
بصعوده على متن الباخرة كان قد قلب صفحة جديدة من حياته ليبدأ رحلة جديدة من الصفر، دخل في عالم الكشف عن الذات، عالم لا عواصف فيها ولا حسابات، ليولد من جديد باسمه المعتاد في بلاد الغرب.
وصل بعد شهر من أبحاره إلى مدينة فانكوفر الكندية في أيلول عام 2002 ليبدأ رحلته ميلاده الجديدة وعمره الجديد من هناك.

5- إطلاق سراح نجاح

في تشرين الأول من عام 2000 م أطلقت إيران وجبة من المأسورين وعددهم مائة وعشرون أسيرا، كانت قد أخفتهم عن أنظار منظمة الصليب الأحمر الدولية طوال تلك المدة، وكان من ضمن هذه الوجبة الأسير نجاح بعد أن قضى ثمانية عشرة سنة في الأسر، وكانت قد نشرت الوسائل الإعلامية المقروءة والمسموعة أسماء الأسرى...

(وأنا أكتب أحداث الرواية في 2016 نشرت وسائل الأعلام العراقية قبل اسبوع خبر إطلاق سراح وجبة جديدة من الأسرى وعددهم مئة شخص، وحين راجعت الرواية في شهر كانون الأول من سنة 2020 اطلقت إيران سراح 80 أسيرا جديدا اعتبرتهم كوجبة أخيرة والله أعلم)...

يا الله كم هو حجم الظلم الذي وقع على الأسرى العراقيين، ترى بعد أن مكثوا 28 سنة وقسم منهم 32 سنة في الأسر، ماذا بقيَّ من العمر ليتدبروا امر أنفسهم وحياتهم وعوائلهم؟ – بأي شرع وأي دين احتجزوا الاسرى كل تلك المدة، على الرغم من انتهاء مسببات الحرب عام 1988 ؟...

بعد أن سمع نعيم أسم أخوه نجاح ضمن قائمة الأسرى وتأكد من أنه لازال حيا يرزق، لم تسعه الفرحة، احتفل مع العائلة وشلة الأصدقاء وبعض المعارف في كندا... لم ينتظر طويلا حتى أتصل بـ ناديا، طلب منها استقباله ومراعاته حتى يتمكن من إخراجه من العراق للأردن، وسيكون في استقباله ونقله إلى كندا خلال أسبوعين.

كان للخبر وقع سيء على ناديا التي تأزمت نفسيا، حزنت على حظها العاثر، في الحقيقة رغم الفراق الطويل لم تنساه ابدا، كانت الصدمة كبيرة عليها، استعادت خلالها ذاكرة الزمن، جالت في تلك الخواطر التي بنت عليها أحلامها الوردية.

بقدر ما فرحت على بقائه حيا؛ حزنت على حظها وقسمتها مع قاسم، الخبر أعادها للمربع الأول، إلى لحظة التعارف والشوق والتأمل، لا تعرف كيف ستتعامل معه وكيف تستقبله بعد أن تغير وضعها القانوني بزواجها من قاسم، ظلت تفكر بنفسها وبه وباستقباله، أنه الحبيب الوفي الذي سلب قلبها وخار في غياهب الجب.

عاد أخيرا للوطن بعد أن مكث قرابة 18 سنة متحملا عناء الاسر، تحمل خلالها ظلما وحرمانا وقسوة جائرة يصعب وصفها، تعرض خلالها لغسل الدماغ والقلب، تشبع بأنواع العقد والأمراض، عاد بطبق من النكد والكآبة واليأس، عاش فترة صراع مع الذات لتشعب طرق الجور والتعسف... طوال فترة أسره بقي متعلق بخيط واه من الأمل بالنجاة، بقي يقاوم الظلم بالصبر، والبعد بالحلم مستندا على رؤية والده.

كان جورا ما بعده جور، فيه التصق سره بالروح والجسد كسخام القدر، ترك أثرا بالنفس التي تشبعت من انتان الأسر.. تحول شكل الغل الذي عاش بكنفه لطابع اتصف بذاته وصار ينعكس على من حوله. لقد خرج من بوتقة العقد بمجموعة عقد مثلت شخصيته الجديدة، فلم تعد تلك الذات تمثل حقيقة ذاته التي عاش بها بالعراق، أنها صورة لزمن مر، وجد نفسه كطير خرج من قفصه ناسيا لعبة الطيران، خرج بهيكل بلا روح وبلا مرونة في العقل والجسد، لقد كسرت مجاديف الحياة وبددت مياه أحلامه.

صار يهجس بفناجين الحظ مقلوبة على وجهها، تحمل في

طياتها شخابيط لا تؤدي إلى حقيقة كيانه واحلامه. كؤوس الصبر فارغة من البهجة. لقد تفنن سّجّانيه بتفعيل وتشكيل صيغ العذاب، لقد تعرض للذل والهوان والضرب والجوع والشتائم حتى صارت تلك الامور عادية في حياته بعد أن نزع الكرامة، كان يجلد لأتفه الأسباب، يعاقب على السؤال والحاجة، كثيرا ما تعرض لقسوة طقس الشتاء وزمهريره، ولنار الصيف ولهيبه؛ حتى إنهار نفسيا وفكريا وجسديا أمام جلد الأسر.

أذكر حالة أحد الأسرى حين التقيته في ورشتي وهو يود إصلاح تلفازه العاطل، كان يمشي منحني الظهر، يعرج بساقه، يتكأ إلى الجهة اليسار في مشيه - على الرغم من أنه يصغرني بعشرة سنين إلا أنه كان يبدو أكبر مني سنا، حينها تعاطفت معه وسألته:...

- يا ترى؛ هل كنت أسير حرب؟
- نعم.. وكيف عرفت؟
- منظرك يدل على ذلك..... كيف أسرت ؟ هل أصبت خلال المعارك؟
- لا لا.. لم أصب بتاتا! اسرت وأنا بكامل صحتي.
- لكنك معوق ومنحني الظهر؟-
- تأسرت وأنا سليم معافى، لم أصب بشظية ولا بإطلاقة نار، ما تراه بأم عينك هو أثر التعذيب الذي طالنا من قبل سجانينا! كنا نجلد في العراء وفي عز الشتاء. ومن كان يجلدنا هم بعض أسرانا الذين باعوا الذمة والضمير والوطن، هؤلاء الذين انتموا لشلة المعارضة وصار يطلق عليهم التوابين، صاروا ينفذون ما يؤتمرون به، وهو بمثابة أثبات حسن نية لأسيادهم وولاتهم..... جراء التعذيب كسرت ساقي، وكسر ظهري ولم أعرض على طبيب قط، أنما جُبرت الكسور بذاتها على نار الصبر

والآه.. كانت تمر علينا ليال رعب لا نسمع فيها سوى الصراخ وأصوات الأنين المطلق من بعض الغرف، حينها تشعر بالرعب، تشعر بأن الموت قريب منك،

أنشغل نعيم بتكملة معاملة إخراج أخوه من العراق، غمرته فرحة بملاقاة أخيه بعد سنين الفراق المرة، شاكرا الله على سلامته، أستطاع استخراج جوازا له لغرض العلاج عن طريق ناديا، كما تمكن من استخراج فيزا لأخيه نجاح لدخول الأراضي الكندية. أنه أخوه الأكبر، وقد عانى ما عانى من فراق وحرمان وأسر وتعذيب وشتات فكر وآلام جسد. كان قد ضحى في حياته ومستقبله من أجل إسعادهم ومستقبلهم، ومن أجل غاية في نفسه لم يدركها، جاء الآن دور أخوته في انتشاله من مأزقه..

لابد من إنقاذه ومكافئته، لابد من مساعدة عاجلة يتلقاها تعيد له توازنه وبهجته، لابد من شحنه بطاقة جديدة من الألفة والمحبة ليعود للحياة الطبيعية تدريجيا، لا بد أن يدخل إلى المصحة لعلاجه نفسيا، أكيد أنه قد أفتقد الكثير من المواصفات العقلية والإنسانية والبدنية العادية التي نتمتع بها، قد يكون مختل عقل وهزيل بدن وكفيف مشاعر، أنه بعد الأسر أضحى أشبه ببنيان أصابه الزلزال.

حتما هناك أشياء تنقصه وتعيبه وتكبله، حتما تنقصه ثقته بنفسه وبالآخرين، تنقصه المادة والأعداد الذاتي والجسدي والتخاطر بين الناس، ربما أفتقد لغة الحوار ونسى حلمه وأسمه، ربما صار شخصا بلا هوية..

الاحتمالات واردة بعد تلك المعاناة المذلة، الطويلة، ولن يكون سويا بكل المقاييس اطلاقا.. إذا هو بأمس الحاجة لمد يد العون له، أنه بحاجة لرعاية تامة، رعاية نفسية وبدنية وفكرية، أنها ولادة جديدة بالنسبة له، ربما خلال فترة أسره لم يقرأ صحف ومجلات، فالأيام المرة مسحت تأملاته وأحلامه

وذاكرته من خارطة الذهن، أكيد تحول لإنسان آخر لا يشبه نجاح، ربما شكله ايضا تغير، لم يبقى منه سوى هيكل ملامح عبثية نتيجة الظلم وأسم يدل عليه.

ذبلت طراوته، يبس عوده، قد ينكسر من هفوة إذا ما أصطدم في الواقع المتغير الذي سيلاقيه أمامه، لذا يجب الإسراع في مد يد العون له، ليشعر بأننا عضده وعمقه ولم ننساه قط، يجب أن يلتمس اهتماما من قبلنا قبل أن تقصفه المناظر الكئيبة التي فرضها الحصار بعد أن انقطعت عنه الأخبار لفترة طويلة، قبل أن يلتمس المفاجئات التي ستتفجر أمامه كألغام مدفونة في طرقه، وخاصة الوقائع المحيطة به مؤلمة بعمق جرح العراق.

لم يكن يعلم شيء عن سفر أخوته وموت أمه وزواج حبيبته، لم يكن يدرك ذلك التغيير الذي طرأ على جسد المجتمع جراء حرب الكويت والحصار الظالم الذي فرض على العراق لمدة 13 سنة من قبل المجتمع الدولي.

لم يكن يعلم شيئا مطلقا عن الثغرات التي حصلت في جدار العلاقات الإنسانية بين الفرد والأسرة وبين البشر والمجتمع، ناهيك عن درجة التخلف التي شرخت بطانة المجتمع وباتت تعم شرائح واسعة من الذين تركوا المدارس بحثا عن لقمة العيش. إذا ما ألتمس صفة الخنوع والأذلال التي لحقت بالمجتمع، وحجم الرشوة المنتشرة في دوائر الدولة، وتفشي الأمية على نطاق واسع، ستكون له صدمة توازي صدمة الأسر، وبالذات حين يكتشف العقد التي تفشت بين الناس كتفشي الجرب في الجسد.

كان العجز قد أستباح أركان الدولة، أثر ذلك على أروقة الحياة، أصفرت أوراق الحياة وضمرت العروق، غدى البساط بساط قفر، غصت العيون في المحاجر، هرمت النفوس،

شاخت، نتيجة القحط باتت تأكل الحصب، أضحت رعدت العجز والكِبر تصيب الفرد وهو في مقتبل العمر، لذا كثرت الأمراض النفسية والجلطات التي صارت تصيب الشباب والشياب على حد سواء..

لم يكن يعلم بكل تلك الأجواء التي حلت بالمجتمع بعد أن تقطعت به السبل في معسكر الأسر. في الحقيقة المعسكر لم يكن معسكرا للأسر قدر أن يوصف كمعتقل للمجرمين خال من كل أنساق الإنسانية والأخلاقية.

نتيجة القسوة التي عومل بها في معسكر الاسر، أضحى كآلة لا روح فيها ولا مشاعر، تراخت ذاته في غيبوبة تامة في ذلك البدن المرهق. أضحى كأصحاب السبت في تيه من أمره، ضاعت عليه عدد السنين والأيام والأحلام، لا علم له برزنامة حياته والتاريخ إلا بعد أن قررت الحكومة الإيرانية إطلاق سراحه مع مجموعته، كانوا قد حرموا من الاتصال بالعالم الخارجي، لا صحف ولا إعلام ولا تلفاز ولا مراجعات من المنظمات الإنسانية.

أدرك نعيم بأن تلك السنين العجاف قد هرست أخوه، افقدته الكثير من ميزاته، ربما بذاته لا يعلم حجم الخسارة النفسية والمادية التي تعرض لها... كانت إيران قد اطلقت سراحهم بعد أن التمست عدم جدوى بقائهم بعد أن افتقدوا كل شيء في الحياة، كما اعتبرت تواجدهم في معسكرات الاسر تجارة خاسرة بعد أن نالت منهم ومن أهاليهم تماما.

وصل نجاح العراق وهو على أمل أن يرى افراد عائلته في استقباله، أن يرى ناديا وجيرانه، أن يهنأ بمطعمه، أن يجده بأبهى صورة، ذلك الشيء الوحيد الذي بقي عالقا في ذاكرته. لكنَّ فكره الذي طُويت صفحاته، أضحت أوراقه مهترئة، لا تحتفظ إلا بشخابيط ذكريات أمس. لا يستطيع تفسير ركم أحداث السنين المرة. تلك الشخابيط ظلت في ذهنه أشبه

بخطوط سقيمة، حفرتها القسوة، تذكره بأحلامه، رغم لونها الباهت في أعماقها، إلا أنها فيها وقائع عزيزة تذكره بماضيه.
أحيانا يعجز الانسان فك شفرة رمز ما تعلق في ذهنه، نتيجة الصمت والنسيان والعجز في التفكير والوحدة، هكذا وصلت به الحالة لحالة القيد والعجز التام.

حين وصلوا الوطن وصلوا دون إعلان وبهرجة، وصلوا بساعة غفلة، استقبلوا استقبالا باهتا من قبل ضباط في اركان الجيش، لم يصل ذاك الاستقبال لحجم التضحية التي ضحوا بها، خال من كرنفال البهجة والتبجيل. عادوا بعد أن ذبح العراق على يد الصهاينة والأمريكان والإنجليز، فلم تبقى في معيتهم من دعابة يتسلون بها أو فرح أو مرح يبهج ناظرهم.
تم تكريمهم بمبالغ زهيدة لا تكفي مصروف شهر، برفقة كتاب شكر من وزير الدفاع لا يرتقي إلى درجة الشجاعة. كما تم أخبار ذويهم واستدعائهم لاستلام اسراهم، وتوصيلهم لمآربهم كل حسب رغبته وغايته وطلبه.
البعض صار يبحث عن ذويه في دفتر الذكريات، بعد أن تغيرت الكثير من العناوين، منهم من هاجر بعد اشتداد الفاقة، ومنهم من بطش به الجوع، ومنهم من باع منزله، ومنهم من أفتقر وباع حتى أثاث البيت وسكن في العراء، منهم من مات وهو حي، والقليل منهم من نجى بنفسه وتمكن من الهرب خارج حدود القطر ليضمن له ولأسرته حياة كريمة.
بات الحاضر لا يعر أهمية للغائب العائد، حيث لا يملك في يده شيء يستحق تقديمه له بعد أن افتقد الكثير من المحبة والمشاعر، المصائب كثرت واختلفت عناوينها، لكنها جميعا تعوم في مركب واحد، في مركب التشتت والانهيار.
هؤلاء الأسرى كانوا في الأسر كأشباه البشر، أشباح على هيئة بشر بكل ما تعني الكلمة، لا يفقهون سوى الذل والخنوع،

طـافوا فـي واقـع لـم يكـن واقعهـم، ثـم وصـلوا لشـاطئ لا يعرفـون عنـه شـيء، أنهـم فـي ضـياع تـام... مـنهم مـن أخـذ يبحـث عـن ذويـه على ما يتذكر من عناوين كنجاح.

كـان نجـاح قـد أصـابته الدهشـة والانكسـار حـين رأى التغييـر الجـذري الحاصـل فـي النفـوس والشـكل والملـبس وهـرم الشـوارع والبنـاء وهـو يتجـول بسـيارة التكسـي ذاهبـا لـدارهم القديمـة، بعـد أن يأس من أن يجد من يستقبله ويمد يد العون له.

ترى ماذا أصاب الناس والمجتمع؟....

صار يسال والسائق يجيبه.

أحيانـا المنـاظر المحيطـة بـه تجيـب عـن أسـألته، البـؤس الـذي ركـب المشـاهد يجيبـه، تـراكم الأوسـاخ والقـرف فـي الازقـة والشـوارع تجيبـه، الفاقـة البائنـة فـي هنـدام البشـر تبـين لـه الحقيقـة، ذلـك العبـث الحاصـل فـي الوجـوه والنفـوس والجـدران تخبـره بمـا جـرى، كـل تلـك الحـالات تعنـون لـه أوجـاع مـا حصـل للنـاس مـن بعد أن تأسر.

فيمـا سـبق نـادرا مـا كـان يـرى متسـولا يتسـول فـي شـوارع بغـداد، أمـا مـا شـاهده خـلال الطـرق كـان المنظـر مخيفـا. أضـحت بغـداد لا تشـبه ذاتهـا، تغيـرت كثيـرا عمـا كانـت عليـه، غـدت تشـبه مـدن أفريقيـا البائسـة، تفشـت جائحـة الفقـر فـي الأرجـاء، المزابـل طفحـت تعـوم فـي الشـوارع حتـى علـت الأرصـفة، باتـت سـمة مـن سمات بغداد.

تركـز فكـره فـي نقطـة واحـدة تخـص أهلـه وحبيبتـه؛ تـرى كيـف أصـبحت أحـوالهم بعـد أن رأى مـا رأى مـن تغيـرات مخيفـة عقصت فكره وبصره؟.. يا ترى لِمَ لمْ يستقبلوه؟...

بعـد أن رأى مـا رأى خشـي علـى أهلـه مـن تغيـر احـوالهم نحـو الأسـوأ، أنقلـب حـال البلـد علـى قفـاه! لابـد أن يشـملهم التغييـر، بقـي فـي ذهـول ودهشـة، لـم يكـن قـد سـمع بحـرب الكويـت، ولا بحـرب الحصار. لم تخطر في باله الفكرة أن يسأل عما جرى.

مضى يمشي باتجاه الزقاق وعيونه تتلفت في الأرجاء، تترصد التغييرات الحاصلة في مرافق الحياة، لم يجد تغييرا في البنيان بعد أن كانت تعج شوارع بغداد برافعات الإنشائية لشركات الأعمار الأجنبية والوطنية لكثرتها، حال الشوارع لم تتبدل أوضاعها، بقيت على حالها، بل زادت حفرا وبانت أكثر قدما وخرابا عما كانت عليه.

فيما الجشع تفشى في النفوس، عبث بأوصال المجتمع، بات المرء لا يميز بين الضحضاح والراكن، تكاد تكون الميزة الثابتة التي تجتمع عليها الناس هي الفاقة، والحاجة. وكأنَّ تلك اللحمة والألفة افتقدت مزاياها، افتقدت الرأفة التي كانت سارية في المجتمع، اتسمت العلاقات بالغش والخداع والنصب والجشع، لتعيد لذاتها شيء من التوازن المفقود.

ذلك ما سمعه من سائق التكسي وهو يوصله لمنطقته التي يتذكر أسمها ونسي ملامحها.

وصل زقاق بيتهم في شارع الكفاح، في جو عاصف مغبر به اشتدت الريح السَهَجَة لترتفع الغبرة في الاجواء، يكاد المرء لا يرى وقع قدمه من هول الغبرة المنتفضة، رياح تصك الأبواب والنوافذ وتصر الآذان، تحف الأشجار بزفيفٍ الشجن. فيما الطرق تعج بقرقعة العلب الفارغة وصفائح التنك والألمنيوم وأكياس النايلون المتطايرة، وخشخشة الكراكيب المطروقة والمبعثرة مع الريح، مما زادته كآبة وشجن، صفعته بالبؤس والهوان.

الريح بشدتها ترشق الأرصفة بالمياه الأسنة الطافحة من المجاري والسواقي الممتلئة في الدروب وممرات الأزقة. تلك المياه المحصورة، لم تجد لها تصريف بعد أن حيكت مناخلها بالأوساخ وأكياس الزبل؛ حتى سدت منافذها بعد أن رفعت البلدية يدها عن تشطيفها وتنظيفها، كان للحصار دور في طفش العمال والموظفون الذين لم يجدوا في عملهم ما يسدوا به

منافذ الفقر، لم يجدوا متنفسا يعينهم على إدامة سر الحياة.
أصيب نجاح بخيبة أمل، جراء سطوة المناظر المريبة على مفاتن المدينة، تلك الاوضاع شرخت فكره وشرحت واقع الحال له، لم يجد ملاذا لهوى ظنه، ولا شعر برائحة الوطن ترهف فكره وقلبه.
قبل أن يرى الواقع بأم عينه كان منتعشا بخلاصه من فترة الأسر، توقع أن ينعم بصورة تأهله لإعادة ترميم الذات والعودة لما كان عليه من عمل في مطعمه، لكنه الصورة المراءة خيبت ظنه، فلم يجد سوى ذات البؤس مبثوث في الأزقة والطرق وفي وجوه العامة، البؤس يزين جدران البنايات التي تشهق بالإهمال والقدم.
لقد أخبرته الآفاق بضنكة العيش المرير، فلابد من خيبة تنتظره، طالما سخطها يعم أرجاء البلاد.

فعلا أحاطت به خيبة أمل حين داهمته الحيرة وهو يبحث عن باب دارهم الذي صار يتخيله، حيث وجد اختلافا في شكل الباب، تاه بين الدور التي تغيرت واجهاتها، أحتار بين أن يطرق الباب الأصفر أم الأسود أم الأبيض، وبين أن يسأل المارة عن دارهم وعن أهله!! لم ينسى لون باب الدار الأبيض الذي كان فد صبغه بيده!، يا ترى أين أصبح؟
أخيرا طرق الباب ذات اللون الأسود عسى أن يكون هو باب دارهم، كان موقنا من أن الدار دارهم، وأنه ستستقبله أمه بالحب والأحضان. طرق الباب طرقا عنيفا فيه شوق ولهفة.
فتحت له الباب امرأة غريبة الشكل، لا يعرفها، لم يكن قد رآها من قبل --- سألها بغرابة:.....!

- العفو منك يا أختي -- من أنت؟ أليس هذا هو بيت أبو نجاح؟-- وأين هيَّ أم نجاح؟
- في البداية عرفني بنفسك من أنت.. ومن تكون؟

- أنا ..... أنا نجاح وهذا البيت بيتنا--- كنت أسيرا وها قد عدت من الأسر اليوم.
- تفضل أخي استرح... تفضل البيت بيتك---
- أين أمي؟
- في الحقيقة نحن اشترينا الدار من أهلك قبل أربعة سنوات تقريبا... لا نعلم عن وجهتهم الحقيقية، أين ذهبوا ؟.. أين ارتحلوا ؟ الله وحده العالم، لم يخبرونا بذلك--- لكن ممكن أن تعرف جُلَّ أخبارهم من صاحبة المطعم، هي كانت شريكتهم.

لم يكن يعرفه أحدا من الجيران، تغيرت ملامح وجهه كثيرا مثلما تغيرت ملامحهم، تركهم في عمر الثمانية عشرة فقط والآن ناهز السابعة والثلاثون من العمر، لكنه يبدو بعمر الخمسين أو يزيد نتيجة تبعية آثر الاسر.

أنها ضريبة الحرب..

آثار الأسر واضحة على ملامحه، ضعف حاله، أبيض شعره، شعثت لحيته، ضعف بصره، تقوست بنيته، كل تلك الأمور جعلته غريبا عن الحي، إذا ما أخذ بعين الاعتبار ملابسه المهلهلة.. كما الناس كبرت وشاخت، الطفل صار رجلا والرجل عجوزا، إضافة لتأثير الحصار الواضح على المجتمع الذي جعل الفرد لا يهتم سوى بذاته، كما أن فترة الأسر رسمت له شخصية جديدة، في الوقت الذي به تغيرت سمات الناس.

الحيرة التي قمصته أضحت واضحة في نظرات عينيه، أعطته صفة أخرى تزيده غربة وبعدا عن واقعه، أضافة لفقدانه لكثير من خطوط الذاكرة التي كانت تربطه بماضيه. لم يعد يتذكر أسماء معظم أبناء الحارة، القسوة التي تعرض لها أنسته أسمائهم وأشكالهم، بهت لون الحرف في ذهنه، تغير

شكله في خياله، يكاد لا يرى من ذاكرته سوى خطوط وهمية لا يستطيع تجميع مفرداتها..

كل شيء في حياته بهت وتغير لونه وصفاته، لم يعد يتذكر جيرانهم وبيوتاتهم.

تلك الصور شرخت الزمن بينه وبين معارفه، صار بعيدا كل البعد عن وقع حيهم.

التغير الحاصل في النفوس، أوقع الناس في شرك المصلحة الخاصة، صار الأخ لا يشعر بأخيه ولا يفكر بمصلحته، والصديق لا يراعي صديقه، فما بالك بأسير شبه ميت تناسته الذاكرة منذ أمد، الناس تكاد نشف ريقها وجفت قلوبها من الرحمة إلا ما ندر.

التغير طال كل شيء، لم يدع حاجة إلا وتغيرت سماتها، تغير حصل في الجماد والشجر وفي الحدائق والشوارع والبيوتات والنفوس، الحياة صارت أكثر سوداوية مما كانت عليه، باتت حزينة، كئيبة، وحشة.

التغيير زحف على الجيران، على الأخلاق والخواطر والقيم، شمل جميع السكان، كأنَّ الصغير قد شب وكبر، والكبير عجز وكهل، أو مات أو هاجر وقطن بعيدا عن الوطن، الكل نال ما نال من قسوة الحياة وأنشغل في حال سبيله، لا أحد يأبى تدهور احواله.

ياه --- أنها فترة طويلة 18 سنة..

طرق باب جارهم أبو سمير الذي كان خياطا في شارع الجمهورية، وأكثر الجيرة التي ارتبطت بهم وبنت صلة حميدة بين العائلتين، عسى أن يتعرفوا عليه ويخبروه بمصير أهله..

..إلا أنه صدم بأنه لا أحدا يعرفه من الأولاد بعد وفاة والداهم، سأل عن جارهم أبو عصام الفيترجي، لكنهم أخبروه بأنه قد هجر البلاد مع بدأ الحصار..

إذا لا أحد يعينه، صار يجر أذيال الخيبة متوجها لمطعمه، دون أن يسمع خبرا عن أهله، عسى أن يلتقي ناديا ويجد مراده عندها وتفسر له معنى الحصار المبهم.....

مشى بخطوات سريعة يحثها الحنين، في كل خطوة يخطوها يجد فيها لهفة تترجم له إحساسه وشجون أمس، في كل خطوة صار يذرف دمعة حزن على ما ضاع من العمر، صار ينزف شوقا لندى الماضي، هنا وهنا وهناك له مراجع، بدأت تتفتح براعم الذاكرة، أشبه بورود لُذِعَتْ بنور الشمس، رقت تغازله بعطرها.

تذكر لحظة عصيانه لأبوه عندما رفض مساعدته في لحظة ضعف ما، حينها كان قد فضل اللعب مع زملائه على إعانته في المطعم. تذكر حين صفعه أبوه على خده بيده الغليظة، تذكر مشاجرة أمه مع أبيه لحظة سماعها صراخه وهو يأن بين يديه، هبت لنجدته كاللبوة، كان لازال برعما في الثانية عشرة من عمره...

تذكر أصدقاء المحلة، كريم، عصام، فارس، صفاء. يا ترى أين هم الآن؟ ماذا فعل الدهر بهم؟ هل عاقبهم الدهر كما عوقب؟

ترى أين ذهبت تلك اللحظات المجنونة التي شطت بالشباب، أين ذهبوا؟ هجس بتلك السعادة وكأنها بالونات لم تحتمل عصف الزمن ولا حجم أحلامهم، تفجرت لسخونة الأجواء، فلم تبقى منها سوى الذكريات.

كان يمشي كالضرير، لا ينتبه على الناس من حوله، تعثرت خطواته كثيرا في مطبات أمس، نبشت ذاكرته التي لم تتزحزح عن تلك المواقع. ذكريات أنعشت فيها الحنين إلى الماضي وهو يتأمل الطريق إلى مطعمه، أضحت تلك الذكريات أشبه بينابيع تتفجر تحت خطوات قدميه، ففي كل خطوة يتمزق غشاء الذاكرة لتنبجس منها لمحة من الماضي تعيد له حيويته.

هكذا تناثرت أوراق الذكريات في الطريق كنجوم درب التبانة تبع أثرها، استعان بها على مآسي الزمن، تأمل أن يجد في مطعمه بصيص رجاء تعيد له الحياة..

6- لقاء نجاح بقاسم

لم يدرك نجاح مدى سهوه خلال الطريق المغشي بوابل من الذكريات، لكنه ادرك بأن لكل ركن مرَّ عليه له وقفة وذكرى وألم، لكل جدار ورصيف وممر تعرف عليه له فاصلة ونقطة. لم يدرك كم صرف من الوقت حتى تمكن من تجاوز حالة الذاكرة التي أرهقته، كانه خلال الطريق جمع أشلاء أحلامه من الطريق التي مزقتها آلة الحرب، رافقته الدموع والحسرات مع كل خطوة من خطواته وهو ماض باتجاه المطعم، مع كل خطوة كان يهجس بأنفاسه تنفث وهو مكبل بهيامه القديم لمطعمه وحبيبته.

رغم تلك العاصفة الهوجاء التي أرهقت كاهله وهي تدلق به مع كراكيب الاشياء المبعثرة في الطرق وأكياس النايلون المتطايرة، مع قرقعة العلب والنوافذ والأبواب المصطكة، تلك الريح التي أجبرت الكثير من الناس بالانزواء والمكوث في بيوتاتهم لتجنب سخطها ونثار غبارها، إلا أنه سايرها لمرفأ ذكرياته القديمة مضطرا، باحثا عن الوجود والحقيقة التي افتقدها دون إرادة. تلك الريح داعبته، لاعبته لعبة الاطفال، دلقته للأمام وتأخره سحبته..

خلال الطريق لم يلتقي بأحد من معارفه القدامى والتي تغيرت ملامح وجوههم فباتت وجوه غريبة بالنسبة له ومنسية، وكأنَّ الناس قد تغير فيها الجذر والأصل، أو أن الجيل القديم طويت صفحاتهم، فلم تعد بالإمكان التخاطر معها أو تلافيها.

وهو ماض في طريقه كان يتطلع في وجوه المارقة به بحثا

عن قبس نور يذكره بسلطانه وشخصيته، ليفسر له ما جرى للبلد وما ترى عينه من اتلاف واعطاب وتشويه حاصل في شكل بغداد والأبنية والوجوه، يعينه على تفسير نشيج خواطره، لكن دون جدوى.

لم يخطر في باله ولم يتوقع قط ما كان قد حصل من تغيير في معالم بغداد وفي أحوال الناس الاقتصادية، ربما سيعيش عمره القادم كأسير ذاكرته القديمة، بعد أن لاع ما لاع مما رأى من شتات الصور والضياع الحاصل من حوله.

دموع الشجن غسلت وجهه المشبع بذرات الغبرة، الريح كبلت سعيه، أخرت خطوات قدميه، منعته من الحركة الديناميكية نحو هدفه، كأنها ودته أن ينسى ماضيه.

فيما ركب سعيه مركب الحزن الدفين والشوق الرهيف برغبة جامحة، رغبة كامنة في أعماق صدره، الدافعية تدلقه نحو المطعم كطاقة شحن تمده بالقوة اللازمة لإدراك هدفه، أضحت إرادته اقوى بكثير من همجية الريح السهكة.

الرغبة المثارة في داخله غلبت قَدرة الطقس، ركبت سره، تلقفت هواجسه، سعت بكل ما لها من طاقة ورجاء نحو الغاية المرادة لتسعد قلبه، لذا دلقته عكس تجاه الريح، حتى أدرك المطعم بعد عناء واضح على بدنه. التصقت ذرات الغبرة في ثنايا الشعر ورموش العين، كأنها زينت وجهه بقيح الشقاء والألم.

الآهات التي تعود عليها في خضم الأسر، ترددت في فمه، ذيلت صبره مع كل شهقة ألم ضيقت به أنفاسه، شنجت جوارحه بالصمت والحسرات على ما آلت اليه الأوضاع وما رأت عينه من إهمال، حتى صار يسمع نشيج حزنه يزاحم نشيج صبره..

لم يبقى في اليد من حل سوى أن يلتقي ناديا لتضع النقاط على الحروف المبهمة لتتوضح له الصورة، هي الكنز الذي

أفتقده، كثيرا ما تأمل خيرا بلقائها، هي الوحيدة التي تعرف سره وتبجل قدره، وهي الوحيدة القابعة في ذاكرة دنياه كزهرة ياسمين تنتظر بزوغ شمسه وتنعم برذاذ مطره. إذا لازال له في الوجود من بقية، حتما ستأخذ بيديه لبر الأمان..

بعد عناء وشدة أدرك حدود مطعمه، عيناه شاردتان، تدوران في محيط المكان، تكاد قدماه لا تحتمل إرهاقه وحيرته وعصفت فكره لحظة سقوط نظره على لوحة المطعم...هي كما كانت بذات الرداء شامخة باسمه، إلا أنها بهتت وضمرت اناقتها وسراجها. ما أن شاهدها من على بعد؛ حتى بزغ منها ضوء حنين موشح بذكريات ماضيه، بضوع أبوه وسطوته.... مثلما عبث الدهر بشكله، عبث بواجهة المطعم وبلوحته التعريفية، غدت القطعة مستهجنة، مضمرة، اضناها الحصار والنسيان، تهجس بها تأن من صفد القِدَم، لم يطرأ عليها أي تجديد وتلميع تبجل قيمتها، وكأنها تركت كذكرى صاحبها اسيرة الزمن.

هُيئت له كقطعة آثار قديمة قيمتها تكمن في مضمونها، تردت كحال الوطن وبنايات بغداد من رونقها، غدت هزيلة، بالية، تشكي لغزها كشكله الباهت الذي لا يشبه حقيقة نجاح أبدا.

يبدو حال المطعم كحال الوطن غارق ببحر العناء، تكاد واجهته وأحرف كلمات لوحته تغور في ثنايا الإهمال والغبرة والقدم، وكأنَّ الشمس امتصت بريق اللون من الفتنة. لذا ماهت الخطوط تحت مطارق الزمن بحيث يصعب تمييز الاحرف من على بعد.

مع دخوله المطعم تذكر كل شيء من حوله، بات يتصفح ذكريات أمس وهو يدور برأسه حول الجدران، اشتاق للضحكة والنكتة وللمغامرات الصبيانية التي كان يفتعلها. اغرقت عيناه بالدموع حين وجد كرسي أبيه يجلس عليه رجل غريب أصلع

الـرأس، كفكـف دموعـه براحـة يديـه حتـى غـص وجهـه بنشـيج الحـزن والحنـين، عقـر سـمعه طنـين مـن الماضـي، هجـس بصـوت ناديـا يجـرده مـن واقعـه، هجـس بصـورها تـدور فـي فلـك خيالـه، هاج شوقا لملاقاتها، ها هنا التقينا، هنا جلسنا وضحكنا.

تـذكر لقائـه الأول بهـا، حـين عطـف عليهـا خـلال عطفتهـا علـى مطعمـه، حـين صـاحبها وأثنـى عليهـا بعـد أن مالـت عليـه كغصـن أخضـر، بعـد أن قـدحت فـي عينيـه شـرارة فتنتهـا تجيـره إلـى شـاطئها، تحثـه علـى مغازلتهـا. كـان قـد لاح ذاك البريـق مـن نزعـة أنفاسها، فوجد فيها توافقا جميلا يطابق نزعته..

يـا تـرى؛ هـل لازالـت تلـبس حلقـة الخطوبـة فـي بنصـر أنملها؟....

دخـل باحـة المطعـم وعينـه شـاردة بأرجائـه بحثـا عـن إدارتـه، تقـدم مـن الرجـل البـدين الأصـلع، يبـدو فـي الخمسـين مـن العمـر، جـالس علـى كرسـي أبـوه خلـف حاسـبة الكاشـير، سـلم عليـه ثـم سأله مستغربا:--

- إذا سمحت يا أخي؛ أين صاحبة المطعم؟.....
- تفضل أخي أية خدمة؟ ماذا تريد؟ انا صاحب المطعم.
- لالا أريد أن أقابل صاحبة المطعم؟
- أنا صاحب المطعم تفضل--
- أخي أقصد السيدة ناديا منصور!
- من أنت؟ ومن أين تعرف ناديا؟ وماذا تريد منها؟

أجابـه بصـوت أجـش وباستفسـار غـارق فـي ارتباكـه، يكتنفـه شيء من الحدة من وقع المفاجئة..

- أنـا.. أنـا صـاحب المطعـم الحقيقـي. (دهـش الرجـل وبانـت على وجهه علامات الاستغراب.).
- لا تنـدهش.. (أشـار بيـده إلـى لوحـة المطعـم) لازالـت اللوحة تحمل أسمي!
- أأنـت نجـاح؟ الحمـد لله علـى السـلامة، لقـد سـمعت عنـك

الكثير -- الحمد لله على سلامتك، أجلس يا أخي أجس.. تفضل، حمدا على السلامة... الحمد لله على سلامتك .. اجلس يا أخي! المطعم مطعمك وأنا خادمك.... دعني أضيفك أولا، لابد أنك متعب وجائع... المطعم مطعمك وكل شيء لازال كما هو باسمك كما ترى، أسترح...
أين كنت وأين اختفيت؟ الكل يأس من بقائك حيا.

- قصة طويلة، ستعرفها، ولكن دعني أغسل وجهي من الغبرة أولا.
- تفضل تفضل، أكيد أنت الآن جائع، شكلك يخبرني بأنك متعب، اغتسل وتعال أجلس وكل أولا من كبتك.....

نادى على العامل ..

- يا فاضل هات لعمك صحن دبل وخاص من الكبة واستكان من الشاي بسرعة... لا تتأخر، جهز طلبية خاصة.

شعر بالتغيير حتى عمال المطعم وجوههم غريبة، فليس هؤلاء ذاتهم الذين كانوا يعملون معه، أنها ضريبة الزمن، كل منهم وجد مصلحته في مكان ما.

صار يتخيل ويواسي ذاته...

أكيد القسوة شملت الجميع في غلها الأغبر، والحمد لله وصلت أخيرا لخيط يوصلني بأهلي وبحبيبتي، القسوة جرت على الكل بنفس الكيفية التي جرت عليَّ وعلى أهلي، لابد من أن العبث أصاب النفوس بمثل ما أصاب المطعم.. الوجوه التي كانت تراود المطعم معظمها مألوفة، لكني لا أألف هذه الوجوه القابعة على كراسيها، تغيرت الوجوه مثلما تغيرت أنا، هاجر من هاجر ومات من مات وكبر من كبر، الجيل بعشرة سنوات يتبدل وها أنا قد غبت بزمن جيلين، ولكن الأوضاع بدلا من أن تتقدم تراجعت كثيرا....

ولكن من يكون هذا الأصلع، ما علاقته بالمطعم؟ أيكون

اشتراه من ناديا؟ ؟...

ربما...

دعني أرى ما سيحل بي أولا، ومن ثم استطلع الأمور الأخرى، أنا الآن في أمس الحاجة لكل من يتعرف عليَّ، بأمس الحاجة لهذا الأصلع الذي يجلس في مكاني وعلى كرسيي.

قال له قاسم:....

- لماذا هذا الانقطاع يا أخي، أين كنت، ألم تتمكن من أن ترسل رسالة تطمأن بها أهلك؟؟؟-

يسألني أسئلة كأنه يعرف جل أسراري، أنه مطلع على خفايا الأمور ترى من يكون؟ كيف علم بأني كنت أسيرا، هل خمن ذلك من الأرق والعناء الكامن في وجهي أم تلقى المعلومات من جهة قريبة؟

- كنت أسيرا في ايران!
- أعلم كنت أسيرا، ولكن لا أحد يعلم بأسرك! الكل أدعى بأنك ميت، مفقود، لم يصل خبرا منك، أهلك وناديا أخبروني بأنك مفقود.. وخاصة بعد أن توقفت الحرب انتظروا عودتك من الأسر مع الذين عادوا دون أن تعد، بذلك فقدوا الأمل من بقائك حيا...
- الأمر خارج إرادتي، كنت أرسل الرسائل ولكن إيران لم توصلها للصيب الأحمر...
- اللعنة على إيران وأبو إيران، هل من المعقول أن تعود من الأسر بعد انتهاء الحرب باثنتي عشرة سنة؟ كل تلك المدة وأنت أسير عندهم! ألا يوجد في قلوبهم رحمة ؟ أي إسلام يدعون؟
- أنا ذهبت لبيتنا وجدت أناس أغراب يسكنون دارنا، أخبروني بأنهم شروا الدار من أهلي، ولا يعرفون شيئا عن وجهتهم، طمني عن أهلي إن كنت تعرف شيئا عنهم، أين ارتحلوا؟

- أطمأن أهلك بخير --- هم باعوا البيت وباعوا المطعم لنادية وهاجروا جميعا إلى كندا!
- نعم ...إلى كندا!... متى؟

ظهرت على وجهه علامة التعجب والحيرة، إذا لا أمل بلقائهم، إذا كتب عليه الشقاء مرة أخرى، يا ترى؛ أيخرج من حفرة ليغص بأخرى أشد جهما وملامة؟

- نعم أخي – هم على أتصال دائم بناديا من حين لآخر، أرقام هواتفهم موجودة مع ناديا، مثلما ترى أحوال الناس قد انقلبت رأسا على عقِب، الأوضاع ساءت، الحصار أكل خصيف الأخضر واليابس، يبست الجلود من العناء والفاقة.

لم يكن يفهم مغزى حديثه، فقر وحصار وكوارث أصابت المجتمع، ثم أنه شخص غريب أول مرة يتعرف عليه لا يود أن يدخل معه في تفاصيل ومعمعة تغيظه وتصل تأتأتها للسلطات التي لا ترحم في تعاملاتها، ربما النقاش ينعكس عليه سلبا، الكلام يحسب على صاحبه، النظام في العراق لا يتهاون في هذه المسائل، فلم ينسى صديقه سعد حين اودع السجن ونال نصيبه من العذاب لمجرد أنه عبر عن رأيه ضد الحرب، حينها عفت عنه السلطات كونه حدثا لم يبلغ رشده بعد أن عانى سنة في السجن، فيما آخرون انقطعت بهم السبل كالأستاذ أحمد ورفاقه الذين غصوا في غياهب الجب، لأنهم تعلقوا بأفكار غير أفكار النظام المتبع، على الرغم من أن ذاك العبث كان مجرد مزحة وطيش شباب... عاد وسأل ذاك الأصلع:.....

- من الظاهر أنت تعرف عني الكثير ولم تخبرني من تكون؟ لم تعرفني بنفسك!
- أنا قاسم --- أنا زوج ناديا!!!.

زوج ناديا – (إذا أنها قد تزوجت من بعده!)..... من حقها أن تتزوج، كم ستنتظر؟ أنها ثمانية عشرة سنة من الضياع

والبؤس والفاقة والقلق. آه كم أنت قاس يا زمن!!!!

- أهلا وسهلا بك... كيف أحوالك وكيف أحوال ناديا؟
- الحمد لله أنا بخير وناديا بخير، دائما ما تحمد بك كلما ذكر اسمك..

كان يحدث نفسه وهو واقف بين ذهول وصمت يركبه الحزن، ترى كيف أصبح شكلها الآن؟ هل تغيرت ملامحها؟ لابد من تغيير قد طرأ عليها كالذي طرأ على المطعم والشوارع والأزقة، والتغير الذي أصاب أهله، أكيد هناك تغيير في تقاسيم الشكل والفكر، كل شيء في انحدار.. ترى هل بقيت تلك الملامح التي أحبها؟؟؟ أم ... آه منك يا زمن لن تترك الأشياء على حالها؟ كل شيء أصبح شيء من الماضي...

كانت كوردة الياسمين تزهو أمام ناظري، كيف أصبحت الآن؟ ترى هل ذبلت؟ هل بقي شيء من الحب يخصني عالق في قلبها؟..... ربما أنساها الزمن! صحيح المثل يقول "الحب حب العين وما ترى"، فالحب يخضر تحت ظل العين، للقريب الداني، أما من تناءى وبعد؛ حتما الزمن يجلي أثره من القلب..

الحب = المسافة ضرب الزمن.....

المسافة والزمن تتحكمان بجوف القلب..

ترى هل بقي لي شيء في ذاكرتها؟ هل ستتذكرني إن رأتني؟ هل ستعرف ملامح وجهي؟ هل بقيَّ شيء من الوفاء معلق في جيدها وشعرها؟ هل .. هل ...

ربما بعد زواجها تغير منسوبها العاطفي وتغير كل شيء في مخزونها النفسي والبدني والحسي. الكون في حركة مستمرة، لا شيء ثابت في مكانه، التغيير يصيب الأماكن الرطبة الحساسة، يصيب كل شيء طري إلا الذاكرة، أنها سنة الحياة، ولا أظن تمحي الذاكرة، لأنه أنا من بنيت لها ذهنها ورتبت رفوف ذاكرتها. أنا من وضع المسميات على مستقبلها ومصيرها.. أنا الذي جردتها من الفقر وملأت سلتها بالورد

والعنب وبالوعود والحب والأشواق والكرامة..
أنا من زرع على ثغرها ابتسامتها، أنا الذي انتشلها من واقعها المزري ومن جب الهاوية. وحسب ظني لن يصيب طبعها اللين وأخلاقها البيضاء سواد الزمن، والدليل زوجها يعرف عني الكثير، هذا يعني أنها قد تداولت أسمي معه مرارا وتكرارا، ناديا جوهرة نادرة....
ترى أين سيتوجه الآن ؟ لا أهل، لا أصدقاء، لا حبيبة، لا مأوى، لا مطعم!!.... يا لهذا الحظ العاثر..
عاد وسأله:....
- عفوا أخي قاسم أسمح لي أن أدعوك بأخي لأني أشعر بك أنسان طيب.. قل لي متى هاجروا أهلي؟ ومتى تزوجت ناديا ؟ وهل ممكن أن ألتقيها؟

طرح الأسئلة عليه وهو في اندهاش من هذه التغييرات التي أصابت أهدافه، وغيرت مسار حياته.
- أكيد نعم أكيد ستلتقيها... نحن تزوجنا عام 1995م قبل أن يسافروا أهلك ويرحلوا بأشهر--- رزقت منها ولدان ذكر وأنثى، الحمد لله --- اكيد ستراهم --- أنت صاحب فضل عليها مثلما أخبرتني ناديا، قبل أن يسافروا أكرمونا وسهلوا علينا شراء المطعم، تساهلوا معنا كثيرا، وستكون ضيفنا حتى تفرج ضائقتك.

من الظاهر لم تكن نادية قد أخبرت زوجها عن علاقاتها السابقة به، وإلا ستظهر عليه علامات الغيرة والانزعاج.
بعد أن غسل الغبرة العالقة في وجهه وشعر رأسه. جلس على كرسي جانبي حاله حال أي زبون عابر سبيل يود ملأ بطنه. قدم له صحن الكبة التي لم يتذوقها منذ يوم أسره، أكلها بنهم حتى شبع، أحس باللذة وبأثر أصابع ناديا مطبوعة عليها، انهمرت دموعه، غسلت وجهه بالكآبة والألم، صواعق تفجرت أمامه لم يتوقعها، الصدمات لم تنفك عنه، كان قد تعلم على

امتصاص شدتها، وها هي تتجدد معه وتلازمه منذ دخوله سلك العسكر، تكاد الحسرة لا تنفك عن صدره، أعاقت سعيه، سدت شهيته، فيما الجوع أجبره على التمسك بلذة الكبة، بات يشهق ويزفر الحسرات مع كل لقمة يتناولها..

أخذته الصفنة، أصابته نوبة إغماءة لحظية، كاد أن يسقط من على كرسيه قبل أن يستعيد توازنه، نقله تفكيره لمصاف الزمن الغابر، لصفحة البدايات والأحلام الوردية، تلك التي علقت بها سنين عمره المنصرم، والتي تحولت لوغف صابون بين يديه... تلك التي سورها بقلبه وجملها بعينيه، حولها الزمن لأعباء قدر وخواء رجاء.. كان قد شعر برائحة ناديا تفوح من صحنه، فالكبة كبتي والمطعم مطعمي، ولم أذقها من يوم الأسر، أنها ضريبة الحرب.

كل تلك المدة كان تحت مجهر أنظار قاسم وهو يراقبه ويلاحظه دون أن يشعره بذلك، وبعد أن أنهى وجبته قال له....

- كل أنسان يأخذ نصيبه من الدنيا، كل شيء مكتوب بقدر ومدون في لوح محفوظ، فلا تتذمر مما جرى لك، ذلك تقدير الله لغاية لم تدركها بعد، حتما ستجد ما يسعدك ويعيد ثقتك بالله والكون والقدر، ستتذكر كلامي..
- يا قاسم؛ كنت أتمنى الموت على ما مسني من العذاب، من يوم بدأت نار الحرب وأنا لم أحظى بفرحة وسعادة.
- هذا هو قدرك من الدنيا، الحياة مقسومة بين نصفين، نعيم وشقاء، ربما في حياتك القادمة لن ترى شقاء قط، لقد أخذت نصيبك من شقاء الدنيا مقدما وبما يكفي.
- الله يسمع منك...

هجس بطيف نادية يدور حوله، مثلما كانت تتأمله. كأنه شم عبير ذكراها من رائحة الكبة الشهية، لا بد هي كذلك تستشعر بوجوده مثلما يستشعر بها ويتحسس وجودها، أكيد تلك الكبة

هي من صنعتها، مثلما علمتها أنا..

كأنَّ همساتها طرقت أذنيه، هجس بها تدور في المطعم بروحها الترفة، تشاركه الهواء الذي يتنفس. لازال طيفها وكلماتها تجوب ذاكرته (أحبك يا نجاح.. أرجوك تزوجني .. لا تتركني، أني حامل).. بات يبتسم مع ذاته الخائبة، يتذكر كل تلك المفارقات، وتلك الأحلام البريئة..

ندم على رفضه الزواج منها بسبب ديمومة الحرب، كان ممكن أن تكون زوجته الآن، تستقبله، تضيفه، وأكيد تحفظ عهده.

بعد هنيهة أستعاد وعيه وذاكرته التي أفتقدها للحظات في مجرى الأحلام الآنفة.... لا لا...أصحى يا نجاح، لا تتصف بالأنانية، أنا لم أسجل في كشوفات الأسرى، إيران أخفت أسمائنا عن المعنيين. هذا يعني لو تزوجت من ناديا، لربما فقدت الأمل برجوعي بعد فترة الأسر الطويلة وتزوجت من قاسم! عندها تكون المسألة أكثر تعقيدا.. مسألة أن أكون حيا بعد عودة الأسرى كان أمرا مستبعدا، تلك هي المشكلة، وقد حصلت مع أناس كُثر.. حينها تكون القضية أكثر مرارة، امرأة متزوجة من أثنين! كيف سيتم حل عقدة المشكلة؟ هذه هي قسمتها ونصيبها من الحياة، أصبحت الآن زوجة قاسم، وهذا هو نصيبي من الدنيا.. الله أحبني، جردني من العقد،" قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" صدق الله العظيم.

كان من الممكن أن أكون ميتا مثلما ماتوا زملائي في الملجأ، حينها ستترمل مرتين...

لالالالا، أنه أمر صعب.

.....لكنه بشع لا يناسبها، كيف قبلت به زوجا وتحملت العيش معه، ربما طيبته الظاهرة عليه عوضت نقصانه. عندما بدأ قاسم يتحرك من مكانه كان يعرج، كأنه يتميز بعوق ولادي.

يا لسوء الحظ! في أيام الحرب كل شيء يحيا بالعكس، فحظ المعاق أفضل من حظ السليم المعافى، كونه معاق لم يساق للجبهة، لهذا السبب حظي بناديا... صار يتمنى ذاته لو كان مصاب بشلل الأطفال كقاسم، لكان هو من تزوجها....

لكن يا نجاح؛ حينها ربما لا ترضى بك زوجا لكثرة معجبيها، لم تكن مجبرة على المجازفة في ريعان شبابها وحيويتها بالزواج من معوق وحولها يطوف مجموعة شبان، وعندما كبرت وأيست من عودتي تعلقت بالفرصة الأخيرة وقبلت بقاسم زوجا لها.. حتما انتهت الفرص من أمامها. لهذ السبب قال لي حكمته، فأنه قد أخذ نصيبه من عذاب الدنيا وأستقر على سعادتها بزواجه من ناديا.

ما هذا اللغط يا نجاح ألا يكفي أنانية؟ أنه قدر مكتوب.

هكذا صار يؤنب نفسه...

قد يكون هو السبب في جر نادية لحظيظ حظها العاثر، لولا انتظارها الطويل لعودته من الأسر الغير معلنة، لما خف بريقها وطمس سحرها ورضيت بأي عابر سبيل في الطريق زوجا لها. هو الذي جردها من السعادة الحقيقية، بتقييدها في محبته وخطبته المزعومة لها. هو الذي أصر على تكبيلها بالعهد الذي أخذته على نفسها في انتظاره، تلك الخطبة أصبحت وبالا عليها، سجنتها في حيرتها حتى استكانت تلك الحيرة على جمرة العنوسة. عندها وجدت نفسها كغصن يحترق، خالية الوفاض من كل سحر وبريق يليق بها، ذلك ما دفعها للرضا بالقدر والنصيب.

لكن ما ذنبي أنا، أنه القدر، كانت النية صادقة من قبل الطرفين، لولا تدخل الظرف والقدر وبأس الغانمين في تهييج أروقة الحرب؛ لما حدث ما حدث، تلك هي العقدة التي عقرت شكل الابتهاج بلظى النار والبؤس.. كنت وفيا، صادقا بعهدي وعهدتي، عهدا قطعته على نفسي أمامها وأمام الله، لو كنت من

ضمن المسجلين في كشوفات الأسر لكانت الأمور سلسة، لكانت انتظرت عودتي من الأسر.... لكن الحظ أوقعني في شباك العقد وحقد الفرس، لربما لذلك اللغط غاية وحكمة عند الله، أراد بها قدر يجبل به حكمته.

صار يدعوا على من كان السبب في رسم دوامة حيرته وعقد حياته التي لازلت تعصف به ولم تنتهي قروئها بعد، حسبي الله ونعم الوكيل على من كان السبب....

نادى قاسم على أبنه.. –

- أبني عامر... تعال سلم على عمك نجاح، وأجلس مكاني لغاية أن أوصله للبيت أنه ضيفنا.
- أبن نادية؟
- نعم !

أخذه بحضنه، قبله من خديه، شعر بأنه يقبل فيه حبيبته ناديا.. انهمرت دموعه على خده، كلمَ ذاته بذاته – انا قلت أشم رائحة ناديا هنا، ها هو جزء من كبدها...

- ما شاء الله لقد كبرت، أصبحت رجلا وسيما، الله يحفظك يا ابني.
- عمو أنت تعرفني؟
- أكيد عمو، كنت صغيرا بعمر سنتين حين ودعتك، كنت الاعبك وآخذك بحضني...قل لي يا عامر؛ في أي صف أنت الآن؟
- أنا طالب كلية العلوم.
- الله واكبر، أحسنت.. الله يبارك فيك، أهم شيء أن تكمل دراستك فهي التي أوصلتني إلى ما أنا عليه حين أهملتها وتركتها.
- لم تركتها يا عم.
- أنها قصة طويلة سأحكيها لك في وقت آخر، لكني فرحت بك كثيرا حين شاهدتك.

7- لقاء نجاح بنادية

كان الوقت قد تجاوز فترة الزوال بقليل حين ترك قاسم عامر أبن ناديا البكر يشرف على المطعم، ليتوجه برفقة نجاح لرؤية اسرار عالم البرزخ الذي فصل بينه وبين ناديا، لدار ناديا برفقة قاسم.. قاسم يحمل من صفات الأدب الشيء الكثير، لذا أهتم بنجاح وأصر على أن يضيفه بنفسه في بيته، ذلك ما جعل نجاح يكتشف بعض سماته وخواص معدنه الأصيل، فكن له الاحترام والإجلال.

خلال الطريق تغيرت ملامح نجاح، زادت حساسيته فيضا، بدأت دقات قلبه تضطرب، تهيجت بذكريات الأمس، تحركت سنابل الأشواق مع كل خطوة تؤدي بهم إلى الاقتراب من حدود الدار. كانت قد تململت الرعشة بين أوصاله، ارتفع هرمون الأدرينالين، فزادت ترنيمة الآهات في أنفاسه، وهو يحاول أن يخفيها عن مشاعر قاسم دون أن يتمكن، شعر بالأحراج والخجل منه، برر سلوكه باستغرابه واستهجانه لما حصل وما يرى في محيطه من تغيير عام في ملامح بغداد نحو الأسوأ.

فيما برر الرعشة السارية في جسده كحالة طبيعية لما تعرض له خلال الأسر من سقم وتعذيب نفسي وجسدي، فيما كان قاسم مشغول الفكر بهمه وعوقه وأمور أخرى تخصه..

بعد مسيرة نصف ساعة وصلوا حدود الدار منهكين، أنهك قاسم بسبب عوق رجله المشلولة، وأنهك نجاح بسبب فيض الأشواق والتعب النفسي الذي يشعر به، أضحت أشواقه تركب طاقته، تثيره، أشبه بخمرة العجين منتفخة في أوداجه، معلقة

بنظراته، اراقت فكره بكأس العاطفة الجياشة لملاقاة ناديا..

بقيت عيناه شاخصة صوب باب الدار حين صار قاسم يطرقه، ينتظر بزوغ شمس المحبة من خلف الغمام، لتزيح عن ملامح وجهه تعب السنين وظلمة الفراق. لتنير قلبه بومضة من قدح عينيها، من ذلك السحر المدفون في شفتيها والعالق بنظرات عينيها، من روحها الترفة وضوع محبتها، تأمل خروجها من خلف الستار ليستشعر بدفء الشمس بعد أن غربت عنه دهرا. انتظر سحر بشاشة الوجه والحلم الذي لم يتبقى من أثره سوى قشور في الذاكرة، ود أن يرى زهرة البنفسج بذات الالق تضيء ظلمة شتائه.

مرت لحظات صمت، هجس بخطوات القدم تقترب من فؤاده، لحظات معبئة بالحيرة والذهول والمفاجأة، مكتنزة بالشوق والشغف، لم لا؛ لازالت غريزة المحبة عالقة بحشا قلبه، أنها تلك الآية التي حرزته من غدر القذيفة، تلك التي لان أمامها ابتسامتها الطفل زاهد..

لم ينسى أدعيتها التي ناجت بها ربها وهي تودعه، والتي ساعدت في نجاته من سقم الهوان. لازال لصوتها رنة في صوان الأذن تذكره بها - يا رب أحفظه وعافيه، سلمه من غدر نار الحرب.....

اختنقت اللهفة بالحسرة بنظرات عينيه الغضنة والحزينة، وهو يتأمل تلك الوردة تطل بومضة تجلي أرقه.

ياه.... يا لقسوة الزمن وهمجية القدر وعصف ذراريه، قُلبت الاحوال راسا على عقب، صارت الأشياء ترى بالشكل المقلوب، وتعرف بأسماء لا تعبر عن معانيها.

لانَ إلى واحة الصمت، هاجت عصافير الذاكرة عن شجرتها على وقع رنة القدم، بانت الاجواء لها استضاءة في سماء العاطفة، ذكرته بماضيه حين كان يرنوا إليها تحت جنح الليل، حين كان يتسلق جدار الحب، ليظفر بقبلة من شفاهها

الطريـة، تلـك التـي لا زالـت تفـيض حنينـا لملاقاتهـا، لتعيـد أليـه شيء من مقتنيات الماضي التي تركها في جعبتها..

فيمـا سـبق كـان يخـرق حرمـة البيـت بسـيف الشـوق، يشـعل فتيلـة الغريزيـة فـي قلبهـا بقبلـة، يضـيء ظلمـة الفـؤاد بنـوره. يـا تـرى؛ كيـف سيتصـرف أمـام قاسـم!! الشـيطان ماثـل أمامـه والحـرج يكبـل سـعيه، تـرى؛ كيـف سيتصـرف معهـا وهـو الـذي يرتجـي لحظـة اللقـاء منـذ قرابـة عشـرون سـنة، حيـث عـادت بـه الأشواق لمحنة الأمس، لنقطة البداية..

مـرت لحظـات ثقيلـة علـى قلبـه، كمـتهم يتأمـل الأفـراج عنـه، يـود جـزل العتمـة مـن عالمـه، مضـت الحالـة علـى سـجيتها حتـى أفلـج البـاب، كأنـه أفلـج عـن كوكـب إزدان بـالنور بهجـة، هجـس بروحـه المسـتاءة مثقلـة بالمشـقة والأرق وهـي تغتسـل بنـور وجهها..

تفاجـأ بهـا مثلمـا تفاجـأت بـه، تغيـرت ملامحهـا مثلمـا تغيـرت ملامحـه، لـم تتعـرف علـى ضـيفها. كمـا اختلفـت كثيـرا ملامحهـا، بـدتْ امـرأة بدينـة، محجبـة، تـرأف شـعرها فوطـة سـوداء، فلـولا ملامـح أنفهـا وعينيهـا الواسـعتين التـي يحفظهمـا عـن ظهـر القلـب؛ مـا كـان قـد تعـرف عليهـا.. كأنهـا تخلـت عـن بريـق وجههـا، هكـذا يحنـث الـزمن بجـواهره. هجـس بحيويتهـا ذابلـة، شـف ألقهـا. عبـث بهـا الـزمن مثلمـا عبـث بكيانـه. ترهلـت، انتفخـت مـن البـؤس والقهـر، فقـدت رونـق الجاذبيـة، كـل شـيء فيهـا تغيـر سـوى روحها الترفة، تلك الجوهرة من ماس لن يغيرها الزمن..

تعـرف عليهـا رغـم بـدانتها والإرهـاق الواضـح علـى تقاسـيم وجهها، وكأنها شكت له حظها العاثر بغيابه عنها.

كـان نجـاح قـد طلـب مـن قاسـم عـدم تعريفهـا بـه، ود أن يكتشـف فراستها، ترى هل ستتعرف عليه من النظرة الأولى؟.....

قال لها قاسم..

- يا أم عامر هذا ضيفي.

- اهلا وسهلا، تفضلا....

اما هي وجدت زوجها مع رجل غريب، لم تتعرف عليه من الوهلة الأولى، بل أنها لم تركز على تقاسيم وجه، لأن ذلك لا يهمها، ربما كنته من رفاق قاسم...

تكلم نجاح مسلما...

- كيف حالك يا نادية!!!!.....

رنَّ الصوت في أذنيها، توقفت لبرهة، كأنَّ الصوت ليس غريبا عنها، كانت قد سمعته فيما سبق، بل عشقته.... التفتت عليه بسرعة خاطفة، الصوت طرق فؤادها، جلجل أعماقها.. يا ترى؛ من يكون هذا الرجل؟..

أين سمعت هذا الصوت؟...

بقيت تنظر إليه باستغراب! أسعفتها ذاكرتها على الفور، لم يكن الصوت صوتا غريبا أبدا، لأنه مخزون في صحف الذاكرة والروح، خزق الفؤاد كسهم نافذ! دققت في عينيه، أبتسم لها، سرحت قليلا بوجهه، صرخت صرخة نفذت من قلبها...

- نجاح..... رمت نفسها عليه، احتضنته بقوة، بشوق أمس، لم تعر أهمية لزوجها، ذرفت دموعا رقرقت في محجر العينين، كادت أن يغمى عليها لولا حيائها، شهقت شهقة قوية... تلعثم لسانها...
- ـ آه يا زمن ـ حقا أنت نجاح، انت لم تمت؟ لم أنتبه عليك، أنت في وجداني وخاطري، لقد تغيرت كثيرا، لم أكن أتوقع أن تعود إلينا يوما ما، لقد تغيرت كثيرا، ليتني...آه. كتمت انفاسها استحياء من زوجها..
- من حقكِ لم تتعرفي عليَّ! أنت محقة، الزمن غدر بي، تغيرت ملامحي، الأسر أخذ شبابي وجل طاقتي، أصبحت قصب أجوف، خشخاش، مجرد صورة لا بهاء فيها! كنت أموت في اليوم ألف مرة، أنها ثمانية عشرة

سنة من العذاب، تأملت العودة سريعا، لكنها طالت.. وها بعد أن عدت كل شيء تغير، كل شيء أصبح بالمقلوب.

- وبصوت مرتفع – نجاح أنت أخي وحبيبي وتاج راسي! أخذته بأحضانها، قبلته من رأسه، كاد أن يغمى عليها من المفاجأة السارة، بدأت تنهمر دموعها بغزارة، تبكي حضها وهو يبكي حظه، عادت تلومه؛ لمَ لمْ ترسل الرسائل كباقي الأسرى؟ لِمَ حيرتنا... أين اختفيت؟
- كل شهر كنت أكتب رسالة لكم، لكن الإيرانيين حجبوا الرسائل، لم يوصلوها للصليب الأحمر، أخفوا وجودنا، استخدموا القسوة معنا، غيبونا، تعمدوا أن لا يسجلوا اسمائنا ضمن قوائم الأسرى..
- لم أنسى فضلك أبدا، لولاك لكنت أشحت في الشوارع، كل يوم أصلي وأترحم على روحك، أنت أنقذتني من الجور والفقر والفاقة، جعلتني صاحبة شأن، انت صاحب الفضل ... اتجهت لزوجها بعد أن شعرت بأنها قد ذهبت بعيدا متناسية وجود زوجها، وغالت بترحيبها.... يا قاسم: هذا أخي وحبيبي الذي كلمتك عنه.
- وهو سيكون أخي وأخوك من اليوم.

دخلت للبيت مبهورة، عاجزة عن تقديم الحفاوة والضيافة، قدمت له كل ما يسع نفسها من مأكل ومشرب. التفتت إليه قائلة:.....

- لم أصدق أبدا بقاءك حيا حين اتصل بي أخوك نعيم وأخبرني بأنك حي وستعود قريبا طرت فرحا، بقيت أبكي اليوم كله، لقد آيست من رجوعك وخاصة بعد أن عادوا جميع الأسرى بعد انتهاء الحرب...لم أصدق أبدا، عشت لحظات مرة كالمجنونة، طلب أخوك مني مراعاتك، ولكن لم أتوقع وصولك بهذه السرعة، لقد

أحرقت قلبي بغيابك، كنت أظن أخوك يمزح معي، يتلاعب بأعصابي، فهو يحب المزح والمرح كثيرا....

- أتعبونا، مارسوا شتى أنواع العذاب معنا، جردونا من أحلامنا وإرادتنا، حتى أننا كنا لا نعرف كم هيَّ عدد السنين التي مرت علينا ونحن في زنزانة الأسر، لم نعرف ذلك إلا بعد أن فكوا قيودنا، عندها عرفت كم أكلت من عمرنا السنين....
- الحمدلله على سلامتك، سوف تبقى هنا حتى يحين موعد سفرك لكندا... أنا احتفظ بهاتف نعيم ونواف... بعد أن ترتاح سنذهب لبريد الرشيد لنخبرهم بسلامة وصولك.

كان العراق لازال يعاني من واقع الحصار المفروض عليه، كما أن العالم لم يدخل مجال النت والموبايل بعد، فالاتصالات الخارجية لا تتم إلا عبر شبكة البريد المركزي للاتصالات في بريد الرشيد.

- أشكرك يا أم عامر على استقبالك الرحب، أنت أصيلة مثلما عرفتك، تصوري لم تزرنا المنظمات الإنسانية أبدا، كنا منقطعين عن العالم، لا أحد يعرف مكاننا ولا نحن نعلم أين كنا. حاربونا نفسيا وبدنيا وفكريا، أوصلونا لمرحلة اليأس والجنون، أصبح أحدنا يكلم نفسه أكثر من أن يكلم رفاقه، نتيجة الوحدة اللعينة التي حجرونا فيها تعرض الكثير منا لجلطات المخ والقلب، أذلونا... الغرض من كل ذلك ودوا أن تزل أقدمنا ونخضع لسياسة خيانة الوطن مقابل جزء من الحرية يمنحونها إيانا، لعنة الله على كل ظالم.

أخرجت ناديا من درج تحتفظ به مبلغ ما يعادل 500 دولار وضعته في جيبه ثم قالت له:..

- أعتبر هذا مصروف جيبك وسنتكلم بعد ذلك

باحتياجاتك، لا تفكر بأي أمر، ولا تهتم، ستيسر أمورك أنشاء الله على ما يرام وكما ترغب.

جلست أمامه وهي تصب الشاي له والدموع تنهمر من محجر عينيها كالمطر، يندى على صحراء خديها الضامر.. قالت له...

- بعد غيابك لم أفارق أمك إلى أن ذهبت لدار حقها.
- ماذا؟؟؟ هل أمي قضت!!
- بدأت تبكي... أجل لم تحتمل فراقك الله يرحمها..

بدأ نجاح يأن ويبكي بكاء نشيجا، حزنا على فراق أمه. واسته نادية، قالت له:.....

- كلنا سنموت يوما، الموت حق، لكني حزينة لأنها ماتت ولم تسمع بخبر نجاتك. غدا سنذهب لزيارة قبرها في مقبرة الغزالية.
- مسكينة، أكيد أنا السبب، لم ترتاح في حياتها، العقد والمشاكل لاحقتها، متى توفت الله يرحمها؟
- قبل ثمان سنوات من الآن، وبالضبط في 1992. أشتدَّ عليها المرض، كأنها تخلصت من تعاسة الدنيا، الموت أفضل لها، فهي لم ترى وجع الحصار البائس وذله، به يبست عروقنا، شطفت مشاعرنا، لولا المطعم لكنت الآن أشحت في الشوارع والمساجد.
- لقد سمعت بكلمة الحصار، لكني لم أفهم مغزاها ومقصدها، ماذا تعنين بالحصار؟ ما قصته الذي يتكلم عنه الناس؟ خفت أن أسأل سائق التكسي وأتورط بسؤالي، خفت أن يوشي بي إلى السلطات..
- سأشرح لك القصة أجلا، في البداية عليك أن تستحم وتهيء نفسك لنذهب إلى بريد الرشيد لنخبر نعيم ونواف بسلامة وصولك قبل أن يدركنا الوقت، موال الحصار أنه موال طويل وحزين سأخبرك به خلال الطريق..

هيأت له الحمام وبعض الملابس النظيفة، وقبل غروب

الشمس بساعة زمن كانت العاصفة قد خفت حدتها، هدأت من وتيرها وروعها، أخذت نجاح واتجهت به لبريد الرشيد، تاركة قاسم يراعي طفليها، أبنها البكر أصبح في الجامعة فيما الطفلين الآخرين بعمر أربعة سنين وسنتين، تركتهم مع والدهم.

خلال الطريق جرت بينهم أحاديث شملت الأقدار التي تلاعبت بمصيره ومصيرها، كل صار يشرح للآخر مصابه. كما شرحت له معاناة العراقيين من شبح الحصار والذي لم ينتهي غله بعد، شرحت له دخول العراق للكويت وتكالب دول العالم عليه برفقة امريكا في حربهم على العراق وفرض الحصار عليه عام 1991. بينت له ذلك من خلال البضائع المستهلكة والبالية الموجودة في الأسواق، والغلاء الفاحش وضعف القيمة الشرائية للناس وانحدار قيمة الدينار كي لا يتفاجأ.

- متى دخل الكويت؟
- عام 1990 – ترى هل تتذكر يوما ما تلبدت السماء بغيوم سوداء، وباتت تمطر مطرا اسحما.
- نعم اتذكر كخيال مر على بالي.
- تلك الغمام السوداء كانت نتيجة احراق العراق لأبار النفط العراقية والكويتية كي لا يستفيد منها الامريكان.
- إذا من حرب لحرب، الله يساعدك يا عراق.....

الفصل الأخير

1- جولته في بغداد

في حدود الساعة الرابعة عصرا خرجا من البيت وهما يتنفسان الصعداء، يستنشقان نفحة الحرية التي كبتت على أنفاسهم بوجود قاسم.

مع تواتر الخطوات فضحت الوشائج المحبوسة رجاء الشوق في العيون، ذرفت القلوب كؤوس الدماء في الوجوه، بات الشغف يرقص على نغمات العود، تكسرت أغلال المعاصم، مع ذلك بقي برزخ الخجل يفصل المشاهد عن بعضها، الحرص جنبهم الغوص في مستنقع المحرمات.... كان قد تقرب منها بحذر وكانت قد تقربت منه بتروي، حيث مشرط الزمن حال دون تجاوز الأخلاق والقيم، وقف على أعتاب ذلك الصمت الذي راغ في محاجر العيون لحظة الفراق. الرهبة من الله حفظت النفوس من الخيانة التي دارت في فلك الذهن والمخيلة.

لقد تغير الظرف والمخ والقرار لكليهما، القسوة المرة منعتهم من تجديد فترة العهد القديم التي وافقت المشاعر حينها، العناء والجلد جرد الذوات من تلوين ظرفهم الجديد بمغامرات المراهقة القديمة. كأنَّ فترة الفراق الطويلة نخرت المشاعر فجزلت الرغبة منها، بل الاستحياء وضع حدا للمراهقة، عُدتْ من التفاهة والشرك، كل احتفظ بالرقي القديم داخل نفسه.

نجاح لازال يعيش ظرف الأسر، فيما ناديا تقيدت بطيب زوجها قاسم، لذا خبت نيران الفتن والشوق في اعماقها، وكأنَّ تلك المراكب ما عادت تصلح لإبحار جديد خارج حدودها.

خلال التجوال بادرت نادية في تبرير زواجها من قاسم،

متأسفة لما أحيطت به من توجس وعقد بعد انقطاع أخبار نجاح قائلة:..

- والله يا نجاح! بغيابك وانقطاع أخبارك قتلتني، لم أفكر بالزواج حتى يئست من الدنيا ومن رجوعك تماما، لو وصلتني منك رسالة واحدة فقط؛ لكنت انتظرتك العمر كله.
- أنا مقدر ظرفك، هذا قدر كتب علينا، يجب أن نذعن لأمره، لازلت أحتفظ بصورتك والقرآن الذي أهديتني إياه أمي الحبيبة في جيبي، صورتك والقرآن هما اللذان حمياني من الموت، هما السبب في إبقائي حيا.

ذرفت دموعا من عينيها ثم بعثرت بكلماتها...

- مثلما أحببتني أحببتك، الله شاهد على ما أقول، بقيت بعدك أندب حظي العاثر، زوجي توفى وحبيبي فقد، لا أعرف إلى أين اتجه بمصيري الأسود، كنت أعيش في ضياع تام حتى دب اليأس في عروقي، صرت ألوم قلبي وحظي بعد أن يئست تماما من عودتك، عندها فكرت بالزواج، الوحدة المقيتة عذبتني.
- أنا مقدر ظرفكِ تماما، ما جرى لنا ليس من خططنا، أنما تقدير الله لنا لغاية هو يريدها، أعذرك وأعذريني.(ثم شرح لها ظرف أسره وبقائه حيا دون رفاقه) ثم قال لها: ...

لقد كتبت الكثير من الرسائل؛ لكن القسوة والظلم الذي تعرضنا له كان أكبر من الإنسانية، لذا وضعنا في حلقة مفرغة من سلسلة القدر، الله أراد أن يتمم حكمته ويحدد نصيبك ونصيبي من الدنيا، لذا بقيت حيا لأرى بأم عيني شكل القدر. يقينا أمرنا ليس بأيادينا، لذا لا ينبغي نتأسف ونلوم بعضنا.

- بعد أن فقِدتَ الأمل تقدم لي شُبان كُثر، رفضت الزواج

منهم، بقيت انتظر نهاية الحرب... انتهت الحرب، عادوا جميع الأسرى ولم تعد، حينها كسرت مجاديف الحظ تماما. لم تكن هناك إشارة تنبئ بوجودك حيا أبدا، يئست، تبخرت كل الحلول والآمال، في نهاية المطاف ارتميت في حضن قاسم، هجست به كآخر نصيب وقدر.. مع مرور الزمن تعودت عليه، اكتشفت طيبته، حاجتي لشريك دفعني لتحمل أعباء الزمن وخاصة بعد وفاة أمك المسكينة، وها أنت ترى أبي مقعد، على وشك أن يودع الحياة.

- لا ألومك على تصرفك، لن يستطع الأنسان تحمل ثمانية عشرة سنة من الفراق دون أمل، لكني طوال تلك المدة كنت أفكر بك وخاصة حين أخبرتني بأنك حامل مني.. أخبريني؛ ما هو مصير حملك؟.
- لم يكن حملا، كنت أتحايل عليك لتتزوجني رسميا، كنت أشعر بالضياع والحرج أمام والديَّ والذين يراقبونا من العامة... ثم أنت لا تعلم بعد أن رحلت ما جرى وخاصة بعد حرب الكويت.
- ماذا أقول لك، أنه الجنون...أبعد حرب إيران ندخل في حرب جديدة...

(مسكت يده قبلته من رأسه أمام أنظار الناس!)

- أنسى الأمر الآن عرفت الحقيقة المرة، لا أود ان يسمعنا أحدا ما ومن ثم يشي بنا... ولكن ألم يخبروكم بذلك؟ ألم تعرف حقيقة ما جرى؟ ألم تقرؤوا الجرائد؟ الم تشاهدوا التلفاز ..
- لاالالا، كنا معزولين عن العالم تماما، نعيش في دهليز أشبه بأهل الكهف، كنا في كوكب مجهول بعيدٍ عن الأرض، حرمونا من كل شيء، قلت لك لم نعرف عن أخبار الدنيا شيء حتى الحرب لا نعلم متى توقفت!.

- هو ذاك، كان يوم المعشر، لقد شنت القوات المتحالفة من أثنين وثلاثين دولة هجومها على العراق، أخرجونا من الكويت، دمروا مدننا بغل القصف على مدى شهرين، قبل أن تشن قواتهم بقيادة أمريكا وبريطانيا هجوما بريا ساحقا على قواتنا.
- ماذا تقولين؟ كل هذا حصل ونحن لا علم لنا؟
- كان ذلك في 1991..
- أتعلمين بأني لم أكن أعلم بمدة أسري إلا قبل عودتي بأسبوع واحد فقط؟ غيبونا عن العالم الداخلي والخارجي، فضاعت علينا الحسابات..

وهما يسيران على أقدامهما، حيث المسافة ليست ببعيدة ليدركا بريد الرشيد، ثم أن نجاح أراد ذلك ليشاهد معالم بغداد، ليفض مخزون شوقه بحضن ناديا...

بعد أن سمع عما حصل في العراق من أحداث؛ عرف أسباب التغيير الحاصل في شكل بغداد ووجوه الناس قاطبة..

كان قد التمس حجم الأوساخ التي غصت بها الشوارع، بحيث غدت المناظر مألوفة في أعين الناس، لتقصير البلدية من جهة وطفش عمالها واستهلاك معداتها من جهة أخرى، لازال آثار القصف ماثلة على بعض الأبنية..

شهد حجم البؤس الذي ركب وجوه الناس وأبدانهم وملابسهم، تلك الأسمال البالية التي أضحت لباسا لعامة الناس، لم يصدق ما شاهدت عيناه، وما بدت له من بضائع مستهلكة معروضة في أرقى الشوارع، أضحت ملابس البالات السمة السائدة لمعظم الناس.

تلك المناظر زادته حزنا وألما على ما شاهد، وكأنَّ الشعب كله قد أسرَ من بعده.. في الحقيقة أسرَ الشعب مثلما خطرت في باله ذات الفكرة، لقد عبثت أمريكا في النفوس والمقدرات حتى نهشت اللحم وهرست العظم، كأنَّ العراق ليس هو العراق

الذي تركه قبل الأسر، أنما دولة أخرى.

وبعد مسير قرابة الساعة على وقع أقدامهم البطيئة، كانا قد أدركا دائرة اتصالات الرشيد. حينها أخرجت دفترا صغيرا من جيبها كانت قد سجلت عليه أرقام نعيم ونواف، ثم طلبت من موظف البدالة الاتصال بالأرقام، لم تدم فترة الانتظار طويلة، حتى تمكن نجاح من مهاتفة أخوه نعيم –

- الو – نعيم -- كيف حالك – أنا نادية... أبشركم نجاح قد وصل بخير وهو الآن معي.

تهللت وجوههم بالأفراح، صار يكبر ....

- (الله وأكبر) الحمد لله الله يبشرك بالخير يا طيبة، أنا سأصل الأردن خلال أسبوع، ستكون بمعيتي فيزا لأخي نجاح – أرجوا منك أن تهتمي به وتلبي متطلباته ولا تقصري معه، استخرجي له جواز سفر، سأرسل لك نسخا عن هوياتنا وهوياته.
- هو عيوني التي أبصر بها، من هذه الناحية أطمأن ولا تهتم، سأهتم بشؤونه. خذ تكلم معه...

ثم حولت مقبض الهاتف لنجاح.

- كيف حالك يا أخي نعيم، بدأ يذرف الدمع وهو يسمع صوت أخوه ونشيجه بعد فراق طويل، بالمقابل صار يسمع نحيب أخوه عبر الهاتف، تبادلوا عبارات الاشتياق والثناء، أجهشا بالبكاء حتى تخضبت وجناتهما بالدموع والشجن. حتى صارت المكالمة لا تعبر سوى عن شوق وأحوال ومصير.
- كيف حالك ؟.
- الحمد لله على السلامة، فرحنا بوجود أسمك ضمن قائمة الأسرى، كنا قد يأسنا من وجودك حيا، لم ننساك قط، لقد أصابتنا الفاجعة، واليوم المفاجأة سارة، شكرا يا إلهي بأن أخي حي، أنه يوم عيد حقيقي يوم أن تكون

بيننا.... لا تهتم سأباشر بتقديم فيزا لك، ستكون بيننا في كندا عن قريب، عليك الحصول على جواز سفر في اقرب وقت، سأصل عمان (عاصمة الأردن) بمجرد حصولك على الجواز، أرجو منك أن تأتي إلى عمان بعد عشرة أيام من الآن.. سأنتظرك في فندق عمان، العنوان معروف لسواق التكاسي.... (لم تكن هناك خطوط جوية مباشرة للعراق بسبب فرض الحصار الأمريكي على العراق، لذا كان السفر يتم عبر البر إلى الاردن)

خذ تكلم مع نواف ونوال...

- أنا نوال- الحمد لله على سلامتك أخي العزيز...حبيبي مشتاقة لك...الحمد لله أني سمعت صوتك مرة أخرى ..ذرفت دموع الشوق والفرح وهي تشهق وتكلمه..
- أنا أيضا مشتاق لرؤياكم ..كيف صحتك.. كيف هي ظروفكم، هل أنت بخير؟
- الظروف كانت صعبة وقاسية ستعرف كل شيء لاحقا... خذ معاك نواف وسلم على نادية.
- حبيبي نواف كيف صحتك وكيف حالك، أين وصلت بالدراسة؟
- حبيبي وأخي العزيز، نحن جميعا بخير، فكرنا مشغول بك لا تقلق نهائيا، أنا أكملت الهندسة لا تفكر.. ستستتب أمورك هنا بيسر، وستنسى فترة الأسر، سنهيئ لك حياة مستقرة هانئة.

إلى اللقاء....

إلى اللقاء.

بعد أن انتهت المكالمة وخلال عودتهم للبيت، تبضعت من شارع الرشيد له ببدلة رسمية رمادية اللون مرموقة للسفر،

ودشداشة وطقمي بجامة ونعل صندل، وحذاء أسود مرموق.... حاول نجاح أن يمنعها إلا أنها قالت له بشوق وحصرة مختنقة في القلب

- دعني أرد لك بعض جميلك.. أفديك بروحي أنت حبيبي الحقيقي– لن تخرج من العراق إلا وأنت رزين وسيد مرفوع الراس، مثلما جعلتني مرفوعة الراس طوال تلك السنين، لولاك لما بقيت حية، لما جمعت هذه الأموال في الظروف القاسية التي مرت علينا.... لولاك لكنت أستجدي الآن في الشوارع كباقي المتسولات التي تشاهدهن، أتعز عليك نفسك برشة أرشها عليك من خيرك وأنت مكسور الجناح والخاطر! لا والله لن أدعك في عوز أبدا....

ثم سلمته مبلغ ألف دولار وضعته في جيبه يعينه على السفر.

- المبلغ السابق مصروف جيبك حتى تسافر، وهذا المبلغ يعينك في الأردن، كي لا تحتاج أحدا في الغربة، لربما يتأخر نعيم عليك لظرف ما.... كنت أتمنى أن أحمل منك، تركتني أتخبط في تفكيري، سامحني لم أستطع أن أقاوم شدة الظرف اللعين، تركتني أتخبط في معمعة المصير كالمجنونة، أنت معذور وأرجوك أن تعذرني.
- لا ألومك عن إجراءاتك، الحياة بدأت تتعقد عليَّ من يوم ابتدأت الحرب، مع طول الحرب زادت عقدا ومرارة.

خلال تلك الأيام التي أصبح بها ضيفا على نادية بقيَّ مرابط في مطعمه، صار يعاون قاسم ويقضي جل وقته فيه، أو بالحقيقة اشتاق للأيام السالفة المليئة بحنين الذكريات.... من خلال تعامله وتقربه من قاسم التمس أصالة معدنه، لمس رقي أخلاقه وطيبة قلبه وعلو ثقافته، علم أنه خريج كلية الشريعة الإسلامية، لكنه بعد الزواج من ناديا؛ فضل أن يكون في خدمة

ناديا بمطعمها وخاصة بعد أن أصبحت هيَّ صاحبة المطعم، لأنه يدر عليهم مبالغ تغنيه عن الوظيفة التي صار مرتبها يعادل ثلاث دولارات أمريكية فقط في الشهر.

بعد عودة نجاح، أعاد قاسم تنظيف لوحة المطعم من الغبرة وتلميعها بصبغة جديدة، لتعود إلى سابق عهدها مزهوة براقة، يلتمع فيها أسم نجاح بخطها العريض.

لم يدم الأمر طويلا ؛بعد تلك الأيام المعدودة التي عاشها مع حبيبته، دون أن تكون بينهما ألفة حقيقية كما كانت قبل الأسر، صار يتأمل الهرب للعذاب الذي انتفش في صدره، بقي يعيش حسرة الأيام السالفة، كانه بلقائها صار يجرع سم الحظ العاثر، والذي لازال يعانده في اختياراته.

فترة هجس حلاوتها بطعم المر، ارتشف خلالها كأس العذاب وهو صاغر لم ينبس بشفة، قبع تحت ظرف عقيم، وهو يرى رجل سرق منه حبيبته دون ان يتمكن من ردها، تلك التي تأملها طويلا، عِشرة مرة ما كانت تخطر على باله قط.

على الرغم من قصر الفترة إلا أنها أرهقته كثيرا، ود أن يهرب منها بأسرع وقت، لفيض مشاعره المكتومة تجاه حبيبته وخجلا من زوجها الذي أكرمه وكرامته التي باءت في الحضيض، كأنه خرج من أسر الحرب لأسر الحب الذي هو أشد عسفا وبغضا.

كانت حبيبته أشبه بوردة بريئة شائكة وهي بقربه، براقة جميلة، ما أن لمس ذوائبها حتى شعر بلسعة أشواكها الدقيقة المخفية النائمة في سحر جمالها، كأنها بشكها كهربت أوصاله، آلمته، جعلته يشعر بالندم من اقترابه من حدودها..

أنها تلك النبتة البرية التي بقيت تحتفظ برونقها بين أشواك الزمن وهي تستقطب إليها الحشرات. هكذا وجد حبيبته، مخلصة لزوجها على الرغم من أنها لا تعشقه..

يكاد الأسر قد عقص مشاعره وسحره على سلوكه،

فأغشى أشواقه بهالة من الاحترام والالتزام تجاه حبيبته، بحيث تقيدت ذاتها ومالت هي الأخرى الى جانب الخجل والتعفف، كأنَّ الزمن قد جز من صدره تلك النشوة التي كانت تداهمه، أطفأ شعلة الطاقة العاطفية في داخله، غسل فكره من عبث المراهقة والذنوب، حتى أنه قد نسى مزاج المرح الذي كان يتصف به، لقد تغير كثيرا، تعمد بالعقد، تحول لإنسان آخر غير نجاح.

بقي محافظا على كياسته وشخصيته وخاصة أمام السيد قاسم، ذلك البعبع الذي أستولى على كل أحلامه وخططه دون قصد منه، لبس الاحترام رداء ليترك خلفه صورة مشرقة في ذهن قاسم.

غادر العراق في رحلة وداع لا يرغبها، هذه الرحلة خلعته من الجذور، بقي يجلي الذات من الذكريات والعقد كغصن لا يأبى تشعبات الندب. غادر وهو حزين، كئيب، خالي الوفاض من كل شيء إلا من صرة الألم.

2- المغادرة إلى كندا

تمكنت نادية من مساعدة نجاح على استخراج جواز سفر خلال ثلاثة أيام بعد أن دفعت رشوة قيمة لأحد منتسبي دائرة الجوازات، كما تمكن نعيم من تكملة إجراءات السفر لأخيه عبر الأردن ومن ثم أتم رحلته الميمونة إلى كندا ليستقر بها بعد عناء سفر طويل.

لقد تخطى تلك المعضلة ليعيش في عالم جديد يناقض ما مر به من تناقضات، وذلك بعد أن أدخل في فترة نقاهة وتأهيل مركزية غسل بها أعباء سجنه وأسره وعذابه، وأن لم تنجلي تلك القاذورات عن جلده ومخه تماما، إلا أنها بهتت وأصفرت وغدت من بقايا ذكريات أمس. لم يبقى من سخامها سوى تلك البقع الداكنة التي علقت في وجهه ومخه والتي لا يمكن جليها عن الوجه والذاكرة قط، لتذكره بمأساته وماضيه كلما واجه نفسه في المرآة.

كان قد وجد في كندا الحرية والاحترام والإنسانية، عالم مبتهج بالأمان والرزق والتسامح والحق والعدالة، عالم لا يضام به أحد، خال من قروء التسلط وعناء السيد والعبد. كأنه أنتقل لكوكب خارج كونه المعروف.

لقد عانى نعيم كثيرا في بداية الأمر مع أخيه، وذلك لصعوبة ترويضه وتأقلمه وإدخاله في رقعة عالم جديد ولغة جديدة تنقي فكره من عقد وشوائب الأسر، ود تنقية الذات لينسى مأساة ثمانية عشرة سنه من الذل والهوان بالكمال والعدد، سنوات مغلة لونت صيغة حياته بالمرار، لم تكن أموره سهلة في واقع وتلك العُقد المرسخة في ذهنه، وتلك الوخيزات التي تركت آثار ندبها في الفكر والبدن.

لكن مع مرور الأيام انحبست تلك العقد وخف وتير تأثيرها، ازفت أشكل تتلاشى سوادها من لوح شخصيته. كان للرياضة والغذاء الجيد والبيئة دور في أُختزال أثر الأسر. فترة نقاهة لينت فكره وبدنه، بها تمكن أن يتجاوز جزء من محنته، ساعدته على دخول بوابة الحياة بروحية لابأس بها أنسته واقعه المؤلم.

مع مرور الأيام أستعاد نجاح ثقته بنفسه بمساعدة أخوته نعيم ونوال ونواف، انغمس بعمله الجديد في ورشة أخيه، كان للعمل دور في نسيان همومه وتشطيب عقد أسره من العقل. لكنه بقي بعيدا عن التأقلم الحقيقي، وخاصة أنه لم ينسى عواطفه تجاه حبيبته نادية، إضافة إلى أنه شعر بكم الضيم والظلم الذي لحق به، هجس بالزمن أكل الكثير من عمره، بحيث كلما نظر إلى وجهه في المرآة؛ ذكرته خطوط البؤس الكامنة في وجه بسنوات الأسر العجاف وهو قابع في سجنه، تلك النظرة البائسة العالقة في عينيه تحسسه بفترة الذل المرة التي دهنت شخصيته بها، بحيث من نظرة يمكن تخمين شخصه كأسير سابق. صار الهوان والانكسار سمة من سمات كيانه.. حقبة الأسر غرزت سمومها في الذات والبشرة، جزلت النضارة عن الوجه، رسمت تجاعيد به، بثت الشيب في ثنايا شعره ولحيته وفوديه، تلك العلامات أضحت أختاما تذكره بماضيه..

تلك المفازة من سقف الحياة مستحيل تغاضيها، تلك المعالم المؤلمة لا يمكن تجاوزها، ستبقى تأكل من فكره وذهنه وقلبه مع الزمن، ستبقى شاهد عيان على القبح سنين الأسر.

دائما ما كان يشعر بذلك الخدش يتقد نارا في وجهه، أثر يذكره بماض تعيس لن ينفك عن باله. ماض سيلاحق قدره وحظه بقية عمره!... ذلك الخدش أصبح كحاجز صد يعيد خطواته إلى الوراء كلما ود أن يتجاوز مفازة الأسر البائسة...

لذا لم تعد لديه قدرة حقيقية على تخطي عجزه إلا بمعجزة، إلا بطفرة ثقة تنقل الذات لجهة النسيان تضمد جراحاته، قدر ما يجله، يجزل عجزه. في الحقيقة أضحت مسألة الثقة بالنفس أشبه بوغف الصابون، كلما ود أن يمسك بها تتماها بين أصابع يده ثم تتلاشى أمام نظره. ربما سلوكياته أصبحت عادة وليس صفة وطبع ذائب فيه، روتين يمنعه من تجاوز عقبة الماضي والوقوف بجدية على منصة الحياة الجديدة..

رغم عمره الذي لم يتجاوز العقد الثالث، إلا أنه يبدو بسن اليأس تشكمه الهموم، مكبل بالحيرة والعجز، حيرة تعبث في حياته كالأفيون، تغيب وعيه، تشغل باله، تبعده عن واقعه الجديد بغشاء الماضي. دائما ما يتحسف على ضياع شبابه الذي لم يقبض منه سوى على وخز الألم، متمنيا مصير رفاقه اللذين قضوا على هذه التقلبات في حياته.

حالة لا يستطع نسيان آثارها، أحلام تلاشت مع ريح الحرب، عمر زاغ في متاهة الأسر، بات يدور بدوامة العقد وهو يتأمل نجات ذاته بقارب حظ مخروم... كان الأسر قد قص جناحيه، لم يقطف من بستان الشباب عنبا ولا تمرا.. قضى تلك السنين العجاف متقوقعا في جحر اعتقاله، وحيدا برفقة صمت مخيف وفكر مشلول لا يعالج فقاعات جراحه.

العذاب داهمه من كل حدب وصوب، لا مهنة تشغله وتقيمه، لا زوجة تأنسه، لا طفل يسليه، لا ونيس يبعده عن جنون صمته والسكون المدوش الدائر في مخيلته. أضحى كشاخص لا يستشعر سوى بقدر أعمى يقوده إلى حيث لا يعلم.

السؤال الذي يطرحه على نفسه باستمرار هو:...

- إلى متى سيبقى أسيرا في فكره وقلبه؟ إلى متى سيبقى منسيا أمام ذاته؟ إلى متى تتلاعب به الأقدار، مرميا بين منعطفات الحظ والظرف كأثر بال، إلى متى؟؟؟؟؟.

3- جمعية فانكوفر VAST

بعد وصول نجاح بسنتين إلى كندا كان قد وصل زاهد إلى ذات المدينة المسماة **فانكوفر** بواسطة باخرة نفطية، وصل وحيدا برفقة هواجسه وأحلامه وذكرياته المرة، ليس لديه معرفة بأحد إطلاقا ولا له دراية بالغربة، لا يفقه من بأسها وغموضها شيء سوى تلك الحيرة التي صاحبته مع وطأة قدمه أرض كندا. كأنه هرب من تعاسة الوحدة والضياع في إيران ليبحث عن ذاته الضائعة في غابات كندا، فلم يلتمس بها سوى الضعف والهوان، حيث افتقد الثقة والإنسانية بين الناس.

كان قد هرب من لفائف العقد التي تعلقت باسمه وحظه، ليجد ذات اللفائف تربك ساقيه في بلاد الغربة بصيغة أخرى، حيث على مضي شهرين من العناء عاش فترة صراع مع النفس، لا يعرف عنوانا يلتجأ إليه ولا عملا يلتقفه. لم يفقا لغة تعينه على تعامله واندماجه مع أهل البلد إلا بعض كلمات تعلمها على رصيف الحمالة في ميناء بندر عباس في إيران.

تنقل في بعض الأماكن هنا وهناك بحثا عن ذاته، جاب الشوارع الشبه فارغة كالغريق الذي يبحث عن قشة تنجيه من بحر الغربة، عسى أن يعيش حياة تشعره بذات قيمة كباقي البشر...

قضى حياته المنصرمة بدوامة لم يخرج منها إلا بفتات الدولارات، تحمل المشقة والعناء منذ يوم ولادته وحتى وصوله فانكوفر، تأمل بوصوله كندا لم يلتمس فارقا في صيغة حياته تقيمه وتقدره، لكنه وجد ذاته بذات الدوامة والمتاهة، لم يستطع الخروج من قوس العقد ابدا. أضحت العقد وصفا مطابقا لحياته، لم يجد عملا يشغل به ذاته لينهي مفرقعات العقد التي لا تنتهي، ود أن يطفق من قمقم الصراع الذي حُبس فيه،

والذي أفقده نغمة طفولته وشبابه وهويته، فترة عصيبة، أغشته بعتمة الحياة، شبهها بنفق مظلم لا يدرك مخرجه له..

فترة بؤس عاشها في بلده مكسور الجناح، مع أنه تمكن من الهرب من ذلك الواقع البائس، إلا أنه بقي مكبل بقيود الوحدة والعزلة، لم يستطيع تحرير نفسه، بقي منقادا بهوس الضعف الذي كان عليه والذي تلبس به، بسبب ضعف اللغة وعدم تمكنه من إيجاد عمل مناسب يشحن طاقته ويفيد له نضارته.

مضت حياته كقرقعة العلب الفارغة، لا ميزة بها، حمل ما حمل من كنف عمه السليط، ليدخل في قوقعة الحرب والأسر، والتي بدورها كانت أشد بؤسا وضراوة من سابقاتها، لذا بات يشعر بشعور يوحي له بالانكسار والانهزام، شعور مريض يائس، يأس من تجاوز حدتها ووحشتها.. ثم تلت تلك الحقبة فترة بحث واستسقاء وشخصيته مفقودة، فترة ولادة جديدة بين الأنا الحقيقية وتلك المتلبسة بأعماقه وهو فاقدا الهوية والعمل والكيان، أنه التيه الأكبر بعد أن وجد ذاته الحقيقية مدفونة في جسد غيره، بعد أن وجد له قبرا لدى الوطن..

ولأجل أن تعيش أمه وأخوته؛ فضل البقاء ميتا ومغشيا على أن يستعيد ذاته، كي لا يؤذي ذويه، بقي يعيش بروح الأنا المستنسخة بلا أوراق ثبوتية تعرف شخصه، أينما يتجه يجد برزخا يمنع عنه سبيل الحياة، حالة عدم الاستقرار تلبست به في ذلك السدم المظلم والنفق الطويل...

في تلك الفترة كان قد سئم الحياة، عاش مهزوما في داخله، مكسور الخاطر، تنقصه الكثير من أعمدة الوجود بالحياة، تنقصه مستشعرات القيم والثقافة والمادة التي يستند عليها في دروب مشواره.

كل تلك الأمور جعلته ينفر من وطنه ومن ذاته البائسة، باحثا عن هوية جديدة تمثل شخصيته الحقيقية التي دفنت تحت التراب. لقد عاش حياته المنصرمة أسير الأجواء والزمن،

يتحكم بمقدراته كيان مجهول غير مرئي، يحس به ولا يراه.. أنها فترة الظن والضمير والعقد المغلقة الأبواب، تلك المليئة بالمفاجآت، لم يرى منها سوى ضباب سدم يغشي فكره ونظره.

بعد أن تجاوز تلك العقد؛ لم يجد مخرجا في مشواره، لم يتمكن من بلورة هويته وأسمه، لم يحظى بلون الحياة التي يرتجيها في زحمة السلوكيات والألوان المنشية في طرقه.

بقي جسدا مغمى عليه في قرارة نفسه، ميتٍ في بيداء ظنه، يتأمل أن تزاح عنه كثبان العقد. يحلم كالشباب بالسوسن والكادي، بوسن يغشي جفنيه بالأحلام وراحة البال، بفتنة تشرح قلبه وتهدأ أنفاسه، تحرك حجر حظه عن مكانه وقدره عن بقعة اليأس المحيطة به..

كان يتحرك ضمن دائرة القدر دون إرادة، ماضيا خلف مصيره دون إرادة، لا يعلم إلى أين يتجه وبمن يستنجد وهو دون أوراق ثبوتية تثبت شخصيته وكيانه، محذوف الكيان بعد أن حذف أسمه من سجلات الدولة، لا يملك سوى بطاقة عسكرية تثبت أنه كان هناك شخص أسمه زاهد...

بعد أن تيقن من حذف أولوياته من سجلات الدولة، وبعد أن وجد لنفسه قبرا باسمه، وبعد أن فقد أثر أهله، أضحى شريدا في داخل نفسه أكثر مما هو شريد في واقعه، بات كدمية تتحرك بلا روح، ليس له في واقع الحياة أي ارتباط بالعالم الإنساني والروحاني يرتكز عليه.

حالة مأساوية ومعقدة، لا نورٍ في الأفق يستل منه أمله، ولا نهاية يهجس بها ترفق به، كأنها قد طويت سجلاته إلى الابد، لذا هاجر إلى كندا....

إذا هو لم يأتي إلى كندا إلا ليحيى من جديد، ليبحث عن ذاته وقدره بين ثنايا الغربة. وحين وصل لفانكوفر؛ استشعر بولادة جديدة في الوهلة الاولى. ولكنه بعد فترة جفاء ووحدة استشعر بذات اللفائف تلتف عليه، مع مرور الأيام أضحى يعاني من

ذات الصعوبات والفاقة، هجس كأنه لم يخرج من ذلك النفق المظلم، لازال يدور حول نفسه في ذات المكان.

لذا تولدت لديه مشاعر يأس مقيتة أقنعته بالانتحار ونبذ الحياة، هجس بتيه أشد وأقسى من الذي كان عليه، لشعوره بكبر سنه وزيادة وعيه وخواء جيبه.

عاد يقنع نفسه بأنه ميت لا محالة، وأنه يمشي بهيكل جسد عجاز عن التأقلم مع محيطه، بعد أن وجد ذاته مدفونة في الحياة كحقيقية، حيث التمس تفاهة الدنيا التي لا تضحك بوجه الفقير. احتقر قدره وهو يعيش في وطن ليس وطنه، يعيش في عمر أكبر من عمره الحقيقي. يعيش خارج الحدود المألوفة، مما دفع اليأس يتجدد ويتولد في ذاته، دفعه إلى جدية التفكير بالانتحار وأنهاء هذه السلسلة من الأزمات في حياته...

إن كان قد ولد ميتا؛ فما جدوى من الحياة؟ رغم أن ولادته تجددت عدة مرات خلال حياته؛ إلا أنها لم تخرج عن نطاقها الضيق المحدد بالفاقة، كان قد ولد يوم ولدته أمه، ثم ولد يوم شخص قبره وحذفت أولوياته من السجلات الدولة المدنية والعسكرية، ثم ولد يوم أن وصل إلى كندا، ولاداته تتكرر دون تغيير في نمط الحياة. وها هو الآن يعيش في تيه من أمره بين موت متكرر وحياة عقيمة، ريما سيموت موتته الأخيرة بعد أن طغى اليأس يطفح دون عيشة كريمة...

في هجرته لم يلتمس خيط نجاة على الرغم من مرور شهرين على وصوله كندا، تبخرت الفرص الحقيقية من أمامه تماما، أنها سلسلة المعاناة المتجددة في حياة الغربة، وهي جزء من المأساة المتجددة!. كأنه دخل في عنق الزجاجة ليموت موتا سريريا أمام العجز الذي يلازمه...

بات يذرف الدموع على حظه العاثر ونفسه الشريدة، شعر بذاته وحيدة، غريبة، تتآكل من الداخل، بعيدة كل البعد عن حظوظ بقية البشر!!...

لابد من أن استقرار يألفه، لابد من تغيير يلفه وأسم يعيش به، وعمل يرعاه ويتبناه، وعسى أن يجد عمل يرتزق منه.. هكذا صار يجبر نفسه على مرارة الصبر في مواجهة عقد الحياة واليأس المحيطة به لترميم ذاته المنحلة، وإلا الانتحار سيكون الحل الأنسب لإنهاء مأساته.

لم يعد يمتلك في مخزونه ما يعينه على مواجهة الغد بجعبه الفارغة، كان قد أفلس من الخيال والفكر والعاطفة والمادة، دخل في نفق الحيرة والتشتت. ترى؛ ماذا سيفعل حيال عجزه كي تنجلي هذه الغمة من عالمه؟ كيف سيقوم ذاته المريضة وهو دون وصفة علاج ناجع تشفي غليله؟.

صار يتمعن في ذلك السدم الداكن، دون أن يجد مخرجا لنفسه، الطرق شبه ملغمة، عبثية، تلاعبت بأعصابه، كان قد أنفق خلال فترة وجوده في كندا كل ما جمعه في اثنتي عشرة سنة من العمل في إيران، صرفها بين سكن ومأكل ونصب تعرض له وخدع.

بعد ثلاثة اشهر من الفشل واليأس في لكندا وصل لنتيجة انهاء حياته، محاولا أن ينهي سلسلة تجاربه العابثة بالانتحار.. لقد عاش جل حياته كالقط، ينط على حجر الظن دون أن يبتهج طيف حظه. أزمة تلو أزمة، تكالبت عليه الأزمات، وآخر أزماته دخوله نفق التشرد والغربة البائسة.

وقبل أن يوقع على قرار انتحاره وينهي مسيرته؛ أخذ بنصح رفيق له يسكن معه في ذات السكن كآخر محاولة يستنجد بها.... حيث وجهه رفيقه بأن يراجع مركز جمعية فانكوفر للناجين من التعذيب والحروب (VAST)، عسى أن يجد من وراء نصحه فرصة تنتشله من مأساته.

ذهب في يوم التالي الجمعة وحيدا لتلك الجمعية ليستنجد بها كآخر فرصة له في كندا.

في ذات اليوم كان نجاح له مراجعة ضرورية لذات الجمعية، لقد هفا به القدر ليقود أخيه نواف إلى ذات الجمعية لغرض الاستشارة والعلاج، والذي كان قد ابتدأ مشواره سابقا بها، حيث أوصل أخيه الذي لا يحسن قيادة السيارة إلى تلك الجمعية للعناية به من مرض داهمه.

لقد رسم القدر قصة حياة الأثنين بشكل دراماتيكي، كأنهما كانا مسيرين في السلوك والتصرف واتخاذ القرارات المصيرية... قوة مجهولة كانت تقف خلف الأحداث ترتب لهما الأمر، تسيرهم في مجالاتها، تقحم أفكارهم، تتحكم بإرادتهم دون أن يدركا ذلك الأفق.

قدر ما جسد فصول الأحداث بشكل مسرحي، ليدركا الغاية المنشودة التي يتبعونها دون إرادة ودون إدراك. غاية ماثلة أمام أعينهم لا يرونها، أنما هناك احساس خطي رسم لهما مجال الحدث في اذهانهما، إرشاد وهمي تبع خطى سير الأقدام بهدوء وسلاسة نحو الهدف المنشود، خطوات مجهولة ركبتها الأقدام، يراد بها أن تكون لها حكمة في الحياة، أن ترسم شكل القدر وتكتب اسطورة العشق التي كبلتهما. حالة تعبر عن حجم مأساة الحروب من جانب، وتبين وجه العلاقة الإنسانية بين البشر من جانب آخر..

الأقدام تحركت معا من مواقعها كآلة ميكانيكية، دارت العجلات دون توقف ليدركا المصير القادم، رغم بطأ الحركة إلا أنهما وصالا الغاية بالوقت المناسب، كغيوم متفرقة وتجمعت فوق أرض يباب لتحي الحياة بها.

التقيا في بقعة لا تخطر لهما على بال، نفضا غبرة الزمن من على كتفيهما، أرشيا لوح القدر بألوان زهر القدر. لقد دخل نجاح الجمعية الآنفة الذكر كموجة برد لطفت أجواء قلب زاهد وأنفاسه الملتهبة، دخل متجها لغرفة الاستقبال ليجد شخصا غريبا وحيدا يجلس في قاعة الانتظار، وفي ساعة تقترب من

نهاية الدوام الرسمي.

كانت الجمعية خالية من المراجعين إلا من زاهد، ذلك الشخص ذات الملامح الشرقية، قابع في قاعة الانتظار مكسور الجناح ينتظر رحمة الله والقدر.

عندها نظر إليه نجاح نظرة جانبية، هجس به كجرف صخري شط به موجه، ثم نظر إليه نظرة عطف بقلب يملئه الوئام.. من خلال ملامح وجهه الشرقية، توقعه عراقيا، لذا بادر عليه بالسلام، قائلا:...

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام

رد عليه زاهد السلام بالمثل منفتح الاسارير، هجس به قارب نجاة جاء ينقله للضفة الأمان.. كانت لهجة زاهد ثقيلة نوعا ما، أنه لا يجيد العربية، لكنه تعلم بعض الكلمات خلال فترة الأسر. عاد بسأله نجاح.:..

- هل أنت عراقي ؟
- لا أنا إيراني!

عندها تكلم نجاح معه باللغة الفارسية وهو يجيدها بشكل مقبول لطول مدة أسره، مما أذهل زاهد وأفرحه بتواجد شخص يتكلم الفارسية. لذا سأله باندهاش:...

- ممتاز تتحدث اللغة الفارسية بشكل جيد، أين تعلمتها؟ هل أنت إيراني؟
- لا أنا عراقي! لكني عشت فترة طويلة في إيران، كنت أسير حرب!!
- هههههههههههه، (أطلق زاهد ضحكة) يا للصدفة ..أنا أيضا كنت أسير حرب في العراق!!... أين تأسرت ومتى؟
- في معركة المحمرة 1982.
- هل تذكر المكان واليوم الذي أسرت فيه؟ وفي أي

موضع؟

- لا أذكر بالضبط، ولكن كان هناك جنديا إيرانيا، كان طفلا دون لحية ودون شارب! هو من عالجني وأنقذني من الموت.

حينها تذكر زاهد الحالة فعادت به الذكريات لعشرين سنة مضت، عادت به للخلف، تذكر القرآن الصغير، وتلك المرأة الجميلة مع أبنها.... فسأله زاهد:....

- هل كانت معك صورة زوجتك وأبنك محتفظا بها داخل قرآن صغير؟

حينها أصيب نجاح بصعقة، برعشة في أوصاله..

- نعم ..كيف عرفت هذه التفاصيل ؟

بدأ يرتجف، ويتغير لونه، أصفر، تراخت قدماه، حاول أن يجلس أو يستند على أخيه.....بنفس الوقت أصابت الرعشة زاهد وهو مذهول غير مصدق هذه الصدفة، ترى إلى أين قاده قدره...

ثم أكمل له زاهد...

- يوجد وشم وجرح على ذراعك الأيمن، وجرح عميق فوق الصرة وآخر في جبينك.
- نعم ما تقوله حقيقة.... إذا هو أنت، أنت... أنت... يا الله ما هذه الصدفة الجميلة.
- نعم أنا هو .... أنا من أنقذك.

تعانقا، بدأت تنهمر من عينيهما الدموع، علا صراخهما في القاعة، تجلجلت الصالة بالصراخ، صار يصرخ ويبكي ويكلم أخوه نواف وهو يحتضن زاهد بين ذراعيه.

- نواف هذا الشخص الذي كلمتكم عنه، أنه هو، هو من أنقذني ....

تحاضنا طويلا حتى كلت أذرعهما وترقرقت مآقيهما بالدموع...

أخيرا بزغ النور في سدم أفق زاهد ليولد من جديد، شعر بذلك الخيط الرفيع من الأمل قد دنى منه كشهب ليتفجر في حضنه، وأخيرا أمسك بقبس الأمل الذي كان يتأمله، حتما سينتشله من الضياع، أخيرا يبتسم له القدر، دلقه لأحضان صديق من صنعه، فمن المستحيل أن يتركه وهو عالق في الوحل. صديق لم يخطر له على بال، خرج له من قمقم المعاناة، من جوف المستحيل، يا لله كم أنت كريم، جمعت الأعداء على طاولة الرضا والمحبة والمرحمة.

أخيرا أدركا القمة التي كانا يبحثان عنها دون إرادة. الحالة التي صنعتها الإنسانية دون أن يكون لسعيهما دور فيها. عندها أكتشف كل منهما بأن الإنسان مسير في أموره من قوة خفية ترسم له مستقبله. ادركا معا صيغة حين تتبادل البنادق القلوب تتجاوز العقد، فعلا حين تتوقد الرأفة في القلوب تعمل المستحيل الذي تعجز عنه القادة.

لم يفكرا بالنهاية، لكن القدر أراد أن تكتمل فصول المسرحية، لتتوضح معالمها وأهدافها الانسانية المتينة للبشر، بعيدا عن جور وإرادة الحكام العابثين بمصائر الشعوب..

صار يفكر زاهد مع نفسه ويأملها خيرا، لقد أنتشل نجاح من براثن الموت خلال الحرب، ها قد جاء اليوم دوره لينتشلني من التيه، جاء دوره لنتبادل الأدوار، لابد أن يُعيد لي ديني الذي علق برقبته لينتشلني من الضياع، يوم لك ويوم عليك.. لابد أن يقوم بدوره الأخلاقي، فأنا سبب وجوده في الحياة، أو بالأحرى ألهمني الله بإطالة عمره، لابد أن يمد لي يد العون لينقذني من البؤس الكابد على قلبي. المسؤولية الأخلاقية تحتم عليه أن يضع حدا لمأساتي، أن يضع النقط على الحروف ويختم فصول مسرحيتنا بما أراد الله.

يا لها من مصادفة جميلة وعميقة بإنسانيتها حاكها القدر لكلينا. ما كنت أصدق أن ألتقي الانسان الذي انقذته من الموت

في بلاد الغربة، ما كنت اصدق الإنسان مسير في كل خطواته، كل شيء مكتوب في كتاب ومقدر بقدر.

رحماك يا الله --- إن كلّ ما عمل الإنسان من خير أو شر، من عمل صالح أو كالح فهو محصّي وغير منسي، (وكل شيء أحصيناه في كتاب مبين) صدق الله العظيم. لقد أحسنتُ إليه يوما، وها أنا أرى بذرة أحساني قد اثمرت، (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) صدق الله العظيم.

إذا الله لم يخلق البشر عبثا، إنما لِحِكَمٍ بالغة عظيمة، (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ .) صدق الله العظيم، فعلى البشر بذل الطاعة والعبادة.

حينها قال نجاح لزاهد بشيء من العتاب:..

- يا أخي أنت لم تعرفني باسمك؟
- أسمي زاهد – وأنت أيضا لم تذكر لي أسمك؟
- أسمي نجاح .

والكلام لنجاح ...التفت إلى أخيه نواف ...

- أسمع يا نواف وأنا مجروح يائس أعاني من الألم بعد أن سقطت القذيفة وقضت على رفاقي، حينها أصابتني إغماءة ومن ثم غفوة بعد عجز وإرهاق، خلال غفوتي رأيت رؤيا، نعم كانت رؤيا كرؤيا نبي الله يوسف... في الرؤيا زارني أبي رحمة الله عليه، كان يرتدي جلبابا أبيضا، يمتطي فرسا شهباء، قال لي بالحرف الواحد، ولن أنسى كلماته الرنانة أبدا...

قال لي:....

- لا تيأس يا بني... قم وأنفض غبار اليأس والكسل، لقد أنقذك الله من الموت لغاية ستراها بأم عينك، لا تخف، لن تموت، ليس هذا وقت أجلك، أربط جرحك وشد من أزرك وأستعن بالله.

بعدها فزيت من غفوتي مرعوبا خائفا، كنت خلالها ارتجف من الفزع الذي تغلغل في أوصالي، أرتجف فرحا وخوفا بنفس الوقت، غير مصدق ما آلت إليه الرؤيا.. ثم بعد ذلك جاءني زاهد منقذا.....

قال نواف لنجاح وهو يمسك ذراعه:...

- الحمد لله يا أخي على سلامتك وسلامة زاهد الطيب، أن ألله أراد لتلك التجربة أن تكون درسا للإنسانية، الشعوب بطبعها محبة لبعضها، غير أن الساسة تخطط لطمع ولأهداف تخصها، لقد ابتلينا بقادة لا تعرف الرحمة ولا الألفة ولا العدالة، كل يود أن يموت على كرسيه.
- يا إلهي كم أنت كريم، الآن عرفت غايتك المرادة. تلك التي من أجلها لم أمت، الآن عرفت بأن أبي لم يكن سوى ملاك رحمة، جاء يخبرني بهيئة الوالد. كم أنت كريم يا رب.. أنقذني زاهد من الموت قبل عشرون سنة، والآن جاء دوي لأنقذه من العجز الذي يلاحقه في بلاد الغربة. تلك هي غايتك، الرحمة والإنسانية....

إذا لِمَ استمرت تلك الحرب المجنونة كل تلك السنين لتجز رقاب المساكين؟ أكيد لحكمة تريدها- عفوك يا الله، لا أتدخل بقدرك وقدرتك، ولكن رحمتك شملت الكون كله، فأرحم قتلانا وادخلهم في جناتك كشهداء، فلا فرق بيننا إلا بالتقوى. وأني لأتحسر على أصحابي وزملائي وأصدقائي الذين قضوا دون ذنب، وأتحسر على أحلامي وفقدان أمي وحبيبتي، كم وكم من امرأة ترملت وكم من صبي تيتم.

لا إله إلا الله ،لا إله إلا الله.

عاد إلى زاهد ليشرح له الحلم الذي رآه وماذا قال له أبوه في حينه....

تصور الحدث جيدا يا زاهد، حين أنقذتني لم تكن تلك هيَّ إرادتك، بل كانت إرادة الله، وحين تأسرنا نحن الأثنين كانت إرادة الله موجودة في كل خطواتنا.. لولا الأسر ما كنت فهمتك ولا فهمتني. وحين التقينا هنا لم يكن لقائنا بإرادتنا، أنما هي إرادة الله سيرتنا، من الذي دفعك لتهاجر إلى كندا وإلى هذه الجمعية في هذا اليوم وفي هذه الساعة؟ كل خطواتنا محسوبة وبقدر، سبحان الله...هناك شيء خفي أشعر به، أراه، أتحسسه، ألتمسه بهواجسي وبعقلي، قوة خفية تشدني إلى عمق السماء ...هو الذي جاء بك وجاء بي في مثل هذه الساعة إلى هنا، ذلك السحر المهجن، أنه الأيمان بالله، أنه القدر الأبيض الناصع.. ها نحن نذق الشهد في نهاية الكأس.. إنها الحكمة التي كنت أبحث عنها طوال عشرين عاما ولم أجد لها معنٍ أو صدٍ إلا في هذا الوقت. الحكمة التي اختزلت حياتنا، اختارتنا لتمثيل فصول مسرحيتها، جعلتني أصل لكندا قبلك لأتحمل الأدوار الباقية.

- أنظر ماذا خبأ لنا القدر، من بين ملايين البشر، من بين خمسة وثلاثون مليون كندي التقي بك هنا، في هذه الجمعية، في هذا اليوم المبارك (الجمعة)، وفي هذا البلد الغريب.... يا ترى! هل كل ذلك يجري بمحض الصدف؟ أم أنه مخطط له من قبل تلك القوى الخفية التي سيرها الله لنا لترعانا ونراعى حكمته...
- كم أنت عادل يا الله، أنها المعجزة فعلا... مثلما تحققت رؤيا النبي الصالح يوسف عليه السلام تحققت رؤياي بحذافيرها.... منذ اليوم لن أقهر نفسي، أكيد بأن الله كفيل بتعويضي كل شيء بأفضل من الذي ضاع، حتى سنين العمر والعاطفة. هذه القمة التي أراد الله بأن نعتليها معا.....

نجاح موجها سؤاله لزاهد....

- لماذا أنت هنا؟ لماذا جئت هنا؟
- أكيد جئت أبحث عنك دون إرادتي... لألتقيك، لنصنع المعجزة، لنرتقي القمة معا، كلانا بطل هذا المسرحية العجيبة، لقد تبادنا الأدوار والبنادق والقلوب، احتكم بنا الزمن. جئت أبحث عن يد تنتشلني من الغرق، تصور يوم أمس قررت أن أنتحر لأني عجزت من أن أجد لي عملا ارتزق منه، فأعطيت نفسي فرصة أخيرة لأصلح ذاتي، واليوم أفكر بالحياة بعد أن رأيتك..
- الحمد لله على كل شيء فأنت أخي ولا تفكر بالغد.
- يا لتناقض الرغبات وتقلبات الأفكار.. لولا نزيل يسكن معي والذي أرشدني لهذه الجمعية، ما كنت التقيت بك.. والسؤال هو: من أوحى له بإرشادي؟ ألم تكن تلك هي إشارة الحكمة التي رسمها الله لنا؟ ألهمه الفطنة ليأخذ بيدي وينصحني بعد أن وجدني في حالة يأس وعجز... سبحان الله، مثلما فسرت لي الحدث، هناك قوة ما خفية تسيرنا لإتمام الحكمة. هنيئا لك وهنيئا لي، لقد رسمنا لوحة الإنسانية.
- نعم لقد وصلت لمبتغاك، قم نتوضأ ونصلي ونسجد لله ومن ثم نذهب ونبني مستقبلنا معا... قم وأمضي معنا، لم تعد عندك مشكلة تبحث لها عن حل، كل مشاكلك سأحلها بأذنه تعالى.

لم يكن لقائه بزاهد سوى حل لغز لعبة الأحجية التي اكتملت صورها بصورة اللقاء، ترتبت بشكلها الأخير بعد اكتمال المعنى، كل عانى في الوصول لنهاية العقدة، ولكن في النهاية تمكنا من حل المعضلة معا واكتشفا الصور المضيئة من الحياة...

الحكمة أحرقت معاناتهما، عرّفت الإيمان ومعانيها، ذلك ما جعلهما يقتربان من الله أكثر وأكثر؛ باتا لا يفارقان فريضة ولا نافلة.

بلقائه زاهد علم بأنه لم يكن أوفر حظا منه ولا أفضل قدرا من حظوظه، كأنهما تقاسما ذات القسمة. كان حضور نجاح للقاعة أشبه بسحابة صيف بللت ثغر زاهد وأندت قلبه بالرحمة والعاطفة، فأزاحت عنه فيض الحيرة والعناء.

بعد ذلك اللقاء مد له يد العون، وفر له مستلزمات العيش، فتح له باب العمل في ورشة أخيه، زوجه أخته نوال التي تصغره خمس سنوات، تطورت وتعمقت العلاقة بينهما، تآخيا، أصبحا كالشمس والقمر يتبادلان الأدوار والألفة، لا يفترقان عن بعضهما البعض، ضوء هذا أمتزج بنور ذاك، **فأدركا الحياة التي لم يدركها أحد من قبل، أنها القمة المدهنة بالقيم الإنسانية حين تتوقد الرأفة.**

لم يكن في الحسبان أبدا، بأن العداوة التي جمعتهم في ساحة القتال تكون باب فرج لصداقة دائمة، أن يكون عدوك هو أقرب أصدقائك فتلك هي أكبر النعم، وحكمة أرادها الله أن تتم في عالم البشرية.

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤ فصلت﴾ صدق الله العظيم.

النهاية

للكاتب أحدى وعشرين كتابا
بين روايةٍ ومجموعةٍ قصصية

المؤلف : عباس مدحت البياتي

الروايات

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- الاقداح المتكسرة
9- عواصف الجنين
10- الفراع
11- حين تتبادل البنادق القلوب
12- عقاب الذات
13- الرؤيا

مجموعات قصصية

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال
6- الأنتقام
7- المجموعة الكاملة الجزء الاول
8- المجموعة الكاملة الجزء الثاني